

بين النيك والاثان

بقلم
عبد القدوس الأنصاري



اهداءات ٢٠٠٠
د.د.رشيد سالم الناصوري
أسفاد التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية



حضرة صاحب الجلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود المعظم
ملك المملكة العربية السعودية ورائد منضتها الكبرى

بَيْنَ النَّاسِ وَالْآثَانِ

بين النيك والاثان

بقلم
عبد القدر وس الأضاري

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى - بيروت ، ١٩٦٩

الطبعة الثانية - بيروت ، ١٩٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

نحمدُ الله حمد الشاكرين ، ونصلي ونسلم على أفضل خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه .

أما بعدُ فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب «بين التاريخ والآثار» أقدمها للقراء بعد نفاذ طبعته الأولى ، وبعد ورود الطلب المتوالي ، إلني : من القراء الراغبين في اقتنائه .

ولعل من المناسب الإشارة إلى مزايا الطبعة الجديدة هذه . فقد أجرّيتُ بها تصحيح ما لاحظتُ حدوثه من السهو في بعض العبارات في طبعته الأولى ، كما وضعتُ بها «زيادات» خفيفة اقتضاها ادراكي لزوم القيام بها . وكل ذلك لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة لا كمّاً ولا كيفاً .

ومن تلك الزيادات وضع «مُصَوَّرَتَيْن» بالكتاب لمدينة الحارِ (البُيُوتِكَة) التي ورد ذكرها في الكتاب بمناسبة تاريخية ، وكانت ميناء المدينة المنورة العالمي الكبير قبل ميناء ينبع بأزمان . وأحد الرسمين هو «خريطة» أثرية لبلاد العرب ، ذُكِرَ فيها ميناء «الحار» وعُيِّن موضعه على ساحل البحر الأحمر ، وقد وضعها الرحالةُ العربيُّ الشهير (ابن حوقل) الذي عاش في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وقام بجولات واسعة في أنحاء العالم الإسلامي ، وكان كتابه (صورة الأرض) ثمرة رحلاته تلك . وثاني الرسمين خريطة «تقريبية» لمدينة الحار المجاورة

لمينائها ، وقد وضعتُ هذا المصور التقريبي للمدينة المنشورة بعد وقوفي على أطلالها في الرحلة الثانية اليها بشهر ربيع الأول ١٣٩١ هـ ، الموافق يولييه ١٩٧١ م .

هذا وقد استلزم اثباتُ تلك التنقيحات والزيادات في صُلبِ الكتاب لإثباتها أيضاً في مهارس أعلامه وأمكنته . والله الموفق والمهدي إلى سواء السبيل ، ومنه وحده نستمد المعونة والسداد وتحقيق الآمال .

عبد القدوس الأنصاري

مقدمة الطبعة الاولى

الحمد لله رب العالمين . واصلوا والسلام على أشرف المرسلين ،
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد فهذه بحوث متفاوتة ، بالنسبة للزمن الذي كتبتُ ونُشرتُ
فيه ، وبالنسبة لما نُشرتُ فيه . ولكنها مع هذا التفاوت المزدوج مترابطة
في هياكلها وفي جواهرها .. وفي موضوعاتها .. وإني لأرجو أن أكون
قد نجحتُ في ربط أواصر الصلة بين مادتي التاريخ والآثار اللتين
تقدمان ثماراً فاضحة للباحثين والمستطلعين عن حقائق العصور القديمة في
عصرنا الحديث . وموضوعات هذا الكتاب لا تخرج عن دائرة البحث
في بعض آثار هذه البلاد العربية وهي : المملكة العربية السعودية ،
وما يقع بمشرقتها ، مثل الكويت ، وما يقع بشمالها ، مثل الأردن
وسورية ولبنان . وهذا البحث الأثري ، كما تراه ، مقرون بالبحث
التاريخي المجرد في نفس إطار الأقطار المشار إليها ، ولا أدعي أنها أبحاث
مستقصية شاملة وإنما هي غالباً لمحات .

وقد دعاني إلى افتتاح ميدان هذه البحوث العويصة التي لا يزال
الغموض يكتنفها في كثير من أبعادها وحقائقها ، دعاني إلى ذلك محاولة
إبراز ذلك الإسهام الكبير الذي قامت به حضارة العرب في جاهلية وفي
إسلام ، حيال الحضارة الإنسانية الشاملة .

وإني بهذه المناسبة - أدعو باخلاص وبحرارة علماء العرب والمسلمين

إلى مزيد من هذه البحوث : الأثرية التاريخية الكاشفة .. كما أدعو أيضاً إلى تخصيص وافر الأموال والجهود والرجال للبحوث الأثرية التنقيبية في أعماق أرضنا المعطاء ، حتى نخرج لنا من بينابيعها الثرة كنوزها الثمينة المظمورة في باطنها .. على أن نقوم نحن أيضاً بهذه المهمة العلمية : ونقوم بعدها بمهمة دراسة تلك الآثار بأنفسنا وبوسائلنا العلمية الخاصة غير معتمدين على اهتمامات غيرنا في هذا السبيل اللهم إلا بالنصيب الضروري فيما لا بد منه من التعاون البشري العام على تقدم العلوم وتوسعة آفاقها .. كما أدعو في نفس الوقت إلى مزيد من البحث في بطون الكتب التاريخية والأثرية والعلمية والأدبية ، لاستخلاص حقائق تاريخنا القديم المبعثرة .

هذا وقد اعتمدت في البحوث هذه على جملة مراجع .. في طليعتها القرآن المجيد وتفسيره ، ثم كتب بعض المؤرخين والجغرافيين الغربيين القدامى كهيرودتس ، والمحدثين ، وكتب بعض المؤرخين والجغرافيين العرب ، والرحالة العرب القدامى ، كالمحدثاني في الإكليل ، وصفة جزيرة العرب ، وكالاصطخري ، وياقوت الحموي ، وابن جبير ، وابن بطوطة . وكبعض المصادر اللغوية مثل المختص لابن سيده ، ولسان العرب ، والقاموس ، وتاج العروس ، والمعجم الوسيط تأليف المجمع اللغوي بالقاهرة ، ومعجم متن اللغة لأحمد رضا ، وكمؤلفات بعض العرب المحدثين في التاريخ مثل كتابي : العرب قبل الإسلام لجورجي زيدان ، وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ، وكهف أهل الكهف لرفيق وفاء الدجاني ، وكتب بعض المستشرقين في الآثار العربية ككتاب هاردينج المترجم إلى اللغة العربية بقلم سليمان موسى وزميله . يضاف إلى ذلك بعض مؤلفات الباحثين السعوديين مثل صحيح الأخبار لابن بليهد ، وبحث المعادن لرشدي ملحس ، وقلب جزيرة

العرب لقواد حمزة : وجزيرة العرب لحافظ رهبة ، وكتاب في ربوع عسير لعمر رفيع ، والعرب في أحقاب التاريخ لأمين مدني . ولا أنسى كتابي ابن بشر وابن غنام في هذا الصدد .. وكتابي تاريخ مدينة جدة ، وآثار المدينة المنورة لكتاب هذه السطور .. وغير ذلك مما اشتملت عليه بحوث استكشافية أثرية قمتُ بها أثناء رحلاتي ونجولاتي .

وهكذا يصدر هذا الكتاب مُزدوج الشخصية موحّد الكيان والأسلوب والهدف . إن شخصيته مكوّنة من جِماع البحوث الأثرية ، والبحوث التاريخية الحبرية المصفاة من الشوائب بقدر اجتهادي .

وكنت حينما بدّأت « هواية » تتبع الآثار « تداعبُ خيالي في أول عهد الشباب ، قد شممت من أريجها العبق أن لها فائدة تذكر في دعم مرويات التاريخ النظري ، ولذلك فهي جديرة بالاهتمام وقيمة بالتقدير والاستمرار .. لاني لمست بالدقة أن كثيراً من الأمور المهمة في معرفة تاريخنا العريق قد أهملها تاريخنا النظري المكتوب دفعة واحدة . ولعل ذلك يعود إلى أنه كان يراها تافهة بالنسبة لوقته ، أو لأنها لم تدخل في إطار ما أُلتمّ به من الحوادث . فمثلاً نُقِرَ على صخرة ملساء كبيرة مربعة في جبل يقع شمال سد وادي رانواء في ضاحية المدينة المنورة الجنوبية الشمالية بيتنا شعير قديمان ، لمجهول ، سجل لنا فيه عمراناً مزدهراً للمكان الذي نراه الآن قفراً يباباً بين جبال سود جرد ... ومثلاً اكتشفتُ في جنوب المدينة المنورة ، جبلاً متوهجاً صغيراً ، بأعلاه كتبه قبيبات وإطنة مبنية من الحجر (اللذبس الصغار) وفي داخلها مقابر منقورة في الحجر ممددة فيها هياكل قوم ضخام الأجسام . وقد أدركتُ في نفس الوقت أنه لا بدّ أن يكون بجانب هذه المقبرة النائية عن العمران ، مدينة قديمة مجهولة . والصويرة المملومة بالنقوش الأثرية ما بين خطية ورسوم حيوان وأناسي ، لم أجد لها ذكراً فيها اطلعتُ

عليه من المصادر ، مع أنها في طريق المدينة - القصيم ، وطريق المدينة - بغداد ، أي طريق الحجاج في الزمن الغابر . وكمدينة بني سليم التي أدركت أنها كانت موجودة في بلادهم ، عامرة زاهرة ، من مقبرتها التي جلب إلى جدة بعض بني سليم الشواهد منها ووصفوها لي بالانساع وكثرة حجارة الشواهد المنقورة بها الخطوط الرائعة القديمة . وجعل هذا وغيره أممته تاريخنا المكتوب ولم يعرج عليه فيما أطلعت عليه حتى الآن .

كما فطنت لحقيقة علمية كبيرة ، ساقني إلى مزيد الحرص على تتبع ما أمكن تتبعه من الآثار واستنطاقها عن ماضي الأخبار . والحقيقة الماثلة للعيان هي أنه إذا اتفق التاريخ الخبري والشاهد الأثري على حدوث أمر ما ، فإن ذلك يكون حقيقة مؤكدة ، لا شبهة فيها ولا التواء .

وإذا انفرد التاريخ الخبري بحدوث أمر ما ، فإنه لا بد أن يوضع تحت مجهر الفحص والدراسة المستوعبة . ليتوصل إلى رجحان وقوعه أو نفي وقوعه . وهذا باستثناء كلام الله تعالى ، الثابت ، وهو القرآن المجيد وباستثناء الحديث النبوي الصحيح . أما إذا انفرد الشاهد الأثري بحدوث أمر ما ، فإن الغالب أن يكون حدوثه صحيحاً . لأنه تصوير صامت لا يتأثر غالباً بالدعاية أو الملق ، ومع ذلك فليس كل ما نتحدث به الآثار صحيحاً ، مائة في المائة . وقد دلنا الاستقراء على أن من الآثار الخطية والرسمية المنقورة على الصخور ما لا يخلو من مبالغات وتحويل ، أو نقص أو تزويد ، بحسب الظرف الذي نُقِرَ فيه ذلك الأثر سواء أكان خطاً أم صورة .

وبعد ، فإن هذه الأبحاث المدونة في هذا الكتاب قد كنتُ كتبتها ونشرتها في أزمنة متفاوتة ، وفي أماكن متفرقة ، وفي صحف ومجلات

وغيرها .. وقد استغرقت كتابتها المتباعدة المسافات ، واحداً وثلاثين عاماً .. وبالتحديد استغرقت من عام ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٦ م إلى عام ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م .

وحيثما قررتُ جمعها بين دفءي كتاب واحد ، فضاء الإفادة من هذا الجمع بعد التفرقة ، وهذا الضم بعد التشتت ، راجعتهما وأعملتُ فيها من التعديل والتنسيق ما اقتضاه هذا الكيان الوليد .. وهذا الجهد الجليل ..

وكما أشرتُ إليه فإن من البواعث التي دفعني إلى هذا الصنيع ، الرغبة العميقة الجذور الطامحة ، الملحة في إلقاء بعض الأضواء على الماضي البعيد ، والأبعد من تاريخ العرب والإسلام ، خاصة في هذه الديار التي هي مهد العرب والإسلام .

فإذا أدتِ الكتابُ مهمته هذه فذلك فضل من الله ومنة ... وهذا هو ما نرجوه ونأمل أن يحققه اللطيف الخبير .. إنه على كل شيء قدير ، وإنه أكرم مسؤول وأكرم مجيب . وإذا حدث فيه شيء من السهو أو الخطأ فإنه غير متعمد . والإنسان دائماً معرضٌ للخطأ والنسيان . والعبرة قبل كل شيء بالنية الطيبة والعمل الصالح المفيد .

من ذا الذي ما ساء قط ؟ ومن له الحسنى فقط ؟

أضواء
على تاريخ جزيرة العرب

جزيرة العرب ، هي المهد الأول للساميين عموماً ، فهي إذن مهد الحضارة العالمية ، لأن الساميين هم بناة هذه الحضارة .

هذا ما يراه كثير من علماء الآثار ، ولهم دلائل أثرية ، ودلائل خبرية مقارنة ، ودلائل منطقية وطبيعية على دعم هذا الرأي .

وإذا أردنا أن نحدد المنطقة التي نشأت منها الحضارة فيما قبل التاريخ ، والتي عُرفَ فيها التعدين والزراعة والصناعة والتجارة وسائر مقومات الحضارة قبل أي جزء آخر من أجزاء الدنيا القديمة ، فلنا أن نقول استناداً على أرجح أقوال الأثريين والجيولوجيين : إنها المنطفة التي توصلُ بين نجدٍ والحجاز ، وهي التي تكثُر فيها المعادن وهي التي اكتشفت فيها آثار المدن والقرى والتلال التي طمرت منذاً ومصانع ومقابر ومزارع عريقة في القدم ، من آثار أولئك الجبابرة بناة الحضارة الإنسانية الأقدمين .

وسرى أن المؤرخين يصفون بلاد العرب بكثرة المعادن والمناجم ، فإذا رجعنا إلى أقوالهم ومشاهداتهم وجدنا أن هذه المنطقة هي أحفصل المناطق العربية بالمناجم الذهبية وغيرها ، فما أكثر المناجم التي يصفونها بأنها في أرض كعب بن كلاب ، وغطفان ، وعبس ، وذبيان

وسُئِلْتُمْ^١ ، وهي تقع في أواسط المملكة وتأخذ بأطراف من الحجاز ، وبأطراف من نجد ، في الشرق ، وفي الشرق الجنوبي ، وفي الشرق الشمالي معاً .

كما أنه بهذه المنظمة الممتدة كانت تجري الأنهار الفيضانية التي قال عن أحدها (هيرودتس) (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م.) : إنه نهر يسمى (كورس) . ولأنه من الأنهار العظيمة ، وإنه كان يصب في بحر (إريتريا) أي البحر الأحمر^٢ .. كما أن من هذه الأنهار نهر (لار) (LAR) ، الذي أشار بطليموس (القرن الثاني الميلادي) بأنه ينبع من نجران ، ويسير في الشرق الشمالي ، حتى يصب في الخليج العربي ، ويرى بعض الباحثين أنه هو الذي كان يجري في وادي الدواسر^٣ . وقد كانت هذه الصحارى التي نشاهدها اليوم وشاهدها قبلنا الأجيال المعروفة فيما بعد التاريخ ، كانت مروجاً خضراً ، أهلة بالسكان^٤ وقد كان للعرب ، سكانها إذ ذاك ، علمٌ واسع بتنظيم شؤون الري ، وتدل الآثار التي عثر عليها الباحثون في الصخور وتحت الأرض ، على حضارة لهم زاهية في هذه الصحراء الجرداء من قبل حدوث الحفاف بها . وكان للعرب إذ ذاك ممالك ودول قائمة على دساتير منظمة .

وقد عرف لديها الخط قبل أي قبيل أو أمة .. وناهيك بمدنية المعينيين والصفويين ومن جاء قبلهم ومن جاء بعدهم من العرب القدامى الذين انتشروا في أواسط الجزيرة وشرقها وغربها وشمالها وجنوبها . ثم عمت البداوة أراضيها بعد ذلك بفعل اشتداد الحفاف ، وفوضى الحكم

١ بحث المعادن : لرشدي الصالح ملسم .

٢ ص ٩٨ من تاريخ العرب قبل الإسلام لحواد علي .

٣ نفس المصدر .

٤ تاريخ العرب (مطلوب) لتغليب حتى ، ج ١ ، ص ١٥ .

وضعف الحكومات ، وترعم المشايخ وانتشار أعمال السلب والنهب .
ثم جاءت عوامل الزمن والإنسان فطمرت كل ما خلفته تلك الحضارات
الزاهرة من آكار وعمران ، ثم لفها النسيان في ضبابه ، حتى ظن
الناس فيا بعد ، أن الجزيرة ، وخاصة هذه المنطقة ، منها - نجداً
والحجاز لم يكن أهلها بألفون غير البداوة وشظف العيش والحفاء والجهل
المطبق ، وأن لا صلة لهم بكل مقومات الحضارة ، مما أثبتت الكشوف
الحديثة الأثرية ، والمستندات الخيرية ، بطلانه . فكان لزاماً على أهل
هذه البلاد الإلمامُ بهذا الرأي العلمي الحديث ، ليعرفوا ماضيهم ، وليبنوا
كما بنى أوتاهم .

هذا وقد ظلت أحاديث الأنهار العظيمة بالجزيرة شواهد نواظق على
تلك الحضارات الذاهبة . وناهيك بوادي الحمض ووادي السرحان ،
ووادي الرمة ، ووادي الدواسر ، وغيرها من الأنهار التي جفست
وبقيت مجاريها أحاديث تجري بها سيول الأمطار .

وكان من أثر الحفاف الذي نجح على هذه البلاد بعد تلك العصور
الناضرة ، أن بدأت موجات الهجرات منها . فترح الفينيقيون عنها
بعدما عمروها وثمروها ، إلى الشمال ، وإلى الشمال الشرقي ، وإلى الشرق
وبقيت بواقٍ منهم اندمجت في أحفادهم من أجداد العرب الذين عرفوا
منذ أزمانٍ سحيقة بهذا الاسم ، والذين عُرفَت بهم جزيرة العرب في
الآماد السحيقة أيضاً .

وقد هاجر إبراهيم عليه السلام بهاجر وابنها اسماعيل إلى ديار
العرب ، واستقر بهم المقام في هذا الجزء المعروف فيا بعد بثهامة ،
في الوادي الأجرد الذي بنيت به مكة بعدئذ ، وكانت منطقة مكة
إذ ذاك قد شملها الحفاف كما شمل أغلب المناطق الأخرى ببلاد العرب ،
وصوح نبتها وآضت بلقماً خالياً خاويًا ، لا ماء فيه ولا كلاً ، ولا أناسياً

وكانت قوافل عرب الجنوب تمر بهذه المنطقة في رحلاتها التجارية ما بين الشام واليمن ، حاملة الطيوب والصمغ والجلود ، وقد لاحظت قافلة عابرة من قوافلهم علامات الماء بها ، وأدهشتها المفاجأة ؛ إذ رأت هذه المرأة الوحيدة مع ابنتها الرضيع ، فنزلت عليهما بالوادي ، وكانت (زمزم) قد صعد ماؤها الغزير إلى سطح الأرض ، حيث يمكن تناوله باليد المجردة ، وكان ذلك تكريماً من الله لإسمائيل ولأمه .. وهكذا قُدِّرَ لمكة أن تنشأ ، وقد يكون إنشاؤها مجدداً ، بدليل وجود البيت العتيق بها ^٢ ، (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) .. وهكذا قُدِّرَ لمكة أن تقاوم طبيعة الحفاف المنبسطة على رفعتها ، وأن تبتدئ بهذه المقاومة الهائلة بعد شمول الحفاف لجزيرة العرب بأمد وجيز ، على ما نراه بتحفظ ^٣ فقد صرح ابن عباس رضي الله عنه في حديثه المروي عنه في تاريخ مكة للأزرقي أن العماليق كانوا يسكنون بمكة ، والأرض مخصبة ، والأنهار مندفة ، ثم أحملت فهجروها إلى اليمن ، ومن ثم جاءت إليها جرهم . ومجيء جرهم إليها معلوم أنه كان عقب قدوم إبراهيم مهاجر وإسماعيل ، إلى منطقة مكة . وبذلك كانت مقدمة عمرائها الثاني الذي استمر حتى الآن ، وما بعد الآن بأزمان مديدة إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر المؤرخ بطليموس (القرن الثاني بعد الميلاد) مكة ، باسم (ماكوربا) .

ويرى أصحاب تاريخ العرب . مطول) أن : هـ هذا الاسم مشتق من الاسم السبئي : (مَكُورَابا) ومعناه مقدس أو حرم ، وقالوا : إنه يستفاد من هذا الأصل أن مكة كانت في أول عهدها مقاماً دينياً ..

١ وقد يدك هذا على اقتراب زمن نزولها بوادي مكة ، من أوائل عصر الحفاف .
٢ و ٣ وما يستدل به على صحة هذه النظرية ما ورد في الأزرقي ص ٤٥ ، ج ١ .

إذن فهي مركز للعبادة يرجع عهده إلى ما يسبق محمداً عليه السلام بأزمان متطاولة^١ . وهذا الذي قالوه ذو شقين .. فأما تأويل الاسم ، فإني أرى أن المؤلفين واهمون ، وأنهم تتبعوا حرفية آراء المستشرقين في التأويل ، فأصابوا في الحملة وأخطأوا في التفصيل . ذلك أني أرى أن بطلميوس قد حترَفَ ، بلهجته الاعجمية ، الاسم العربي ، الذي هو على ما أرى : (مكة الرب) .. أي بلد الله .. وقد تحول في الترجمة إلى ما ترى : (ماكورابا)^٢ .. وجاء المستشرقون فتأولوا الاسم بأنه من اللفظ السبتي : (مكورابا) أي حرم ومقدس .. والاسم السبتي لا بدّ أنه (مكة الرب) أو (مكة أم رب) بقلب لام التعريف إلى (أم) على لهجة اليمن ، وقد سمع بطلميوس هذا الاسم من تجار العرب فنقله إلى لغته محرفاً ، كما ورد في سِفْر تاريخه ، وأضفى عليه المستشرقون المعنى المطلوب ، وإن فاتهم حقيقة التأويل والتفسير المنطقيين للصيغة ، لأنها نقلت اليهم محرفة مشوهة . وأما الشق الثاني فهو ما يختص بمقام مكة الديني ، وما قالوه ، يطابق ما جاء به الإسلام ، وصرح به القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فمكة بلد الله و « إنا أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم » ..

هذا وقد كان من أثر الخفاف العام ، وضعف حكومات العرب في أنحاء الجزيرة ، خرابُ السدود العظيمة التي أقامها أسلافهم ، للاستفادة لزراعتهم وصناعاتهم من السيول والأنهار على النحو الذي يجري بعد

١ ج ١ ، ص ١٤٤ .

٢ مثل هذا ما فعله العرب إذ ينقلون إلى لغتهم بعض الأسماء من أعلام وغيرها من الأعجمية فهذا القليس الذي بناه أربة باليمن هو محرف عن (اكليسيا) اليونانية . نفس المصدر ، ج ١ ،

ص ٨٣ .

ذلك في العالم . وقد أدرك التاريخ حقيقة خراب سد مأرب أخيراً
 وتحول حدائقه الغلب المتسلسلة إلى أرض قفر يباب ينمو فيها السدر
 والأثل والخمط ، مما هو مشاهد بها حتى اليوم^١ . . . وقد انطلقت
 عوامل الخراب من قبل ذلك ومن بعده إلى سدود وفيرة كالسد المعروف
 بقرب الطائف بالسد السمَلَقِيّ ، وقد نتج ذلك عن انصراف السكان
 إلى اشباع بطونهم من لحوم الأنعام بشن الغارة على من يملكها مسن
 جيرانهم ولو كانوا ذوي قربي لهم ، وانتشرت الفوضى وعمّ الذعر
 وساد الفساد في الناس - بتناسي الأجيال السحيقة وبسيان الحضارة
 المندثرة قبل عشرات القرون - وظنهم أن الجزيرة بلاد نشأت فطرة
 على البداوة وأنها لم يمر بها فيما مضى من عهودها طائف من الحضارة .
 وجاء دَوْرُ الإسلام ، فجمع الشمل المتشتت ووحد الكلمة المتفرقة ،
 وصحح أهداف الحياة ، ومقاييسها ، فنعمت الجزيرة في صدر الإسلام
 بحضارة دينية ودنيوية مثالية .. والإسلام دين عام خالد، وبُنَاتُهُ كانوا
 يريدون أن تنتشر أنواره في كافة أرجاء الأرض التي أظلمها عهد رهيب
 من الاستعباد والشرك والطغيان والفوضى . ولذلك أقبل حماة الجزيرة
 وكفاتها وبناء عهدها إلى الفتوحات في شرق الأرض ، وغربها ، وفي
 شياها ، وجنوبها . فآثر ذلك في كيان هذه البلاد ، وعادت إلى الانكماش
 وعادت إليها الفوضى ، وعمتها الخراب ، وتقلص بها العمران ؛ بعد
 أن استرجعته في عهد غير مديد .. وقد طُمِرت أسباب المدنية بها ،
 وخربت السدود المنشأة ، وتقوضت الزراعة ، وشلت الصناعة بها
 قروناً مديدة ، حتى خال العالم مرة أخرى أن هذه البلاد متقضي عليها
 بالتأخر والاضمحلال إلى الأبد ، وأن لا أسباب فيها للنهوض العمراني
 الاقتصادي الاجتماعي ، ونسي العالم ما كانت تفيض به في عهدها

١ في كتاب « رحلة في بلاد العربية اسميدة » لتزيه مؤيد المظم ، ج ٢ ، ص ٦٢ ، رسوم
 لتوغرافية لشجيرات الخمط والأثل والسدر بسد مأرب .

السحيق قبل التاريخ ، من زراعة وصناعة ومعادن وحضارة هي نواة الحضارة العالمية ، وتناسوا أيام مجدها الإسلامي ، وازدهار الحياة فيها ورخاءها وانتظامها .

واليوم ، بعد نحو ألف عام من نهوضها العمراني والاقتصادي ، يعود إليها رونقها ، بما استتب في منطقتي قلبها ورثتها : (الحجاز ونجد) من أمن وارف شامل وطمأنينة عامة على يدي بطسل الجزيرة (الملك عبد العزيز آل سعود) رحمه الله . وها هي ذي تعود إلى الابتسام لسكانها ، بعد عبوس طويل ، وها هي ذي قد بدأت تكشف لهم عن مكنوناتها الثمينة ومخبأاتها القيمة ، من معادن ومناجم ومياه ، وحضارة عريقة مطمورة . وقد جادت لنا بالذهب الأسود ، وها هي ذي تستعد للكشف عما استقر في أعماقها القريبة والبعيدة من مياه ثرة عذبة أودعت تحت تربتها الذهبية إرهاباً لجودها بالذهب الأخضر من حبوب وفاكهة وثمار ، ونحن على رجاء من الله تعالى أن يديم ظلال هذا الأمن الوارف ، لتسير قافلة الحياة لدينا في موكبها التقدمي هذا ، حتى تصل بنا إلى منزلة سامية من الحضارة الصالحة الراشدة تعج فيها المصانع بالإنتاج المدني والحربي الضخم ، وتنتشر فيها المزارع والحقول حتى تتحول بها الصحارى الواسعة إلى جنات تُخضّر متلاصقة . . . وتستخرج فيها معادنها ومناجمها الثرة الوفيرة بأحدث الوسائل وأجمع الأسباب .

تصنيف الآثار في البلاد العربية السعودية

لعل من المناسب ، أن أوميء إلى الباعث الذي دعاني لأول وهلة ،

١ يقول كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي : إنه من الممكن العثور على مياه عذبة في أرض المملكة السعودية ، وتحويل مزارعها إلى أراض خصبة . كما أن البحوث دلت على إمكان تحويل معالم الجزيرة العربية في المستقبل .

للعناية بالآثار ، بالذات ، وذلك أني كنتُ ذات أمسية حضرت إلى مجلس الأمير عبد العزيز بن إبراهيم وكيل أمير المدينة المنورة رحمه الله ، فوجدتُ لديه المسر عبد الله فيلبي (سانت جون فيلبي) وهو منهمك في الحديث اليه عن تحقيقاته الأثرية في منطقة جبل أحد بالمدينة المنورة ، فقلت لنفسي : ما ينبغي أن يأتي إلينا مثل هذا الرجل ، ويحقق آثار المدينة المنورة وغيرها ، ثم ينشر تحقيقاته باللغة الانكليزية ، ثم نحتاج إلى ترجمتها باللغة العربية .. كان هذا أول دافع لي في طريق تتبع الآثار . أو بالمعنى الأدق ، في هواية علم الآثار .

• • •

والآثار في هذه البلاد متوافرة ومتنوعة ، وكثرتها آتية « من الأمم الخوالي » التي استوطنت هذه البلاد ، منذ التاريخ السحيق ، ثم جاء الإسلام ، وكثرت آثاره .

وقد هبني لي أن أصنف آثار هذه البلاد تصنيفاً يحصرها في اطار محدود ويجعلها للباحث على طرف النمام .

وها هي ذي جمعاء بحسب «التصنيف» المشار اليه :

- ١ - الأماكن الدينية والتاريخية .
- ٢ - المقابر والهياكل والشواهد والأعلام .
- ٣ - البيوت والمنازل والقصور والآطام والحصون .
- ٤ - الزخارف .
- ٥ - الأدوات الحجرية .
- ٦ - المناجم والمعادن .
- ٧ - السدود والعيون والآبار والصحاريج والبرك .

- ٨ - المصانع والمزارع والأدوات الصناعية والزراعية .
- ٩ - أدوات المنازل والزينة .
- ١٠ - الخطوط الأثرية المسطورة والمنقورة .
- ١١ - الكتب والحجج والوثائق .
- ١٢ - الثياب والفُرُش .
- ١٣ - أدوات الحرب والألعاب .
- ١٤ - الصور المختلفة .
- ١٥ - المرافق المختلفة .

وقد دلتنا الاستبراء على أن الأماكن الدينية الماثورة وخاصة المساجد هي التي أسبغ عليها علماء الإسلام ومؤرخوه ورحالوه اهتمامهم التحليلية فوصفت وعرفت بمختلف الأقلام في مختلف العصور ، حتى إن بعض الهواة منهم قد قاموا بتصويرها ، رأيتُ صورة للمسجد الحرام قديمة ، وصورة قديمة للمسجد النبوي ، ولمسجد قُبَاء . وصور قدماء المؤلفين الحجرة النبوية الشريفة وأوضحوا مخططاتها .. ومن هؤلاء السهمودي في وفاء الوفاء الذي أخذ بعض صورها ممن تقدموه .

وآثار المقابر والهياكل والشواهد والأعلام ، موجودة بكثرة في البلاد المقدسة . وقد تُظهِرُ الأحافير المعتادة لمختلف الأغراض العمرانية بعض المظهور من هذه الأمور .. وفي الجبل المتوهج بجنوب المدينة المنورة مقابر للعائلة ممددة هياكلهم فيها لليوم ، وهذه المقابر أشبه بالآبار المنقورة المقبية ..

وفي منطقة بئر رومة شاهدتُ بعض هذه المقابر الضخمة الهياكل ، وفي منطقة تَبَاء ، والطائف ، ومدائن صالح ، ونواحي جازان ، وطريق زبيدة - كثير من هذه الآثار . وقد جُلبَ إلى دار آثار جدة

شيء يدل عليها ، وفي مكة شواهد عتيقة مكتوبة باللغة العربية ، وفي الوهط بالطائف ، شاهدت شواهد مقابر آل العاص .. ويقال إنها فقدت الآن ..

وحدّثت عن البيوت الأثرية والمنازل والقصور والأطام والحصون في البلاد المقدسة . وإني لأذكر أن حارة الأغوات بالمدينة تحوي بيوتاً من القرن السادس الهجري ، انخفض مستواها كثيراً عن الشارع العام حتى إنها ينزل إليها بسلم حجري .. وفي مكة بعض بيوت قديمة ، منها : الحعفرية ، والبياضية والقلاع التي على أعالي جبالها . وأقدم بيوت جدة يرتفع إلى القرن الثاني عشر الهجري ، وبها لا يزال برج من بقايا سورها القديم بشارع الميناء يقف اليوم وحيداً على نهد من الأرض .

وفي المدينة قصر سعيد بن العاص ، بني في القرن الهجري الأول ، وما زالت أطلاله شائخة .. وبها أطم الضحيان ، بني في أيام الجاهلية وبها حصن كعب بن الأشرف ، وقد بني كذلك في عصر الجاهلية .

وتوجد الصور المنقورة في الصخور بجبال الحجاز ومشارف طرقه وبجوانب أوديته .. وقد ألف المهندس عثمان رفقي رسماً كتبياً في هذه النقوش ترجمه إلى العربية السيد أحمد شطا ونشرته مجلة المنهل على نفقتها ووزعته على مشتركيها مجاناً^٢ .

ومن الصور التاريخية المنقورة تلك الصور لمحارب عربي دارع على صخرة بقرب السيل الكبير في طريق الطائف القديم .

وفي الصويدة (الترعة) بشرق المدينة المنورة صخور ملس حشدت

١ بعد عمارة قصر الضيافة بالمعيق أدخل قصر سعيد بن العاص في حائطه .
٢ كان ذلك سنة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م واسم الكتيب : (النقوش والآثار في صخور الحجاز)

فيها صور عربية تمثل لنا حياة العرب في أزمان الجاهلية ، والحيوانات التي كانت موجودة بمنطقة الصويرة قديماً ، ما بين إنسية ووحشية ، وبينها حيوان منقرض . وترى الهوادج وعليها النساء ، والخيل وعليها السوارس ، والأنعام وهي ترعى ، وترى حيواناً من حيوانات ما قبل التاريخ .. إلى جانب خط ثمودي منقور على تلك الصخور بمرآسة فائقة ..

وتوجد النقوش النمودية والنبطية في مختلف الأماكن في هذه البلاد ، خاصة في الشمال والشرق والجنوب . في مدائن صالح ، وتيها ، وشرق جدة .

وفي جبل سلع بالمدينة المنورة أثر خطي حقق بعض علماء الآثار أنه من خط الصحابين الحليين : أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وفي وادي رانوات صخرة ملساء ضخمة سجل عليها شاعر عربي في صدر الإسلام ، الحياة في ذلك الوادي القاحل اليوم ، ووصفها بالخصب والحال في عهده .

والأدوات الحجرية الأثرية في هذه البلاد متوافرة ، منها ما هو ديني كالخجر الأسود ، ومنها ما هو تاريخي ، ومنها ما هو عمراني سجل عليه ذلك في وجهات مدارس وأربطة وقصور .

وفي العقيق أطلال بيوت أثرية اعتقد أن في باطنها بعض أدوات منازل القوم ، في صدر الإسلام ، وبعض ما يتصل بحياتهم من مرافق مختلفة ، وبالفعل فإن الشيخ محمداً الحافظ أحد قضاة المدينة المنورة قد حفر بعض أسس بيت قديم يمتلكه بجوار بئر عروة في العقيق لتجديد بنائه أو لزرعه فوجد أدوات زراعية ، منها قنوات حجرية للماء ومنها بوتقة من الآتلك (الرصاص) وبعض أرحبة وغير ذلك . وكذلك في

المكان المعروف - (زرْب الكتمة) في عالية المدينة عثرتُ على أرحية وحجارة رخوة بيض مزخرقة وغيرها . وقد أظهر البحث العلمي المبذون أنها عريقة في القدم .

والمناجم والمعادن طافحة بها البلاد .. ومنها المنجم الذي يقع بقرب المدينة المنورة ، والذي أُرخص الذهب في العالم لما فتح في أوائل عهد الإسلام . وقد كتبت مؤلفات عن هذه المعادن ، من أهمها : كُتَيْب (بَحْث المعادن) لرشدي ملحق .

وتوجد سدود وافرة قوية خالدة في المناطق الزراعية وغيرها كمكة وكالمدينة ، والطائف ، أذكر منها سدّ الخنق ، وسد الجِمْاء ، وسد رانواناء في المدينة وسد السملقي في الطائف .

والعيون توجد كذلك في هذه البلاد ، وهي بمثابة الأنهار في غيرها ومن أهمها عينا زبيدة والزرقاء بمكة والمائية قديماً ، وعين خلبص ، والعين العزيزية النابعتان من خلبص ووادي فاطمة واللثان تسقيان حديثاً مدينة جدة ، وعيون شمال المدينة ، وعين خيبر ، وعيون وادي فاطمة وعين تبوك وعيون ينبع .

والآبار الأثرية أكثر شيء في البلاد ، فقد كان عليها المعول في الشرب بمكة والمدينة زمن الجاهلية ، وفي صدر الإسلام ، وأهمها بئر زمزم ، في مكة ، وبئرا رومة وأريس ، وغيرها في المدينة المنورة .

والصهاريج والبرك قديمة الوجود في هذه البلاد .. فالصهاريج لسقي الناس من فائض الأمطار ، والبرك لسقي الزروع والأنعام من ماء العيون وماء الأمطار .

ومن أقدم الصهاريج ، صهاريج جدة . وصنعتها مؤرخ عاش في القرن الهجري الرابع . ومن أقدم البرك ، بركة الزبير في المدينة وبركة

ماجل في مكة .

وفي البلاد مصانع قديمة مما يدل على مدى انتشار الصناعة فيها إذ ذلك .
ومن أهم هذه المصانع ، مصانع الزجاج في مكة ، ومصانع الخزف والفخار
فيها ، وفي المدينة المنورة . وقد بقيت أطلال بعضها إلى عهد قريب . وفي الحار
(البريكة) جنوب غرب بدر أطلال مصانع الزجاج والخزف كما حدثني به
مستشرق سويسرية زارت هذا الميناء أخيراً . وكذلك في الجهة الشرقية للمدينة
توجد أطلال مصانع بعض آثارها وإنتاجها باقٍ لليوم^١ .

ومن المزارع الأثرية ، مزرعة الزبير بن العوام رضي الله عنه ولا تزال
معروفة موجودة بأطلال جداولها وبركتها الكبيرة وأطلال منازلها . ومزارع
وادي فاطمة ، والطائف وينبع .

وكثيراً ما يعثر الناس في الأحافير العمرانية المعنادة على مصابيح فخار للزيت
مطمورة في أعماق الأرض ، وعلى صحون فخار وملاعق ، وسكاكين ومحاريت .
وقد شاهدنا بعض هذا في أحافير مدرسة العلوم الشرعية ، وبستان الطرناوية
بالمدينة المنورة .

والخطوط الأثرية المسطورة المنقورة ، توجد في هذه البلاد كذلك بكثرة .
ومن المنقورة ما أسلفنا بعضه ، ومن المسطورة ذخائر الكتب القديمة الموجودة
في بعض الخزائن العامة للكتب في مكة والمدينة ، وبعض المصاحف الثمينة .
وقد اطلعت لدى الشيخ صالح قزاز في مكة المكرمة على «مُدِّي» نبوي من
النحاس الأصفر عليه خطوط عتيقة للتعريف بالمد النبوي .

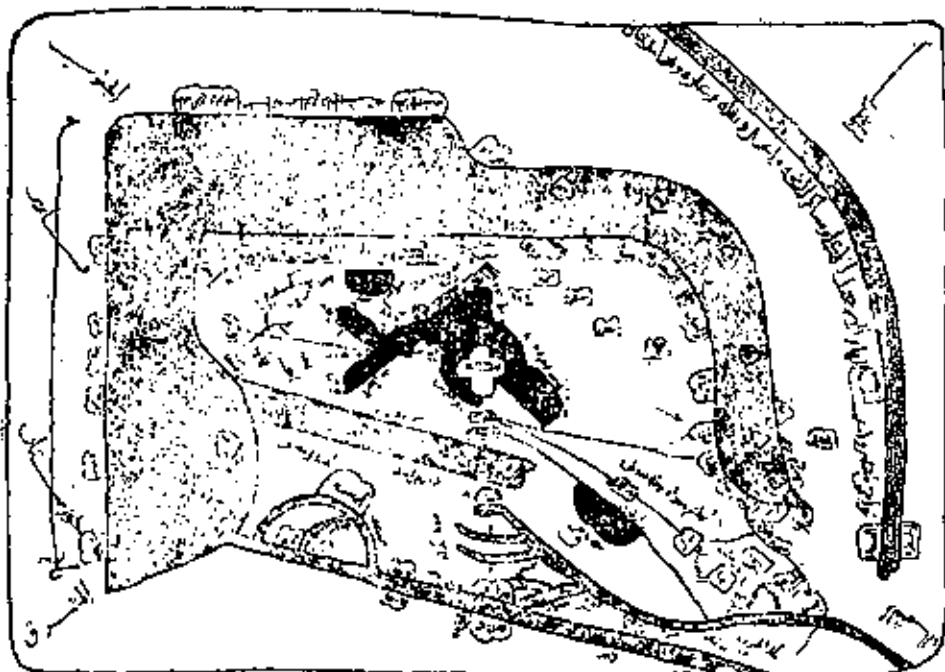
وإن ننس لا ننس تلك الحجية الشرعية المنقورة في صحرة ضخمة ملساء مخط
نسخ جميل جداً كانت في غرفة من غرف رباط سيدنا عثمان في المهجلة

١ في رحلتنا إلى الحار في ٢٠ صفر ١٣٩١ هـ الموافق ١٦ أبريل ١٩٧١ م ، وفي ١٢ ربيع الأول
١٣٩١ هـ ، الموافق ٧ مايو ١٩٧١ م وجدنا قطع زجاج وخزف إسلامي قديم متناثرة فوق
التلال والوهاد هناك ولكننا لم نر أطلال مصانع الزجاج والفخار في الجهة الشرقية للحار (البريكة)
كما تحدثت به أيتها المستشرقة السويسرية .

عكة .. وقد نقلها مشروع توسعة المسجد الحرام إلى مكان آخر وموضوعها تسجيل وقفية الرباط نفسه في القرن السابع الهجري .

وفي المدينة كانت قد أجريت أحافير في المناخة . فكتشفت عن هوة كبيرة واسعة جداً ، فإذا بها منازل لقوم بادوا ، ولا تزال ثيابهم معلقة على حبالها في بعض غرفها ، ولكن بمجرد أن لمستها الأيدي تناثرت كما يتناثر الهباء .

ولا تخلو البلاد المقدسة من أدوات الحرب القديمة .. كالسيف والخنجر والرمح وما أشبه .. وقد كان برباط سيدنا عثمان بالمدينة المنورة خزائن خشبية لعلمها من الآبنوس ، منقوش عليها أنها من خزائن بني العباس .. وكان بها الكتب الموقوفة على الرباط ، ولا أدري أين هي الآن .



خريطة ابن حوقل لبلاد العرب وبها مدينة الحار

آثار مكة المكرمة
وما حولها

آثار مكة المكرمة

ليست هذه الحولة ، بالأولى من جولات هذا القلم في ميدان « آثار مكة » فقد كنت كتبت مجلدةً لطيفة على حد تعبير الأقدمين ، وأسيتها : « التحقيق المدعم في مسجد الرابة وبئر جبير بن مطعم »^١ . وآثار مكة منتشرة وفيرة ، يكتنف أكثرها من قديم ، الغموض وعدم التحديد الفني الدقيق ، وقد عني المؤرخون والرحالون والعلماء قديماً وحديثاً بالحديث عنها ، حديثاً أكثره ديني ، وأقله أثري . وفيها المساجد ، وفيها الدور والآبار والعيون والحياض والأودية والشواهد والحجارة المنقوشة توضع على أبواب الدور والاماكن الأثرية ، وكثير من هذه الحجارة قد انطمس من السيلى ، وكثير منها أزيل عن مواضعه ، بعد أن تغيرت المعالم وجسدت العمارات .. إلى غير ذلك من ألوان الآثار .

و« آثار مكة » من هذه الناحية تشبه تماماً « آثار المدينة » .. فلها يمكن أن تقسم وأن تبوب إلى الأقسام ، وإلى الأبواب الآتية ذكرها .

١ هذه الرسالة كتبها استجابة لطلب المرحوم عبد الله السليمان حينما كان وزيراً للمالية في عهد المغفور له الملك عبد العزيز ، وقد تناولها نبي بطريق الشيخ محمد سرور الصبان بعد أن جلدتها ولم أرها بعد ذلك . واني لآسف إذ لم أرتك لها عندي مسودة يعتمد عليها .

ولكنني لاحظت أن في مكة شكلين متقاربين من الآثار ، أو شكلاً متحداً ذا لونين منها .. ويتمثل هذا النوع في هذه الحجارة التي سُجِلت عليها بعض الأحداث الخطيرة وبعض المراسيم الطامة ، وسواء أكانت هذه الحجارة أعمدة أم كانت صخوراً هائلة من طراز الصخرة التي وصفها الشاعر بقوله :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يتضرها وأوهي قرنه الوعلُ

أعمدة بالمسجد الحرام بها تسجيل بعض المراسيم

وقد علمتُ أن من أعمدة المسجد الحرام المرمرية ، ما اتخذ صحيفة لتسجيل بعض المراسيم السلطانية في القرون الحالية . وقد يبدو هذا النوع من الآثار غريباً على هذه الديار ، وهو في حد ذاته يدلّ على عناية القائم بالأمر يومئذ بإشاعة العدل بين الرعية ، وهو من الوجهة الفنية أو الأثرية - على أدق تعبير - يدل على عناية رئيس الدولة يومئذ بتخليد أوامرها المهمة على مدى الأيام ، شأن الملوك كبار المهتم العاديين . وقد نقشت هذه المراسيم التي تختص بشؤون الأمم الإسلامية القادمة إلى الحجاز من أجل أداء فريضة الحج ، في مكان مقدس يسمو عن أن تناله أيدي الأهواء ، وأن تتناوله يد السياسة القلّيب الظلوم .. ألا وهو المسجد الحرام المقدس لدى الجميع على السواء .

حجة شرعية على صخرة كبيرة

وفي مكة كذلك صخرة هائلة محفوظة طيلة ثمانية قرون لم يتطرق إليها حركٌ أو خدش أو أي تغيير أو تبديل ، وقد نُقش على سطحها الذي جعل أملس براقاً ، إثبات الوقضية لدار معروفة قديمة : هي رباط سيدنا

عثمان بمكة ، ووضع على بابها - أي الدار - حجر ميسنّ نقش عليه خط جميل ، يحوي ما نحويه زميلته الكبرى الصخرة الهائلة من وقفية للدار . وإذا نظرنا إلى هذه الفكرة من الناحية الأثرية العلمية فإنها لتدلنا على مبلغ تحوط القوم من امتداد أصابع التلاعب مدى القرون القادمة إلى هذه الوقفية بتسجيلها ، خلافاً للمألوف ، على صخرة صماء غير قابلة للتقل أو للتلاعب أو للضياع .. هي فكرة جليلة وإن كانت تبدو غريبة في بابها غرابة تستجلب دقة نظر الباحثين من علماء الآثار . وقد شاهدت متاحف الآثار في مصر فلم أجد نظيراً لصخرتنا هذه المنقطة النظر في العصور الإسلامية المختلفة .

إن تسجيل مثل هذه الأمور الفردية على الصخور دليل على الوعي العميق لأحداث الزمان ، ومفاجآته ، ودليل على العزيمة الصادقة . . . وليس رجوعاً إلى العصور الممعة في القدم ، أو تفهقراً من العالم الإسلامي في مطلع القرن السابع الذي نقرت فيه الصخرة ، إلى عصور الظلام ، فإن نقش الحوادث الخطيرة على الصخور أمر جرى به العرف في القدم وفي الحديث أيضاً ، كما هو معروف . والفائدة المتوخاة من ذلك هي التخليد بقدر الإمكان .

هذا وإن أقدم الآثار الباقية في « مكة » على عمارتها الأولى ، لا يرتقي به الزمن ، فيما أعلم ، إلى ثمانية قرون باستثناء الكعبة المشرفة ، بعكس « المدينة » ففيها من العمارات ، أو من الأطلال على التعبير الدقيق ما يسمو إلى أربعمائة عام بعد الألف . وقد أشار المستشرق بركهارد السويسري في بحثه المترجم بمجاة « المنهل »^١ عن أسباب ذلك حيث قال ما ملخصه : « إن هذا الضعف في عمارات مكة ناشئ من عدة أسباب ، منها : جهل

١ في سنة ١٣٦٦ - ١٩٤٧ م .

البنائين فيها إذ ذلك ، بأسلوب البناء القوي الذي يعمر طويلاً . ومنها أن أرض مكة رملية يسرع فيها البناء إلى التداخي ، لتطرق الخلل إلى أسسه وعدم استقرارها في الأعماق ، بسبب أن أرضها بطحاء في الغالب . ومنها كثرة السيول التي تهبط من الجبال كأفواه القرب دوماً فتترك الأبنية في ضعف عام . وقد قال مثل هذا عن عمارات المدينة ، وعزا سرعة تداخيتها إلى رطوبة أرض المدينة وملوحتها . ومع تأييدنا لنظرية رطوبة أرض المدينة وملوحتها ، وأن ذلك من أهم أسباب عدم امتداد أجل العمارات بها ، امتداداً طويلاً ، إلا أن لنا أن نناقشه بأن في المدينة مناطق غير رطبة ولا ذات ملح ، هي العقيق ، والحرار المحيطة بالمدينة . وفي العقيق والحرار توجد الآن ، قائمة ، أطلال قصر سعيد بن العاص من قبل ثلاثمائة وألف عام ، وأطلال حصن كعب بن الأشرف ، وأطمُ الضحيان من قبل أربعمئة عام بعد الألف .

آثار مضمورة

وفي مكة آثار كثيرة من دور ومساجد ورباع (محلات) عقتُ على بعضها حوادث الزمان . فكثيراً ما حدث أن غيّرَ قائم بعارة خاصة معالم دار أثرية أو غيرها ، بحكم ملكيته لها ، فيضيع الأثر مع توالي الأجيال . وأكثر الآثار المعروفة وضحاً الآن ، خلاف الآثار المتعلقة بالعبادات من الحج والعمرة ، هي ما ينصل بيني هاشم ، وبنو أمية ، وبعض الشخصيات البارزة في الجاهلية والإسلام .

سوق عكاظ

سنحاول تحديد الزمن الذي بدئت فيه سوق عكاظ ، والزمن الذي ولدت فيه . وتحديد ظرف انتهائها أيسر بكثير من تحديد وقت ابتدائها ، لأن ابتداءها كان في عصر اجاهلية العربية الأخيرة أو الثانية على تعبير أدق . وهذا العصر قلما يظفر فيه الباحث بشيء محدد التاريخ ، وأما زمن انقضاءها فقد كان في صدر الإسلام الذي كان يعنى فيه بوضع تواريخ للأحداث الكبار .

من المعروف أن مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان في عام الفيل ، وهو يوافق سنة ٥٧٠ - ٥٧١ م .

ويعتته عليه السلام كانت على رأس الأربعين من مولده ، وهي توافق سنة ٦١٠ م . وقد حدثنا المؤرخون وكتباب السيرة النبوية بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد شهد (المجتمع العربي العكاظي) وهو غلام حدث ، وراقته ، وهو في هذه السن المبكرة ، تلك الخطبة الرائعة التي كان موضوعها على خلاف سنن موضوعات خطباء عكاظ من فصحاء العرب ومفوهيهم ، إذ كانوا يخطبون في المفاخرة والمنافرة وما أشبه من شؤون الدنيا .. أما هذه الخطبة العجيبة الفذة في بابها التي ألقاها الشيخ السمع الحكيم : (قس بن ساعدة) الأيادي وهو على

جَمَلِهِ الأورق ، في حشد من عرب عكاظ ، وَبَنَاهُمْ فِيهَا إِلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنْ ضَلَالٍ عَقْدِيٍّ وَفِكْرِيٍّ وَاجْتِمَاعِيٍّ كَبِيرٍ ، فَقَدْ بَقِيَ أَثَرُهَا ذَا جَذُورٍ عَمِيقَةٍ فِي نَفُوسِ الْقَوْمِ ، وَبَقِيَتْ عَالِقَةٌ بِذَهْنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، طِيلَةُ حَيَاتِهِ . وَجَاءَتْ مَنَاسِبَةُ الإِشَادَةِ بِهَا يَوْمَ أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَفَدَّ إِيَادَ ، فِي عَامِ الْوَفُودِ ، فَسَأَلَهُمْ : مَا فَعَلَ قَسُ بْنُ سَاعِدَةَ ؟ فَقَالُوا لَهُ : مَاتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَحَدَّثَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِ لَهُ ، وَقَالَ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ بِسُوقِ عَكَاظٍ عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْرَقٌ ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ عَلَيْهِ حِلَاوَةٌ مَا أُجِدُّنِي أَحْفَظُهُ .. فَلَمَّا قَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ : إِنَّهُ يَحْفَظُهُ ، وَتَلَاهُ بِنِ يَدَيْهِ ، قَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يَرْحَمُ اللَّهُ قَسًا ، لِنَنِي لِأَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَحْدَهُ » .

كما حدثنا المؤرخون ورواة السيرة النبوية أيضاً حديثُ شهود الرسول عليه السلام لحروب الفجار التي اندلعت بين قريش وأحلافهم ، وهوازن وكان ابن أربع عشرة سنة أو خمس عشرة أو عشرين إذ ذلك .. وقد سرد لنا صاحب كتاب (أسواق العرب) هذه الروايات ، وارتأى أن التوفيق بينها ، يتم إذا قررنا أنه صلى الله عليه وسلم ، حضر أول حروب الفجار وهو ابن أربعة عشر عاماً ، وآخرها بعد ذلك وهو ابن عشرين^١ فتكون حروب الفجار وقعت قبل البعثة بخمسة وعشرين عاماً ، أي سنة (٥٨٥ م) .

ويروي لنا أبو الوليد الأزرقي في كتابه (أخبار مكة) عن جابر بن عبد الله الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لبث بمكة يتبع الحاج في منازلهم ، في الموسم ، بمجنة وعكاظ ومنازلهم بمنى ويقول : « من يؤثني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة ؟ »

١ كتاب أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، لسعيد الأفغاني ، ص ١٦٥ ، الطبعة الثانية بدمشق .

فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره ، حتى أن الرجل يرحل صاحبه من مضر أو اليمن ، فيأتيه قومه أو ذوو رحمه ، فيقولون : «احذر قبي فريش لا يفتنك ...» .. يمشي بين رجالهم (رحالهم) يدعوهم إلى الله عز وجل فيشبهون إليه بأصابعهم حتى بعثنا الله عز وجل من يرب الخ» والكلام لخابر بن عبد الله .

ويقول حديث آخر : إن الخنساء انحدرت يهودجها إلى عكاظ ، لتسجل فيها ، رسمياً ، أنها أعظم العربيات مصيبة ، بمن قُتل في إحدى المعارك القبلية ، من والدها سيد العرب : عمرو بن الشريد ، وأخوها : صخر ومعاوية ... وظلت على غشيانها لسوق عكاظ يهودجها نادبةً باكية كل عام ، حتى كان عام بدر ، فنافستها هند بنت عتبة في الإعلام في عكاظ بمصيبتها العظمى ، بمن قُتل يوم بدر من أيها وعمها وأخوها .

فإذا ضمنا هذه الأحاديث إلى بعض ، ودرسناها ، أمكننا أن نخرج منها بنتائج إيجابية ، جزئية ، وهامة ، لقضية التحقيق في ماضي سوق عكاظ في بدايتها وفي ذروة نشاطها الذي تلاه انهيارها ، وانقضاؤها . ونستطيع أن نقول ، استنتاجاً من الروايات المسرودة آنفاً ، إن سوق عكاظ كان نشاطها كبيراً ، مشهوراً ، واسمها ونفوذها مدويين في أرجاء جزيرة العرب ، وتأثيرها في عقلياتهم ومجتمعاتهم واحوالهم طيلة حياة الرسول عليه السلام كان أمراً مرموقاً وملموماً .

ذلك أن وفود العرب وفدت إلى الرسول (ص) في العام العاشر للهجرة ، ومنهم وفد إيباد من قوم قس بن ساعدة الأذنين .. ومشهد وقفة جملة الأورق بين جموع عرب عكاظ ، وخطابه البليغ ذو النكهة العبقية بينهم لم يزالا ماثلين في ذهن الرسول ، حتى بعد أربعين عاماً من حدوثها .. وقد ذكّر بها قوم قس الوافدين إليه بعد ما انتشرت أضواء الإسلام في شتى

أنحاء الجزيرة .. وكان بعضهم يحفظ الخطاب ، مما يدل على عمق أثره في نفوس القوم ، على بعد وأقبحهم من أهدافه إذ ذلك .

وإذا فرضنا أن الرسول شهد قساً وعمره فوق العاشرة مثلاً ، فيكون عام الوفود بعد نحو خمسين عاماً من حدثاته المبكرة ، لأنه كان في سنة ١٠ هـ .

كما أن تقديمه النبيل في حروب الفجار لقريش ، وهو ابن أربعة



نقش أثري عثرت عليه بعثة صحفية سعودية بمنطقة عكاظ

عشر عاماً إلى عشرين ، يدل على ازدهار عكاظ في تلك الحقبة من الدهر .

ووفود هند بنت عتبة على عكاظ عقب معركة بدر منافسة للخنساء في (الإعلام) والتعريف بعظم مصيبتها ، هو الآخر يدل على أن عكاظ كانت حتى ذلك الوقت وهو من بعد الهجرة النبوية - مرجع قضايا العرب الكبرى ومناط آمالمهم وآلامهم ، ومعرضهم الكبير لإذاعة آمالمهم وآلامهم في الحياة .

هذا وكل ما أوردناه فيما سبق ، هو طرف من البحث ، أردنا من ورائه تحديد بعض نقط ازدهار سوق عكاظ ، بما له مساس وصلته بعهد الإسلام الأول . ونضيف إلى ذلك ما رواه المؤرخون من أن مبدأ إسلام الأنصار لم ينشأ من منى بموسم الحج ، وإنما نشأ من سوق عكاظ نفسها ، حيث ظل النبي عليه السلام يعرض الإسلام كل عام على كل الوافدين إلى عكاظ من قبائل العرب ، قبيلة قبيلة ، حتى هدى الله به بعض بني قبيلة هؤلاء ، وهم وافدون إلى عكاظ ، فآمنوا به ورجعوا إلى بلدتهم (يثرب) وأعلنوا الإسلام به ونشروه فيه ، ثم كانت بيعة العقبة .

وبعد المقدمات السالفة ندخل في صلب الموضوع .. وهو تحديد افتتاح سوق عكاظ ، واختتامها .. ومن أهم من تعرضوا لهذه المسألة سعيد الأفغاني في كتابه (أسواق العرب) . يقول : « لسنا نعلم لهذه السوق بداية محدودة ، إلا أننا نرجح وجودها قبل القرن السادس الميلادي » .

وعلى هامش هذا الرأي نسجل تحيط المراجع القديمة والحديثة في هذا الشأن .. فالألوسي ، وفريد وجدي ، والاسكندري ، والعناني ، والدكتور محمد حسين هيكل ، اتفقوا على أن عكاظ افتتحت بعد عام الفيل بخمس

عشرة سنة .. ويتقضى هذا الرأي ما روي من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان ينبل على أعمامه في حروب الفجار ، وعمره أربع عشرة سنة ، أي بعد عام الفيل بأربع عشرة سنة .. إذ معنى هنا ، أن حروب الفجار وتقدم الرسول لقومه النبل فيها ، كانا قبل وجود عكاظ بستة مع ان حروب الفجار كان منشؤها من عكاظ نفسها كما هو معلوم . هذا تناقض واضح .. وجاء سعيد الأفغاني لنا بدلائله التي تقرر ان افتتاح سوق عكاظ كان قبل حروب الفجار بأمد مديد مثل المرأة التي باعت السمن بعكاظ وتزوجت بعبد شمس بعد ذلك . ومثل عمرو بن كلثوم الذي انشد قصيدته بعكاظ وكان عاشاً حول سنة (٥١٠م) . كما ان ولاية عشرة قضاة متتابعين للقضاء في عكاظ قبل الإسلام يدل على سبق زمنها بالنسبة للإسلام .. وبالنسبة لحروب الفجار التي حدثت قبل البعثة بربع قرن من الزمان .

هذا كل ما توصل اليه صاحب (أسواق العرب) من النتائج حول تحقيق زمن ابتداء سوق عكاظ .. وهي نتائج طيبة .. ونضيف إليها ما هو أكثر تحديداً وانطباقاً وتعريفاً بمبدأ نشأة هذه السوق التي أحدثت دويماً كبيراً في جزيرة العرب ، وحاولت - أديباً راقصاً - جمع متفرقهم ، ونجحت في كثير من توحيد أوضاعهم الاجتماعية والبيانية والسياسية .. قبل الإسلام .

وهذا الذي نضيفه هو نتيجة دراسة فاحصة لحياة النابتة الجعدي ولبعض شعره ذي العلاقة الوطيدة بحياته المديدة وبسوق عكاظ ، معاً . ففي ديوانه^١ وردت خمسة أبيات هي :

قالت أمامة^٢ كم عمرت زمانة وذبحت من عنر على الأوثان

١ ديوانه المطبوع حديثاً على نفقة علي آل ثاني .

ولقد شهدتُ عكاظَ قبلَ عَمَلِهَا
والمُنذرَ بنَ مَحْرَقٍ في مَلِكِهِ
وعمرتُ حَتَّى جَاءَ أَحْمَدُ بِالْهَدْيِ
وَلَيْسَتْ مِنَ الْإِسْلَامِ ثَوْبًا وَاسِعًا
فِيهَا وَكُنْتُ أُعَدِّمُ الْفَتِيانَ
وشهدتُ يَوْمَ هِجَاثِنِ النِّعَانِ
وقوارِعِ تُتَلَّى مِنَ الْفُرْقَانِ
من سَبَبِ لَا حَرَمٍ وَلَا مَنَانِ

وقد شرح ناشر الديوان (محمد زهير الشاويش) هذه الأبيات شرحاً مفيداً مستطاباً دقيقاً ، إذ يقول : « إن حكم النعمان كان في القرن السادس للميلاد ، فيغلب على الظن أن النابتة أدرك أواخر القرن الخامس للميلاد . ثم قال : إن النعمان بن المنذر ولي قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بأربعة وعشرين عاماً (٥٨٦ م) وتوفي قبل مبعثه بستين . وإذا نظرنا إلى أن النابتة الجمعدية قد عاش نحو مائة وخمسين عاماً ،



طلل قديم عثرت عليه البعثة الصحفية بمنطقة عكاظ
ويلاحظ أن فيه ملامح من أطلال قصر سعيد بن العاص بعقيق المدينة المنورة

على أرجح الأقوال لدينا ، كان أكثر من نصفها في الخاهلية ، وأقلها في الإسلام (ودليلنا على ذلك من شعره أنه عاصر ثلاثة أجيال وأنه توفي في أواسط المائة الأولى للهجرة) .

وإذا أضفنا إلى ذلك قوله : إنه شهد عكاظ قبل افتتاحها في محلها الأخير ، وهو قتي .. أي إنه كان حدثاً في نحو عشر سنين .. أمكننا عندها أن نقول من باب التقريب : إن سوق عكاظ بدئ افتتاحها بمحلها في نحو سنة ٦٠ قبل مولده صلى الله عليه وسلم وهو يوافق سنة (٥١١) ، وهذا التاريخ لا يفترق عن التاريخ الذي حدده سعيد الأفغاني بكثير .

أما تاريخ انتهاء سوق عكاظ .. فيحدثنا التاريخ بأنه كان سنة ١٢٩ هـ حيث خرجت الخوارج الحرورية مع المختار بن عوف في مكة في تلك السنة ، فنهبوا سوق عكاظ فهجرت إلى الآن .

١ أسواق العرب ، ص ٣٤٣ ، الطبعة الثانية .

قبيلة بني سليم في التاريخ أخبارها وآثارها

أولاً - المنازل والحبال والمعادن :

تقع منازل قبيلة بني سليم ، في عهدها القديم والحديث ، بشالي مكة
بجنوبي المدينة بالناحية الشرقية من المدينة .

وتسمى منازل بني سليم أو منطقة بني سليم في المملكة العربية السعودية
«منطقة الكامل» ، تسمية لها بأكبر قرية في وادي ساية التي جعلت أخيراً
مقر إمارة المنطقة بجمعا .

- وتبعد منازل بني سليم عن مكة بنحو ١٤٠ كيلومتر .
- وكانت منطقة بني سليم من أعمال المدينة على طريق نجد .
- ثم صارت فيما بعد ، تابعة لإمارة مكة .. وإلى اليوم .
- ويحدها شرقاً : وسط الحرة الحاجز بين قبائل سليم وقبائل مطير .
- ويحدها غرباً : حجر ومغينية ، من قرى حرب .
- ويحدها جنوباً : ضواحي غراب والبرزة .
- وتقدر مساحتها تقديراً مبدئياً بنحو ستين ألف كيلومتر مربعاً .
- ويشغل معظم مساحتها الأودية الكبيرة والحبال الشاخنة ..

وأوديتها الرئيسية اثنان : وادي ساية ، على وزن (غنية) ووادي ستارة .. وأولها أهم من ثانيها بالنسبة للسكان والقرى والمياه . ويشرب أهل الواديين إما من العيون أو من الآبار . وعلى بعض آبارها مضخات حديثة .. ووادي ساية هو (وادي أمج) المعروف في الأدب .

ومن جبال منطقة بني سليم جبال : شَرَوْرَى وشِعْرَى (بكسر الشين وسكون العين المهملة بعدها راء مفتوحة فألف مقصورة) على ما ورد في معجم البلدان ، وينطقه السُّلَمِيُّونَ اليوم : (شَعْر) (بفتح الشين والعين) ، والبُرَيْرَاء (بضم الباء الموحدة بعدها راء مهملة مفتوحة فياء تحتية فراء فألف فهزمة) . وأهم جبال المنطقة جبل شمنصير الشامخ الثري بالمزارع والمياه .. وقد بقي اسمه العربي الأصيل على صحة الطوق به حتى يومنا هذا .

ومعدن « قَرَآن » (بفتح أوله وتخفيف ثانيه ، وآخره نون) هو منسوب إلى قران بن علي بن عمر بن الحاف بن قضاة الذين نزلوا على بني سليم ، فدخلوا فيهم وصاروا منهم . وهو معدن بني سليم . وبجوار المعدن كانت قرية كبيرة بطريق نجد فيها آبار وبرك ، وتقع على مائة ميل من المدينة ، وهي أيضاً لبني سليم .. وتستمد مزارع « خَلَيْص » مياهها الثرة التي يراد لها أن تصل إلى مدينة « جدة » أخيراً ، من ديار بني سليم^١ .

ومن معادن سليم : معدن الدهنج ، وهو حجر أخضر يُحْفَرُ عنه كسائر المعادن .

١ وصلت بالفضل مياه غلبيس في أنابيب إلى مدينة جدة في عام ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م فصاعتت من كمية المياه بها حتى تفجرت بعض الأنابيب من شدة ضغط المياه الوافدة عليها، فسال الماء بالشوارع ثم أصلحت وجرى الماء فيها تيراً صافياً .

ويدلنا تحديد « صفة جزيرة العرب » للهمداني ، لديار بني سليم ، على اتساع منطقة بني سليم وتعدد منازلهم شمالي المدينة وشرقيها .. فقد كانت من وادي القرى ، شمال المدينة ، إلى حد الحبلين ، إلى ما ينتهي إلى الحرة .. أي حرة بني سليم المعروفة منذ عصر الجاهلية بالنسبة اليهم تغليبا ، وباسم « أم صَبَّار » ترميياً ، وباسم حرة النار إرعاباً وتمثيلاً .

ثانياً - التاريخ :

قبيلة بني سُلَيْمٍ (بضم السين المهملة) قبيلة عدنانية على القول الراجح المأخوذ به علمياً : فجدها هو سُلَيْم بن منصور الذي ينتهي نسبه إلى مضر بن نزار جد النبي عليه الصلاة والسلام . ولا يمنع انتساب سليم إلى هذا الحد أن يدخل معها أقوام من العرب في منطقتها ويندجوا فيها ، كما حدث فعلاً مع غيرهم من العرب مما رواه لنا التاريخ . وقد يكون ذلك حدث فيها لأول مرة في الجاهلية ثم استمر فيما بعد ، على عادة قبائل العرب من التداخل وقبول نزول غيرهم عليهم ثم اندماجهم فيهم ، واعتبارهم من القبيلة ذاتها .. كما كان لبني سليم جيران أدنون ، من غطفان : قد يكون بعضهم دخل في بني سليم .

ولبني سليم في الجاهلية مكانة مرموقة وقد وهبها المنعة والقوة أمران : كثرة عددها وحصانة مواقعها الطبيعية . فهم على حرة ، وفي قلب جبال مشمخرة ، يصعب على الغزاة اقتحامها .. وقد حدثنا أحد قطنان هذه الحرة : حرة النار ، وهو نابغة بني ذبيان عن مدى اعتزازه بموطنه المنيع حينما قال عن نفسه من قصيدة :

أَوْ أَضْعُ البَيْتِ فِي سَوْدَاءِ مُظْلِمَةٍ
تَقِيدُ العَيْرَ لَا يَسْرِي بِهَا السَّارِي

تُدافعُ الناسَ عَنَّا حينَ تتركبُها
مِنَ المَظالمِ تُدعى « أم صَبَّارِ » !

ويعني بقوله : « سوداء مظلمة » ، حرة بني سليم التي سماها باسمها الآخر : « أم صبار » كما سماها في القصيدة نفسها باسم « حرة النار » وقد طابق الوصف الموصوف ، فالحرة حجارة سودٌ محترقة ، مسنونة كأنياب أغوال .. لا تدع للخيل أو للإبل مجالاً إلى اقتحامها .. وكذلك لا يستطيع مشاة المقاتلين ولوجها ، فهي سور طبيعياً حصين لمن تحصن بها . ويذكر لنا كتاب السيرة النبوية كيف تحصنت المدينة المنورة بحرارها الشرقية ، والجنوبية ، والغربية ، في غزوة الخندق .. فلم تبق ثغرة يُخشى أن يقتحم منها العدو المهاجم المدينة سوى الناحية الشمالية ، فحصنها النبي صلى الله عليه وسلم بالخندق ، أخذاً برأي سلمان الفارسي رضي الله عنه .

ويروي لنا التاريخ ، تقريراً لمكانة بني سليم ، بين قبائل العرب : أنهم تعرضوا لغضب النعمان بن المنذر ذات مرة ، فهاجمهم في عقر دارهم ، بجيش عرمرم ، ساندته جيران بني سليم من غطفان ، ولكن الجيش النعماني والستند الغطفاني كلاهما منيا بهزيمة منكرة سجلها عليهم تاريخ العرب في جاهليتهم .

وقد غزا الرسول عليه السلام ، بني سليم .. وأرسل إليهم بعض سرايا . وفي غزوته لهم لم يجد أحداً منهم ، ولم يقابله أحد .. كأنما أعدهم الله متكاملين للدخول في الدين الحنيف طواعية بدون أن يخسروا مقاتليهم .. ولما دخلوا في الإسلام كانوا من أخلص معتنقيه ، ومن ذوي النصيب الوفي في نصرته ، والقيام بدعوته .. ولا غرو ففسد كانت شوكتهم قوية وسليمة .. وقد كانوا في الجاهلية حلفاء لبني هاشم ، ولعل في هذا شيئاً مما حال بينهم وبين الاندفاع فيما اندفعت فيه قريش وأحلافهم

من عداوة النبيّ على طول الخط ، لأنهم كانوا في الجاهلية حلفاء بني هاشم
معشره الأديين . وكذلك كانت خزاعة الذين قال شاعرهم :

لا هممُ إنني ناشيدٌ مُحمّداً حِلْفَ آبينا وأبيه الأتلتدا

وقد أسهمت سليم في الفتك بقبيلة بني عامر في سرية خالد بن الوليد .
وتفارض شعراؤهم الشعر مع شعراء هذه القبيلة ، وكانت سرية خالد
هذه في عام الفتح .

ومما تفخر به بنو سليم أنّ النبيّ قدّمَ رايثهم على رايث غيرهم في
استعراضه العظيم للجيش الإسلامي القويّ ، أمام أبي سفيان ، عام فتح مكة .
وقد بلغت مقاتلتهم ، ألقاً في بعض الروايات التي نذكر لنا أنّ رايثهم
كانت حمراء . والاحمرار في الرايات علامة على الصلابة والصلابة والصلابة
وسهولة سفك دم الأعداء .

وكان في بني سليم أبطالٌ معلّمون ، وشعراءٌ مجيدون .. ومن
هؤلاء رئيس القبيلة ، المسلم : العباس بن مرداس .. فهو بطل معلم
وشاعر فحل .

ومنهم الجحاش ، والخنساء : تماضر الشاعرة الذائعة الصيت .
وتفخر بنو سليم بأشياء منها : أنهم كانوا مع الرسول يوم فتح مكة
وقدّم لواءهم على الألوية . ومنها أن عمر كتب إلى الكوفة والبصرة
والشام ومصر : أن ابعثوا ، إليّ ، من كل بلد أفضله رجلاً .. فبعث
أهل البصرة مجاشع بن مسعود السلمي ، وأهل الكوفة عتبة بن فرقد
السلمي ، وأهل الشام أبا الأعور السلمي ، وأهل مصر ، معن بن يزيد
السلمي .

وشاركت بنو سليم في حروب آل ائزير وآل مروان ، وقتل منهم
خلقٌ كثير .

وحينما استأثر الأعاجم بالدولة في عهد بني العباس انزل بنو سليم^١ بالقرن الذي هم فيه الآن بين نجد والحجاز وأجلبوا على الحاج بالحرمين وتناولوا على الناس بالشر من حول المدينة .. فعاثوا في أسواق الحجاز وأوقعوا بسكان الحار ميناء المدينة المندثر بقرب بَدْرٍ ، من بني باهلة وكثافة في جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ هـ ، فوجّه الخليفة الواثق اليهم « بَغَاةَ الكَبِيرِ .. على رأس جيش كبير ، لتأديبهم ، فَتَقَتَلَ خَلْقًا منهم وأسر .

ويخطئ ابن خلدون حين يقول : إنه لم يبق بأرض بني سليم باقية بعد نزوحهم إلى المغرب .

وحالف السلميون أبا الطاهر في فتنه القرامطة . كما حالفوا بنيه أمراء البحرين القرامطة . وتغلب جمهور من بني سليم على البحرين بدعوة الشيعة ، ثم طردهم بنو الأصغر الستينيون من البحرين ، فلحقوا بصعيد مصر ، ومنها ساروا إلى إفريقية ، وهناك تصاهروا مع القبائل البربرية وامتزجوا بها .

وقد يكون المعتصمون من قبيلة بني سليم بديارهم الأصلية في حرة النار ، قد تأثروا بأحوال الاضطراب السائدة إذ ذاك في ديار العسلم الإسلامي ، فحاولوا أن يعرفوا مسيرات الخجاج إلى بيت الله الحرام ، لأن طريق الحج كانت تمر بهم من العراق ونجد وما وراء العراق ، من المسلمين .. فقام بنو العباس بحملات تأديب وإصلاح ، فهم .. ويتمثل الإصلاح في دعم الأمن بديارهم بالنسبة للحجاج فقط ، وتركهم هم على حالهم الأعرابية من الفوضى والاضطراب العلمي ، والجهل الديني ، والبحري وراء العادات القبلية التي أشدها ضراوة ، الأخذ بالتأثر ، وممارسة

١ في كتاب الفهرست لابن النديم وغيره من المراجع علماء وأدياء من قبيلة بني سليم . ومن العلماء هيثم بن بشر السلمي ، مات ببغداد سنة ١٨٣ هـ وهو مول لهم ، وله مؤلفات في الفقه والتفسير والقراءات . وبنوهم يزيد بن هارون المتوفى بواسط سنة ٢٠٦ هـ ، وله كتاب الفرائض ، ص ٣٣٢ و ٣٣٣ ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة .



هذا أمر من الخليفة العباسي المقتدر إلى وزيره علي بن عيسى بن داود منقوش على قطعة حجر من الجرانيت . ويقضي الأمر المنقوش على هذا الحجر ، بمارة طريق الحداة لحجاج بيت الله الحرام ، ويرجع تاريخه إلى سنة ٣٠٤ هـ . ويتطابق ما نقش فيه ما ورد في الساربخ . وقد ورد في كتاب « المملكة العربية السعودية » لتوثقتل ترجمة الأستاذ شكيب الأموي ، صورة لهذا النوح الحجري ، وعلق عليها المؤلف بقوله : « وجدت هذه اللوحة الحجرية بما عليها من نقوش كوفية في نفايات منجم (مهد الذهب) القديم . وكانت عبارة عن أمر تنفيذي لبناء طريق رئيسي للحجاج تنتقل بين بغداد ومكة » . ففتر الصفحة التي قبل ص ٩٧ ، طبع مصر ، ١٩٥٥ م .

سلب أموال الغير بالقوة والعنف ، ثم تطور ذلك إلى مبادئ إصلاح عملية اقتضتها ظروف الأمن والدولة والبلاد .

وفي ظلّال هذا الأمن المحدود الذي ندعمه ولاية بني العباس على طريق مكة خلال منطقة بني سليم حصل ازدهار لا بأس به في حياتهم العلمية والعمرائية والثقافية والاقتصادية ، ولا نعلم شيئاً عن الحالة الأدبية فبنيت قرى كبيرة لديهم أشبه بالمدن ، وربما كانت مدناً ، ووجدت فيها علماء ومعلمون وصنّاع وفنّيون .. وتجار كبار .. ودور زاهية.. وأسواق عامرة .. ردهجاً من الزمن .. إلى أن زال نجم الدولة العباسية ، فاضمحلت تلك القرى والمدن وزالت معالمها ، وزال أثر العلم والثقافة لديهم كلياً . وغرقوا في جهالة مطبقة ، أثناء دول الطوائف التي صارت لها ظلّال حكم باهتة في جزيرة العرب عامة والحجاز خاصة وزاد الظن بلة على بني سليم إهمال حكومات الأشراف في مكة والمدينة لشأنهم ، دفعة واحدة .. فعادوا إلى شبه جاهلية جهلاء قائمة الأعماق .

وقد أخذنا نظرية ازدهار منطقة بني سليم أو بعض منطقة بني سليم في أوائل عهد بني العباس وأواسطه ، من حجرتين أثريتين ، عثر عليهما في ديار بني سليم نفسها .. وأول الحجرتين شاهد قبر ، وجد بمقبرة كبيرة في بلادهم ، وجاء به أحدهم إلى جدة وهو الرجل المعاصر التاجر بجدة (مبارك عبد التواب السلمي) .. وشاهدتُ هذا الحجر الأثري لدى صالح شبكشي بجدة وقرأته وفحصت ما فيه من نقش بارز هام وأثبت نتائج دراسي وقرأتي له ، المباشرة وغير المباشرة في هذا البحث . كما نشرت صورته فيه أيضاً ، وتحدّثت عنه فيه ، كما نشرت صورة زميله : الحجر الآخر الذي أثبت هنا أيضاً نتائج دراسي وقرأتي له .

وحجر الشاهد منقوش بالكتابة الكوفية المشجّرة ، الحالية من النقط

والشكل ، والمفعمة بالزوايا والأغصان ، وهو إلى ذلك بسيط في نقشه ولكن نقشه عميق ، وحجره جرانيتي شديد ، ولم تطمس حروفه ، ولم تؤثر عليه عوامل الزمن والطبيعة القاسية منذ ألف عام وأكثر ، فإني أعتقد أنه نقش في نحو أواخر القرن الهجري الثالث .

وثاني الحجرين الأثرين حجر جرانيتي أيضاً ، نُقِشَ عليه « أمر من الخليفة » لوزيره أبي الحسن علي بن عيسى .. بعبارة طريق الجادة لحجاج بيت الله الحرام . والجادة المقصودة هي التي تحترق أراضي بني سليم .. كما أشرنا إليه آنفاً . وكان تاريخ النقش سنة ٣١٤ هـ .. الموافق لسنة ٩١٦ م .

وكلا الحجرين « وجد » بمنطقة بني سليم .. الأول : في مقبرة كبيرة مندثرة الأسوار عليها مئات من الشواهد المماثلة . والمقبرة التي هي هكذا تلك طبعياً على أنها كانت لمدينة زاخرة بالعمران والصناعة والعلم والفنون .

والحجر الثاني ، وجد في مكان من المنطقة ذاتها . وهو ، بلا ريب ، قد نُصِبَ في ذلك المكان كدليل تاريخي للأجيال القادمة ، بالنسبة لزمان رَقْمِهِ وَنَصْبِهِ ، على مدى عناية بني العباس بهذا الجزء الذي رُضِعَ فيه هذا النصب التذكري من امبراطوريتهم المترامية الأطراف .

وقد تمكنت بعد لأي من قراءة نصوص الحجرين ، برغم تعقيد خطيهما وتشابكهما ، واستطعتُ استخراج الحقائق التاريخية المثبتة هنا من ثنايا النقشين .. والآثار أوثق دلالة على الحقائق غالباً من الأخبار .

وقد دلتني على صحة ما ذهبتُ إليه ، أن أبا الحسن علي بن عيسى ، المُنصَّبَ على هذا الجانب الهام من جوانب الامبراطورية العباسية الكبرى - كما ينص عليه الحجر الأثري - هو : « علي بن عيسى بن داود

ابن الجراح البغدادي الحسيني « وزير المقتدر العباسي والقاهر ، وأحد العلماء والرؤساء من أهل بغداد ، وهو فارسي الأصل . نشأ كاتباً كأيّيه . ووُلّي مكة ، واستقدمه المقتدر إلى بغداد سنة ٣٠٤ هـ ، وحبسه ونفاه إلى مكة سنة ٣١١ هـ ومنها إلى صنعاء . وأذن له بالعودة إلى مكة سنة ٣١٢ هـ ، فعاد إليها ووُلّي فيها الإشراف على أعمال مصر والشام . فكان يتردد اليهما ، وأعادته المقتدر إلى الوزارة ، فرجع إلى بغداد سنة ٣١٤ هـ ، ثم تقم عليه سنة ٣١٦ هـ فعزله وقبض عليه ، ثم جعل له النظر في الدواوين سنة ٣١٨ هـ . وله كُتُبٌ ، منها : « كتاب الكُتّاب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء » .

وقد كتب هارولد بوبن الانكليزي كتاباً عن « حياة علي بن عيسى وعصره » بالإنكليزية وسماه :

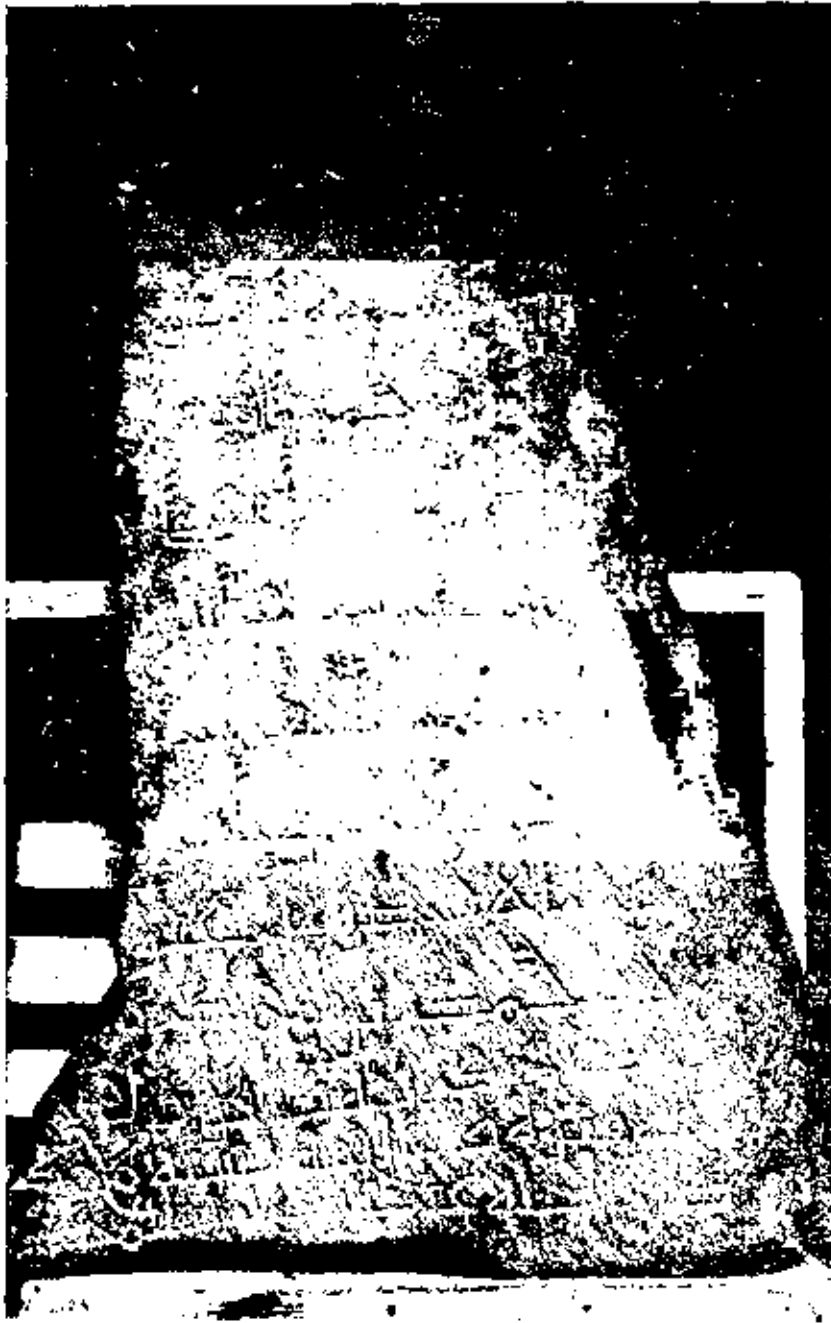
The life and Times of Ali Ibn Isa , the good Vizier .

وقد طبع في كمبردج سنة ١٩٢٨ م ، في ٤٥٠ صفحة .

ويقول الصولي ، عن أبي الحسن علي بن عيسى هذا : « لا أعلم أنه وزر لبني العباس مثله في عفته وزهده وعلمه » .. وقد توفي سنة ٣٣٥ هـ .

والسنة التي رقم فيها النقش الحجري المشار اليه كانت سنة ٣٠٤ هـ وهي تصادف السنة التي استدعاه المقتدر فيها من مكة إلى بغداد ونكبه فيها ولا بد أن الحجر نُقشَ قبل النكبة وفي أيام الرضا عنه كانت ولايته لمكة .. وكانت النكبة في آخرها أو وسطها ، وقد نُفي إلى مكة حيث كان والياً ، زيادة في إذلاله وألمه ومهاتته .

ونفهم من الدراسة أن هذا الحجر نقش في زمن ولاية علي بن عيسى لمكة .. وتنسحب هذه الولاية على ديار بني سُلَيْمٍ طبعاً .. مما يدلنا على أنها كانت حينئذٍ تابعة لإمارة مكة بعد أن سَحَّيَّتْ من تبعية إمارة



شاهد قبر من حجر الجرانيت وجد في مقبرة كبيرة في بلاد « بني سليم »
وهو مكتوب بالخط الكوفي المشجر الخالي من النقطة والشكل . وقد حله
وقرأه كاتب هذه السطور ، كما سيأتي في هذا البحث .

المدينة .. وبالنظر لوقوعها في طريق الحاج إلى مكة ، وربما لأن يد أمير مكة أطول من يد أمير المدينة على ديار سليم هذه .

وولاية علي بن عيسى لمكة كانت قبل سنة ٣٠٤ هـ .. وربما كانت في أواخر القرن الهجري الثالث ، فإن المقتدر تولى الخلافة من سنة ٢٩٥ إلى سنة ٣٢٠ هـ وكان غير كبير السن ، حيث إن ولادته كانت سنة ٢٨٢ هـ : وقد روي أنه كان ضعيفاً مُبَدَّرًا .. استولى على الملك في عهده ، خدمه وخصته ونساؤه ، ولعله في هذا يكمن سر نكبات الوزير أبي الحسن علي بن عيسى المتعددة بأوامر المقتدر ، أو بأوامر خدمه وخصته ونسائه التي تفقد باسمه ...

وقد نُقِشَ الحجر الأثري بعد فتك الواثق ببني سليم ، حَوْلَ « الجار » بأربع وسبعين سنة .. ونرى أنه في هذا الظرف أو قُبَيْلَهُ بدأ ازدهار منطقة بني سليم ، فقد اتجهت إليها أنظار بني العباس ، وحشوا ولائهم في مكة ، على العناية بأمرها وأمنها .. وكان نقش حجر الشاهد خلال هذه المدة ، وقبل نقش الحجر العمراني الآخر ، عمدة قد لا تزيد عن نصف قرن من الزمان .. وقلنا هذا نظراً للفرق الواضح بين نحْصِي الحجرين ، فذلك بسيط ، جداً . وهذا فيه تعقيد الفن الحضاري المزدهر .

ومما يدل على شدة اهتمام بني العباس ، بأمر ديار بني سليم ، ما أورده محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي المتوفى سنة ٤٢٦ هـ ، من أن محمد بن موسى بن يعقوب بن المأمون بن هارون الوشيد ، قد وُلِّيَ اليمامة ، والبحرين ، وطريق مكة .

ومحمد بن موسى هذا هو حفيد الخليفة المأمون العباسي ، ولد بمكة سنة ٢٦٨ هـ وانتقل إلى مصر فحدث بها وتوفي فيها ، وكانت كنيته أبا بكر . ويذكر غير المدين الزركلي صاحب « الأعلام » في ترجمته له

أنه كان أميراً من علماء بني العباس بالحدِيث ، وكان ثقة مأموناً .. ولم
يشر صاحب الأعلام إلى نوع إمارته . وقد حددها الإسكافي لنا ..
واستنبطنا منها انه كان رجلاً ذا مكانة لدى خلفاء بني العباس ، ولذلك
وآتوه طريق مكة ، الذي كان من أهم نقطه المحتاجة لإحاطتها دوماً
بسياج الأمن والاستقرار ، ديار بني سليم .

وكما ذكرنا سابقاً فإنه بعد تقلص الدولة العباسية ، عادت
الفوضى إلى ديار بني سليم ، ولم يستطع ملوك الطوائف المتعاقبون على
حكم شبه الجزيرة العربية أن يحدوا من غلواء نزوات بني سليم ، كما
فعل بنو العباس قبلهم ، ولم يستطع ذلك أيضاً أمراء مكة الذين استقلوا
هذه الديار بيتاً بعد بيت .

وفي عهد السلاطين بمصر يحدثنا صاحب « صبح الأعشى » بقوله :
« وادي كَلْبِيَّةَ (بضم الكاف وفتح اللام وتشديد الياء المثناة تحت ،
المفتوحة ، وهاء تأنيث في الآخر) وهو واد بالقرب من خَلْبِصِصِ .
به نحو سبعة أنهر ، على كل نهر قرية . وكان بيد سليم ، وقد خرب
من مدة قريبة بعد الثمانين والسبعائة » ..

وفي عهد بني عثمان المديد لم تنفد ديار بني سليم من هوة الفوضى
بل أعمت فيها وفي العزلة حتى أصبحت نسياً منسياً . ولا ندرى ما إذا
كانت الدولة العثمانية تستوفي منهم رسوماً أو جباية أو زكاة أو أهملتهم
حتى من هذه الأمور ، بالنظر لحالتهم الاقتصادية المتدهورة فلم نجد في
« الساننامه » التي بين أيدينا حديثاً عن ديارهم القريبة من جُندة ، ولا ذكراً
لهم في أي شأن من شؤون البلاد .

وبجاء عهد حكومة الملك حسين بن علي فبقيت ديار بني سليم على حالتها
ثم دخل الحكم السعودي البلاد ..

وفي سنة ١٣٧٥ هـ افتتحت هذه الدولة مدرستين ابتدائيتين تتبعان

وزارة المعارف ببلاد بني سليم .

وفي سنة ١٣٧٦ أسس فيها مركز لحيثة الأمر بالمعروف .

وفي سنة ١٣٨٢ أنشئت بديارهم محكمة شرعية تقضي في خصوماتهم الحرفية وخلافاتهم الكثيرة المتشعبة وشؤونهم التجارية والزراعية والمالية التي كثيراً ما تنشأ عنها الخصومات .

ثم انشئت عدة مساجد ودور حكومية ، في طليعتها القصر المجمع في قرية الكامل : أم قمرى المنطقه . وقد حلت به الإمارة والشرطة ، ومن ثم عاد ظل الأمن على هذه الديار المضطربة ، وعاد اليها الاستقرار بعد هجران طويل استمر قرابة ثمانمئة عام أو أكثر . كما انشئ لديهم - على ما عرفت مؤخرأ - مستوصف لمعالجة أمراضهم التي أشدها فتكاً البرداء (الملاريا) بسبب تراكم المستنقعات التي تخلفها الأمطار والسيول في السفوح والأودية .

وهكذا بدأ خروج ، بني سليم ، بعد إرمان من فوطة العزلة التي أحاطت بهم قروناً ، لإحاطة السوار بالمعصم ، وهكذا بدأوا يدخلون في حياة أمثل وأحفل ، وقد يعيد لهم التاريخ مجدهم التليد ، فيتصل حاضراً بماضٍ بعد طول انقطاع .. والتاريخ يعيد نفسه في أشكال وألوان^١ .

« دراسة للحجرين الأثرين »

أولاً - الحجر العمراني المنشورة صورته في هذا البحث ، والذي نُصِبَ في ديار بني سليم ، وجلبَ منها مؤخرأ ، تمكنتُ من قراءة

١ هذه اللامة وجيزة عن بني سليم بن منصور ، وقد وفقني الله تعالى فألفت تاريخاً مستقلاً عن تاريخ بني سليم قديماً وحديثاً .. واسمه (بنو سليم) ، وقد طبع في هذا العام ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م .

نصه ، وذلك بعد مدة استغرقت عاماً ، من عام ١٣٨٤ هـ إلى عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٤-١٩٦٥ م . وقد أعانني على قراءته أخيراً ذلك النقش الذي رقم على حجر الشاهد الآخر الذي كان في ديار بني سليم وجلب منها أيضاً أخيراً ..

ثانياً - وهذا حلتي له ، وقراءتي . ويلاحظ أنه بقيت ثلاث كلمات لم أتمكن من حلها وقد وضعت عليها النقط هكذا : (. . .) . كما أن هنالك كلمة لم أستطع الوصول الى حلها ، وهي الكلمة التي وضعتُ عليها خطأً أفقياً .. وقد سايرتُ في الحل أسطر الأثر ، فأنتهيتُ كل سطر في الحل بما هو في أصله تماماً ، وبدأتُ كل سطر بما هو مبدوء به في الأصل .

الحل والقراءة :

أمر عبد الله
جعفر الإمام المقنن بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه الوزير
أبا

الحسن علي بن عيسى أدام الله عز
ه بهارة طريق الحادة للحجاج بيت الله
لما رجا من جزيل ثواب الله و
جرى على يد القاضي محمد بن مر
نضى أعزه الله وثق له ذلك
... أحمد بن عبد العزيز العقبيني
ومصعب بن جعفر الرد ...
... سنة أربع وثلاثمائة سنة

ثالثاً - الحجر الذي عليه هذا النقش هو جرانيتي ، ولونه بُنيّ
يميل إلى الانفتاح . وخطه كوفيّ دقيق الرسم ، مما يدل على أن نقشه
منقوش ، ومما يدل على تقدم فن النقش في تلك الحقبة . وقد وُجد
هذا الحجر الأثري في ديار بني سليم وذلك يدل بطبيعة الحال على أن
نقشه ونصّبته كانا بعد استتباب الأمن وبعد عمارة هذا الجزء بالذات
من الطريق ، طريق الحجاج ، وقد تم نصب الحجر بعد نقشه للتذكار .
ونقشه غير مُستكمل ولا مُنقَط ، وخطه كوفيّ من النوع الذي
يميل إلى زخرفة الحروف بطريقتين فئتين هما : التشجير والزوايا .
والحجر العمراني هذا أكثر تقارباً في رسم الحروف وأكثر انضماماً فيها
من حجر الشاهد ولا ندري حتى الآن هل كان نقش الحجرين في
المدينة المنذرة ببلاد بني سليم ، التي لا تزال مقبرتها التي أخذ منها أحد
الحجرين ، أو كان نقشهما خارجها وربما في مكة أو المدينة أو في بغداد .
وشكل الحجرين معاً مماثل في أنها يأخذان تقريباً في وضعها الحالي ،
شكل المثلث ، إلا أن بينهما اختلافاً في اتجاه الزوايا .. فالحجر العمراني
واسع الزوايا ، في علوه ، ضيقها ، في سفله ، بعكس حجر الشاهد
تماماً .. هذا وقد وجاء في كتاب «تاريخ مدينة جدة»^١ عن هذا
الحجر العمراني أنه جيء به من بلاد بني سليم إلى متحف جدة ، وهو
لا يزال بها إلى اليوم على ما نعلم .

دراسة لحجر الشاهد السلمي ، وحلّ له

رابعاً - مكثت ثلاثة أيام متوالية وأنا عاكف على قراءة حروف حجر
الشاهد السلمي حرفاً حرفاً ، وبدأت بذلك من ١٣-٣-١٣٨٥ هـ

١ مؤلف هذا الكتاب .

إلى ١٥-٣-١٣٨٥ هـ في مدينة جدة .

خامساً - وقد قرأته بتمامه حسب ما يلي : (وبلاحظ أنني التزمت في كتابته التالية منهج أسطره في كلتا بدايتها ونهايتها) .

القراءة :

بسم الله
الرحمن الرحيم
صلى الله على
محمد وعليه
السلام اللهم
يارب السموات
والأرض . اغفر
لأحمد بن محمد
الوضاح . كن له ودوداً
في قبره والحقه بشيعة محمد
صلى الله عليه وسلم

سادساً - مما لاحظته أثناء دراستي لنقش حجر الشاهد المذكور أنه وضع نقطة كبيرة (فاصلة) بين جملتين ، علامة على انتهاء الجملة الأولى ، وابتداء الثانية .. مما يدلنا على أن الأسلوب العصري الحديث المقرر في الكتابة وهو وضع الفواصل بين الجمل ، لتمييز بعضها عن بعض فلا تختلط على القارئ - وخاصة فاصلة النقطة التي هي علامة

انتهاء ما قبلها وابتداء ما بعدها — كان معمولاً به في الخط العربي في أيام حضارتهم المزدهرة .

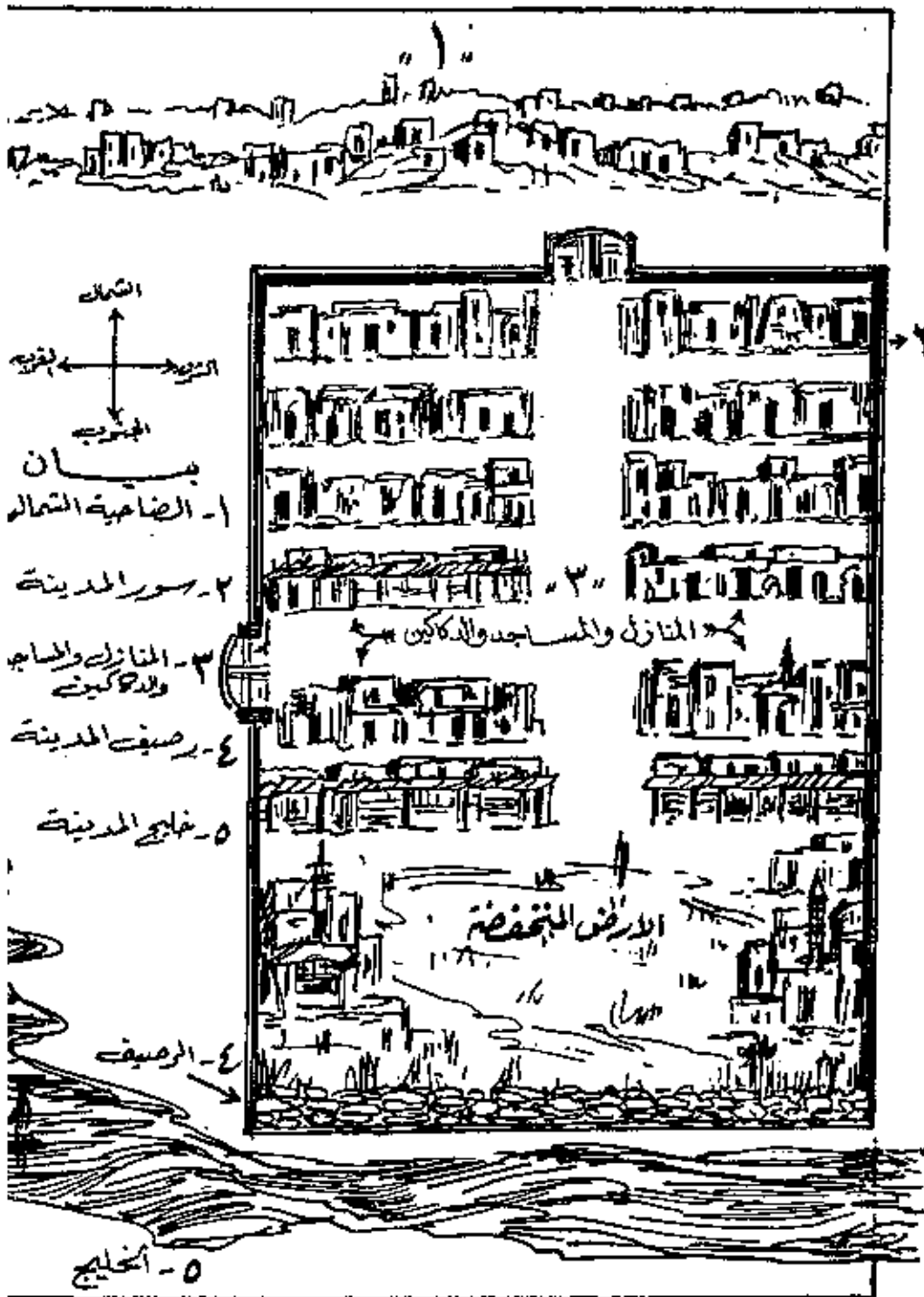
سابعاً — حجر هذا الشاهد جرانيتي هو الآخر ، وهو بُني اللون فاتحه ، وثقيل جداً .. ووزنه أثقل من حجمه ، وهو غير قابل للتفتت أو التكسر ، مما جعله يحتفظ بكامل رونقه وشكله . وخطه شجري السيات ، محفور بالإزميل الحاد ، حفرأ عميقاً ، مثل زميله الحجر العمراني ، وقد حماها ذلك من التآكل أو تآكل الحرم .

وطول حجر الشاهد : ٤٧ سنتمراً ونصف ، وعرضه ٢٥ سنتمراً في الوسط . وعرضه بالنسبة لرأسه ١٦ سنتمراً ، وفي آخره العرض ٣٥ سنتمراً . وسمكه ٧ سنتمترات . وخطه من النوع الكوفي المشجر كما أسلفنا ولكن بدون أي شكل أو نقط . وقد وجدته مبارك عبد التواب السُّلَمي — أحد بني سليم المعاصرين ، التاجر المقيم بحجة — على ما حدثني به — في أرض بني سليم ، في منطقة الكامل ، في وادي ستارة في رقعة من الأرض فيها آثار ذات مبانٍ قديمة ، وتسمى (جَيْبَلَة) . كما أن في تلك الأرض معامل الذهب ، ولا تزال أطلالها باقية تظهر فيها محارق المعادن ، وكهوف استخراجها . كما أن فيها مقبرة كبيرة جداً مملوءة بالشواهد ، وهي غير مسورة . ولا بد أن سورها سقط وزال بتقادم العهود وعدم الترميم والتجديد وبفعل الرياح وغيرها . وذلك بعد زوال المدينة التي كانت تمتد المقبرة .. وإذا ذهب الأصل وزال ، فلا غرو أن يتبعه الفرع .

وكانت هذه البقعة خربة مندثرة .. والآن بدأ العمران يلبس إليها . وقد وجد مبارك ، هذا الحجر في هذه المقبرة الكبيرة المهملة القديمة بحجة كما أسلفنا . وإلى حين كتابة هذا البحث لا يزال الحجر بحجة .

وكان عبد المجيد شبكشي سلمني صورة الحجر الفوتوغرافية وطلب مني

أن أقرأه .. وقد لاح لي أن قراءته يسهلها وجود الأصل لديّ لتكون
القراءة على الطبيعة وأشرت له بذلك فأبأنني بأن أصله موجود بدكان أخيه
صالح شبكثي فذهبت إليه ووجدت لديه الأصل ، وبعد ظهر يوم
١٥-٣-١٣٨٥ هـ بقليل أتحت قراءة الأثر كما ذكرته آنفاً . وقد
أحضر لي هشامُ بنُ صالح شبكثي ، الرجل الذي جاء بالأصل من
بندني سليم : مبارك عبد التواب السلمي .. فكان تعارف به وحديثٌ معه
أنتج المعلومات التي سلفت .



رسم تقريبي لمدينة البصرة (البيزنطية) وغليجيا

آثَارُ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ
وَمَا جَوْلَهَا

يَثْرِبُ : القريةُ والمدينةُ

يَثْرِبُ اسم كان يطلق في الجاهلية على عموم المدينة ، ومنه قوله تعالى حكاية عن المناققين : « يا أهل يَثْرِب لا مُقَامَ لَكُمْ » . على أن حقيقة المُسَمَّى به هو إحدى قرى المدينة وأكبرها . وعن ابن عباس : أن يَثْرِب في الأصل كان اسماً لابن عَبَّيْل الذي هو أول من نزل المدينة . وبابنه المذكور سُميت البلدة ، يَثْرِب .

أما (يَثْرِبُ) القريةُ ، فتمتد على ما حكاه السهمودي من طرف وادي قناة شرقاً ، إلى طرف الحرف غرباً ، ومن زبالة الرِّج جنوباً ، إلى البساتين التي كانت تعرف بالمال شمالاً .

والشطران الأخيران من هذا التحديد ، وهما زبالة الرِّج ، والمال ، حقيقتهما مجهولة لدينا الآن . ومن باب التقريب والاستنتاج يمكننا أن نقول : إن المال هو بعض بساتين العيون في الشمال الغربي ، وإن زبالة الرِّج هي قرية من قرى المدينة كانت بشمالى سلع إلى قرب وادي قناة ، اندثرت آثارها فلم تُعَدْ معروفة ، وقلنا : إنها قرية ، بناء على قول السهمودي عنها : « كان لأهلها أطمان » ، وقوله : « وكان بالمدينة في الجاهلية سوقٌ بزبالة من الناحية التي تُدعى يَثْرِب » .

أطم الضحيان^١

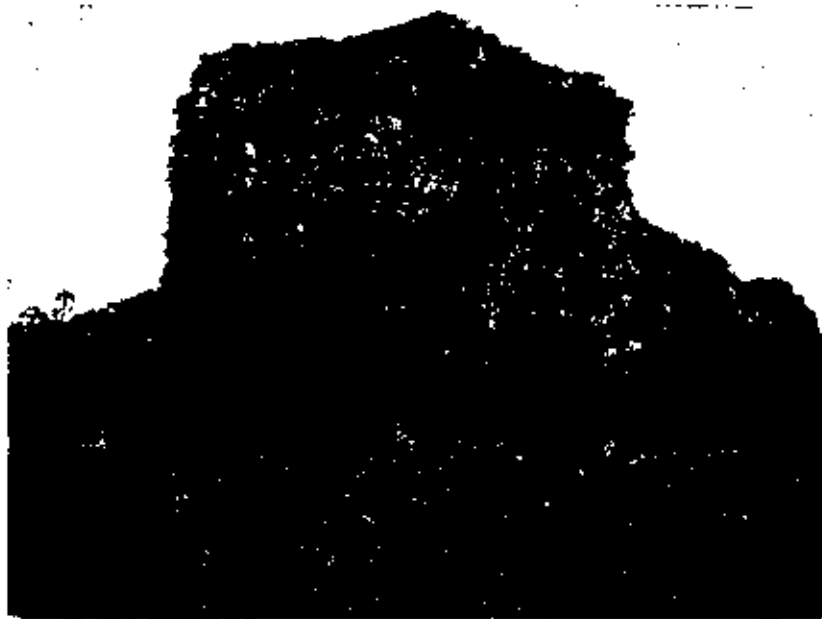
أطمٌ عظيم ، مشيد بحجارة الحرّة السود ، طوله نحو ٢٧ متراً ،
في عرض ١٢ وارتفاعه نحو ٨ أمتار ، وقد تساقط قسمه الجنوبي ،
حتى يكاد ينمحي أثره .. أما القسم الشمالي منه ، فلا يزال متماسكاً ،
عالياً ، برغم تناثر كثير من حجارته العلوية ، ولضخامته لم يظهر أثر
كبير لهذا التناثر .

وهو واقع بالعرضة الكائنة غربي حديقة بئر شميلة ، وشمالى حديقة
العصبة ملاصقاً لها تقريباً .

• • •

طلما وقفتُ مبهوراً أمام هذا الأطم العظيم ، وقد كنت إخال أنه من
أطام اليهود : حتى عثرت في وفاء الوفا ، على ما كشف لي عن حقيقته
قال السهودي في معرض بحثه عن منازل الأنصار : « وابتني أحبيحة
ابن الجلاح بالعصبة أطماً ، يقال له الضحيان ، وهو الأطم الأسود
الذي بالعصبة » .

١ الأطم : الحصن . والفحيان : الظاهر البارز ، وهو كذلك . وجميع الأطم نظام وهو الحصن المبني
بالحجارة أو كل بيت مربع مسطح ، (لسان العرب) . على أن من الأقسام ما كان يبنى بالطين
وسده .. ذكر ذلك نشوان الحميري في شرح قصيدته ، ص ١٤٦ ، المطبعة السلفية بالقاهرة
سنة ١٣٧٨ هـ .



طلال أطم الضحيان بالمدينة المنورة

والعصبة على ما يفهم من فحوى أقوال مؤرخي المدينة كانت تعني جميع هذه البساتين الواقعة غربي مسجد قباء ، التي يفيض فيها وادي وادي رانواء ، كما أن السبع أو السبحي هو البساتين التي بغربي مسجد القنخ في العرف القديم . واسم العصبة في عصرنا يطلق على الحديقة المجاورة لأطم الضحيان .

وهذا الأطم جاهلي كغيره من أطم المدينة ^١ .

١ في وفاة النوف ، ج : ص ١٤٧ و ١٤٨ ، ما يدل على أن جميع أطم المدينة جاهلية البناء ، ما عدا أطم بني ساعدة ، فقد قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهو يبني . وفي المدينة أطماء منها أطم الضحيان هذا ، و « الأشعر » : أطم بني عدي بن النجار ، وقارع أطم ثابت بن المنذر ، آن بعد ، إلى ابنه حسان الشاعر ، ويذكر المسمودي أن هذه الأطم خربت بعد ذلك في أيام عثمان بن عفان ولم يبق منها إلا أطلالها . ص ١١ : كتاب حسان بن ثابت : الدكتور إحسان النص . وأقول : ان منها بقايا إلى الآن .

حصن كعب بن الأشرف النبهاني^١

وصفه :

يقوم على هضبة من الحرة الجنوبية الشرقية للمدينة ، وطوله ٣٣ متراً في عرض ٣٣ وارتفاع ما بقي من جدرانه ٤ أمتار وسمكها متر ، وله باب واحد في الجهة الغربية وثمانية أبراج ضخمة ، وبنائها من حجارة ضخمة ملتصق بعضها ببعض مباشرة وطول بعضها ١٤٠ سنتيمتراً وعرضها ٨٠ سنتيمتراً وسمكها ٤٠ سنتيمتراً .

ولا أثر فيه للنقوش ولا للزخرفة ، بناءً حربي محض ، وبوسطه رحبة واسعة مربعة تبلغ مساحتها ألف متر مربع ، وهي غير مرصوفة ولا مبلطحة فالصخور الحرة نائمة فيها ، وبينها انخفاضات وارتفاعات .

١ ليس كعب بن الأشرف يهودياً ولكنه عربي نبهاني طائي ، مستخول في بني النضير ، وكانت له منزلة عالية بينهم ، لما لأخواله من المكانة في يهود ، كما له منزلة بين العرب ، لذلك ولشعره . وهذا الشعر طائفاً ألب المشركين على محاربة المسلمين ، وطالما سب أعراضهم ، فكفاً ، لأذاتيه لرسول الله وللمؤمنين : دعا النبي صلى الله عليه وسلم بمقتضى الصحابة لقتله ، فبادر بعضهم لتتفيذ رغبته العالية ، فذهبوا إليه في حصنه ليلاً ، واحتالوا عليه حتى أخرجوه منه وذهبوا به إلى شرق المدينة فقتلوه هناك .

وبجوار الحصن من الداخل ١٠ غرف مختلفة المقاسات ، وأعالیه مهذمة .

ولما جاء في كتب التفسير والحديث والسيرة من كون نبي النصير لما عُلبوا في محاصرة الرسول إلى الله عليه وسلم لهم ، واستسلموا عام ٣ أو ٤ هـ ، وحصل الاتفاق على جلائهم من المدينة ، مع حمل ما يستطيعون حمله من أمتعتهم ، غير السلاح ، ومن ذلك أخشاب سُقُوفِ حصونهم ونُجُفُ أبوابها الخميطة المزخرقة - تقول نظراً لما ذُكِرَ نرى أن سُقُوف هذا الحصن وعقوده أخرجت منه في ذلك العهد ، ونُقِلَتْ أخشابها فيما نقل يومئذ .

وإن هذا الحصن الهائل ، ذا الحجارة الضخمة السود ، والأبراج العظيمة ليعطينا صورة ناطقة عن كيفية بناء الحصون ، هنا ، قبيل الإسلام .

تحقيق عنه :

بقي علينا : هل هو ذا حصن كعب بن الأشرف بعينه أم هو حصنٌ سواه ؟ وقيل الإجابة عن هذا السؤال ، أمهد لبقارئ بما رواه المؤرخون عن موقع الحصن ، ومنازل نبي النصير ، التي هو من جملتها .

في «وفاء الوفا» : أنه لما هتَفَ أبو نائلة بكعب بن الأشرف ، وهو في حصنه ببني النصير ليلة قتله ، نزل له .

وفي «سيرة» ابن هشام ، و«الكامل» لابن الأثير ، ذُكِرَ الحصن كعب ، ولكن بدون تعرض منها لموقعه .

• • •

بَحَثْتُ عَنْ مَنَازِلِ بَنِي النَّضِيرِ الَّتِي فِيهَا الْحَصْنُ ، فَعَثَرْتُ فِي « وَفَاءِ الْوَفَاءِ » ، وَجَمَلَةِ الزَّهْرَاءِ ، عَلَى أَنَّهَا تَقَعُ بِحَرَةِ زَهْرَةَ : (الْحَرَةُ الَّتِي هِيَ بِطَرَفِ الْعَالِيَةِ) ، وَبِأَطْرَافِ وَادِي مَدْيَنِيَّيْبِ ، وَبِالنَّوَاعِمِ ، وَمَا وَالَاهَا إِلَى الْحَرَةِ وَفِي هَذَا الصَّدَدِ يَقْصُ لَنَا السَّمُودِيُّ مَشَاهِدَاتِهِ فَيَقُولُ : « وَرَأَيْتُ بِالْحَرَةِ فِي شَرْقِيِّ النَّوَاعِمِ ، آثَارَ حِصُونٍ ، وَقَرْيَةٍ بِقَرَبِ مَدْيَنِيَّيْبِ يَظْهَرُ أَنَّهَا مِنْ جَمَلَةِ مَنَازِلِهِمْ » يَعْنِي مَنَازِلَ بَنِي النَّضِيرِ .

بَعْدَ هَذَا التَّمْهِيدِ أَقُولُ : إِنْ مَا قَمْتُ بِهِ مِنْ بَحْثٍ وَتَقْيِيبِ عَقَبِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ الْآلَفِ ذَكَرَهُ قَدْ أَكَّدَ فِي نَظَرِي تَأْكِيداً بَاطِئاً ، أَنَّ الْحَصْنَ الْمَوْصُوفَ هُوَ حِصْنُ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ بَعِينَةَ ، وَاللَّيْكَ الدَّلِيلُ : يَقُولُ الْمَثَلُ السَّائِرُ : أَهْلُ مَكَّةَ أَدْرَى بِشَعَابِهَا . وَلِذَا أَهْتَمَمْتُ بِالْوَصُولِ إِلَى حَقِيقَةِ هَذَا الْحَصَنِ مِنْ طَرِيقِ الْاسْتِخْبَارِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ .. كَانَ جَوَابُ أَحَدِهِمْ ، لَمَّا سَأَلْتُهُ عَنِ الْحَصَنِ وَلِمَنْ هُوَ فِي الْأَصْلِ ؟ : هَذَا حِصْنُ النَّصَارِيِّ ! فَبَادِرُ زَمِيلٍ لَهُ بِجَانِبِهِ لِتَصْحِيحِ إِفَادَتِهِ وَقَالَ : هَذَا حِصْنُ النَّصْرَانِيِّ ... وَسَكَّنَا ، وَصَمَّتْ أَنَا مَفْكَراً فِي جَوَابَيْهِمَا الْمُتَحَدِّينِ فِي الْمَأَلِ : حِصْنُ النَّصَارِيِّ أَوْ النَّصْرَانِيِّ .. عَجِيبٌ هَذَا الْقَوْلُ ، وَغَرِيبٌ هَذَا الْفَهْمُ .. النَّصَارِيُّ لَمْ يَسْتَوْطِنُوا هُنَا قَطُّ .. فَأَنْتَى لِمِ تَشْيِيدِ حِصْنِ ضَخْمٍ كَهَذَا ؟ ! وَإِذْنُ لِمَنِ الْحَصْنُ ؟ .. لِأَغْرُو أَنْ الْبَدُوَ الْأَمِيْنَ يَجْهَلُونَ الْحَقَائِقَ التَّارِيخِيَّةَ ، وَإِنَّمَا مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ أَخْبَارٌ وَأَقَاصِيصٌ ، يَتَلَفَّفُونَهَا شَفْوِيّاً مِنْ آبَائِهِمْ عَنِ أَجْدَادِهِمْ يَتَنَاقَلُهَا مِنْهُمْ خَلْفَ عَنِ سَلْفٍ ، وَيَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا التَّحْرِيفَ وَالِالْتِوَاءَ وَالتَّغْيِيرَ .

وَبِالتَّالِيِ ، فَالْبَدُوَ هُنَا لَا يَمَيِّزُونَ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارِيِّ .. كَلٌّ مَا سِوَى الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ نَصَارِيُّ ، فَالنَّصَارِيُّ يَهُودٌ ، وَالْيَهُودُ نَصَارِيُّ .. وَإِذْنُ مَاذَا اسْتَفَدْنَا مِنْ قَوْلِ الرَّجُلَيْنِ ؟ !

كَلٌّ مَا اسْتَفَدْنَا مِنْهُمَا أَنَّهُمَا مُتَّفَقَانِ عَلَى أَنَّ الْحَصْنَ قَدِيمٌ لِنَاصِرِ الْمُسْلِمِينَ .. وَغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ هُنَا قَدِيماً هُمُ الْيَهُودُ ، وَكَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ وَإِنْ كَانَ

نهيائياً من طيء إلا أنه بحكم الخوولة والحوار أصبح يعتبر واحداً من اليهود .
لا بأس ! هذه فائدة علمية لها أهميتها في الموضوع ، وإن تكن
مبتورة .. فلنمض في بحثنا قديماً .. فالحقيقة بنت البحث كما يقولون .
في أثناء زهابي مرة أخرى للحصن عام ١٣٤٧ هـ صادفت رجلاً
قزماً بالقرب من الحصن اسمه (علي) يعرفني بقدر ما أجهله ، وله
بستان جميل في أم عشر ، وهو من «بني علي» أهل هذه الناحية .
وعندما شاهدني مقبلاً إلى الحصن ، نهض إليّ ، واستقبلني هاشماً باشاً
وقال : «أنت مقصدك أن تفرج علي الحصن ؟» فقلت له : «نعم»
فقال : «تفضل ! هذا الحصن ملكنا من قديم وكان ...» وهنا قاطعته
قائلاً : «إذن لمن هو في الأصل ؟» فأجابني بسرعة : «هذا هو
حصن كعب بن الأشرف» .. وتقدمني مرشداً ، وأراني الخراب الخاثر
به ، من قبل فخري باشا ، فشكرته ، وحاولت الانصراف منفرداً ،
فأسرع إليّ ، يتابعني . ولما حاذينا باب بستانه أقسم لأدخلكه معه ،
ولأقيلن عنده ، سحابة يومي .. ولظمني دخلت معه البستان ، فلما
شربت الماء استأذنته في الخروج معتزلاً ، فقبل بعد إلحاح وتوسلات مني .

مشكلة علمية وحلها :

بعد الوصول إلى ما شرح ، قامت في ذهني مشكلة علمية جديدة
حالت دون اقتناعي تماماً بأن هذا هو حصن كعب بن الأشرف ، برغم
قيام الدلائل الموضحة سابقاً .

وتلك العقبة هي : أنه من أين يشرب سكان هذا الحصن إذا نفذ
ما معهم من ماء من الخارج . إذا كان هذا هو حصن كعب بن الأشرف ،
وهو معد للإقامة ، والحرب ، والحصار ؟! لا بد من وجود بئر
بداخله ، ليتحقق أنه هو ، وإلا فلا .. ومما أذكره أني لم أعر علي

بئر بداخله أثناء جولاتي في رحبته وأتحاته الداخلية .

قد يقول قائل : كثير من الحصون لا آبار فيها ، فأقول له : نعم ، ولكن ليست كلها سواء ، فمثل حصن كعب ، المُعدَّ للإقامة والطوارئ معاً ، في موقع كموقعه ، ومكانة كمكانة صاحبه ، لا بد أن تكون فيه بئر داخلية سداً لثغرة الاحتياج إلى الخارج في ألزم شيء لحياة الإنسان ، وهو الماء ، إذا اشتد الأمر ، وحوصر من هم بداخل الحصن مدة طويلة ، كما هو متوقع .

في الحق إن مشكلة عدم عشوري على بئر بداخل الحصن ، اغتص بها ريق فكري أمدأ مديداً ، وفكرتُ فيها شهوراً ، وحادثتُ عنها بعض الرفاق .. حتى كان عام ١٣٥١ هـ ، فذهبتُ في أحد شهوره معهم إلى الحصن ، فوجدنا - مُصادفةً - صاحبي « علياً » وبعد التحيات والترحيبات والتعريفات ، أعاد كلمته الأولى : أنتم مقصدكم أن تفرجوا على الحصن ؟ .. فقلنا : « نعم » ، فتقدمنا يقفز أمامنا بخفة ورشافة ، فوق حجارة الحرة ، وصار يدلنا ، ويحكّي لنا حكايات عن الحصن .. ويقول : إنه ورثه من أجداده ، وإنه ، وإنه .. فأجابه بسؤال ، مُستوضحاً ومُختصراً : « يا أُنهي علي ! أين البئر ؟ لا بد أن تكون بداخل الحصن بئر ! » . وحالاً أفاض عليّ ، بما طيّب خاطر ، وحل عقدة الإشكال .

قال : « تعالوا أركبم البئر رأي العين ، ها هي ذي : (في الجهة الجنوبية خارج الحصن ملاصقة له) وقد أنهارت بطول الزمن » .

١ يزيد هذه النظرية ما ورد في سيرة ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ، من حصار النبي صلى الله عليه وسلم لبني قريظة فجأة في حصونهم ٢٥ يوماً ، فلولا أن بداخلها آباراً ، ما استطاعوا المقاومة طول هذه المدة التي تقرب من شهر .

فقلت له : « إذا كانت بئر الحصن هي هذه ، على ما تقول ، فالمُسْتَقُونَ منها ، لم ينجوا ، بَعْدُ ، من خطر الأعداء ، لأنها خارجة عن الحصن » .

قال : « لا .. إن مدخل البئر من داخل الحصن هنا (وأشار إلى مكان بداخل الحصن مُنَوِّحٌ للبئر الخارجية) بسلم حجري يهبط منه المستقون ، من تحت هذا البرج ، وقد دفن التراب والحجارة المدخل والسلم ، وقال : أولا ترى هذا البرج ؟ »
قلتُ : « بلى . إني أراه ! » .

قال : « بعد أن يهبط الواردون إلى البئر من الدرج الذي أشرت لك به ، يقف الرجال حاملي السلاح في هذا البرج لحراستهم إذا أحوج الحال » .
وهذه المحاوراة الطريفة التي دلّت على رُجْحَانِ عقل صاحبنا (علي) وتمكّنه من الموضوع ، وبمقارنة إفاداته مع ما مرّ ذكره ، من نص المؤرخين على أن الحصن يقع في منازل بني النضير ، وأن منازلهم ، بأطراف هذه الحَرَّةِ التي فيها الحصن المبحوث عنه - من كل ذلك يتضح أن هذا الحصن ، هو حصن كعب بن الأشرف بعينه .
وهو بضاحية المدينة الجنوبية الشرقية ، وبينه وبينها نحو ساعة ونصف الساعة ، بالسير العادي للإنسان¹ .

والطريق الموصل إليه منها هو هكذا : « بابُ العوالي - طريق قربان - أمّ عَشْر - أمّ أربع - جزءٌ صغيرٌ من الحَرَّة - الحصن » .

1 هذا البحث كتب قبل توافر السيارات بالبلاد ، إذ كان الاعتماد في تيسر المسافات بالسير على الأقدام . واقتولف قد كان وصوله إذ ذاك لحصن بطريفة أنشي من المدينة اليه في كلتا المرتين .

وادي العقيق

هذا الموضوع شائق ، ولكنه مع ذلك شائك صعب المراس . ونحن سنبدل قصارى جهودنا في سبيل تذليل عقباته ووجلاء صفحة سياته ، لنميط اللثام عن تاريخ هذا الوادي الذهبي ، الذي كان في عصر من العصور مطمح أنظار الخلفاء والأغنياء والشعراء بما حوى من قصور جميلة ومتزهات لطيفة .

لم سُمِّيَ وادي العقيق بهذا الاسم ؟

عُرِضَ هذا السؤالُ على سليمان السعدي المتضلع في فقه اللسان العربي ، فكان جوابه للسائل : «لأنَّه عَقَّ في الحِجْرَةِ» أي شقَّ وقطع . وهناك قول بأن سبب هذه التسمية هو حُمْرَةُ الوادي .
والتوجيه الذي أدلى به سليمان هو المقبول - في نظري - للأسباب التالية :

- ١ - ذكر ياقوت أن اسم العقيق شامل لكل مسيل ماء شقه السيل فأنهره ووسعه (معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ١٩٨) .
- ٢ - ونصَّ على أن بلاد العرب أربعة أودية تُسمَّى جميعاً بالعقيق .

٣ - إن السهودي قصر لنا أن تُبعاً لنا مرّ بالعقيق قال : « هذا عقيق الأرض » .. وهذا بعد أن مرّ بالعرصة التي كانت تُسمى بالسليل من العقيق نفسه ، فقال عنها : « هذه عرصة الأرض » . فكما أن معنى العرصة لغةً : المكان المتسع الخالي ، ولذا أطلقها تُبعٌ على السليل ، فكأنك كان لإطلاقه اسمَ العقيق على هذا الوادي بسبب كونه شقاً في الأرض أحدثه السيل الذي يجري فيه .

هواؤه وتربته :

هواءُ هذا الوادي صافٍ منعش على الإطلاق . وأما تربته فهي رملية تكتسي حمرة في الغالب . وأجملُ بقاعه « العرصتان » : الصغرى والكبرى .

جهته بالنسبة للمدينة وطريقه ومسافة بعده عنها :

يقع وادي العقيق في غربي المدينة ، ويشقه طريقُ مكة^١ .. ويكاد عمران المدينة يتصل بمداخله والطرق إليه منها : باب العنبرية - الطريق شمالي قبة الخضر - المدرّج - العقيق .
ويبعد عن قلب المدينة من هذا الطريق بنحو ثلاثة كيلومترات .

مصدره ومصبه :

مصدره حَضِير : (مزارع بقرب النقيع الواقع بجنوب المدينة على

١ بني جسر كبير على انقسام الذي يشقه طريق مكة من العقيق لتلاني تعويق سيل العقيق لمرور إذا جرى وسال .. بنته الحكومة العربية السعودية بعد كتابة هذا البحث بأمد ..

مسيرة يوم ونصف منها) ، ويفضي إلى بشر علي ، العليا المعروفة بالخليقة ، ثم يمر بغربي جبل عيثر ، فذي الخليفة ، ثم يسير مشرقاً إلى أن يحاذي حرة الوبرة ، في قسمها الذي يطلع إلى المدينة ، ثم يعرج إلى الشمال ، ويتجاوز العرصتين ويفيض في رُغابة .

قصوره ودوره :

قال محمد بن عبد الله البكري قاضي المدينة وعمر بن عبد الله :

أينَ أهلُ العقيق ؟ أينَ قريش ؟
 أينَ عبدُ العزيز ؟ وأينَ بُكَيْرُ
 وكَوَّانَ الزَّمانَ خَلَدَ حَيًّا
 كانَ فيه يُخَلدُ ابنُ الرِّبْرِ

هذا ويشاهد الإنسان بعد أن يتجاوز طرف حرة الوبرة ، مُصعداً ذاهباً إلى الميقات ١ ، أو متوجهاً إلى العرصتين بالشمال ، تُلُولا متسلسلة على جانبي المسيل ... وتلك التلول هي آثارُ قصور العقيق ودوره القديمة ، وقد لا يسترعي الأنظارَ مرأى هذه التلول لأول وهلة إذ يحسبها الناظر فيها بعض الكثبان الرملية المتكونة في أطراف الوادي تكوِّناً طبيعياً .. أما إذا دقق النظر فيها ، فإنه يتحقق أنها آثار القصور العقبية الفاخرة ، بدأت اليوم في هذا الشكل ، بحكم تقادم العهد وفعل المؤثرات الخارجية .

واليك مواقع القصور والدور بالعقيق حسب ما حققته بعد إجهاد القرينة ودراسة مختلف المصادر .

١ هو ذو الخليفة ميقات لإحرام أهل المدينة المنورة في حجهم وعمرتهم .

أ - القصور الواقعة بطرف حرةِ البويرة إلى بئر رومة :

- ١ - قصر عروة بن الزبير ، بقرب بئر .
- ٢ - قصر مراجل .
- ٣ - قصر سكينه بنت حسين المسمى بالزيتي .
- ٤ - قصور متتابعة لإسحق بن أيوب .
- ٥ - قصور أخرى لبعض الأعيان .
- ٦ - قصور ابنة المرازقي الزهرية .
- ٧ - منازل جعفر بن إبراهيم الجعفري .

ب - القصور التي في العرصة الكبرى التي بها بئر رومة :

- ١ - قصر عبد الله بن عامر .
- ٢ - قصر مروان بن الحكم .

ج - القصور التي بالعرصة الصغرى :

- ١ - قصر سعيد بن العاص (هو الباقية آثاره إلى اليوم دون سواه)^١ .
- ٢ - قصر عنبسة بن سعيد بن العاص .
- ٣ - القرائن (دور كانت لآل سعيد بن العاص بقرب قصره) ،
(الأغاني ، ج ١ ، ص ٦) .

د - القصور التي بسفح جها أم عاقر (أو عاقل) :

- ١ - قصور جعفر بن سليمان .

١ أسقطت أطلال هذا القصر بمحاذاة القصر الملكي الذي حول إلى دار لضيافة الملكية .

هـ - القصور الكائنة بسفح جباء أمّ خالد :

- ١ - قصر محمد بن عيسى الجعفري .
- ٢ - قصر يزيد بن عبد الملك بن المنيرة .

و - القصور الواقعة بسفح جباء تضارع :

- ١ - قصر طاهر بن يحيى .
- ٢ - منازل لعبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان .
- ٣ - قصر عاصم بن عمرو بن عثمان بن عفان . (وقد درسنا هذا القصر وعقدنا له فصلاً خاصاً بعد هذا ، شمل موقعه وتخطيطه كما درسنا السد المنسوب لصاحب هذا القصر في الفصل المشار إليه بنفسه) .
- ٤ - قصر عنبة بن عمرو بن عثمان بن عفان . ويبدو أن عنبة هذا هو أخو عاصم ، المذكور آنفاً .
- ٥ - قصر عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن عثمان بن عفان . (وهو ابن بكر المذكور في البيتين السابقين) .

ز - القصور الكائنة بسفح جبل عتير :

- ١ - قصر إسحاق بن أيوب المخزومي .
 - ٢ - قصر لآل طلحة .
 - ٣ - قصر إبراهيم بن هشام .
 - ٤ - منازل لآل سفيان بن عاصم .
- هذا بيان إجمالي لمواضع قصور العتيق^١ ، ومنه يتضح أن مجموعها

١ تصنيف القصور بالعتيق هكذا من شأنه أن يسهل وضع خارطة أثرية لفصاحة العتيق الأثرية .

هر (٢٤ قصرًا) . أما تعيين موضع كل منها بالتحقيق فذلك مطلب عسير جداً^١ .. ناهيك بما تحملناه من البحث العلمي والتفكير حتى توصلنا إلى إيضاح مواقعها بالصفة المشروحة آنفاً .

بساتينه وآباره :

لا عجب أن يكون وادي العقيق في سابق عهده مغموراً بالبساتين الخميطة التي يسميها السيل^٢ إذا جرى ، والآبار^٣ إذا توقف .. فوجود الرياض فيه من مستلزمات حياة النعيم التي كان يستظل بأكثافها أهل المدينة ، في تلك الحقبة من الدهر :

وهذا بيان^٤ ما اطلعت عليه من ذلك :

- ١ - مزارع أبي هريرة قبيل (الميقات) .
- ٢ - مزارع عروة بن الزبير قريباً من بئر .
- ٣ - بساتين ابن بكير بقرب قصره الذي هو بسفح جباه تضارِع .
- ٤ - مزارع مروان بن الحكم بقرب قصره بالعروة الكبرى .
- ٥ - بستان سعيد بن العاص بقرب قصره بالعروة الصغرى .
- ٦ - مزارع الحرف التي منها « الزين^٥ » : مزرعة النبي صلى الله عليه وسلم على ما رواه ابن زباله .
- ٧ - مزارع ثنية الشريد (بعد ذي الخليفة) .

وفي سنة ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥ م كان بالعقيق مزارع وبساتين متفرقة ، لا تكاد تذكر بالنسبة لانتساع رفعتة وصلاح تربته .. وأهمها ما يقع

٢ وكما أشرنا إليه فقد تمكننا تيسيراً في سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م ، من تعيين موضع قصر عاصم ابن عمرو بن عبد بن عثمان بن عفان وسده . وعقدنا لهما قسلاً خاصاً تجده بعد هذا التصل رأساً .

بقرب ذي الحليفة شمالاً وجنوباً ، وتعرف بمزارع الأحساء ، لقرب الماء من ظاهر الأرض في تلك البقاع ، ويجودُ (الشري) ^١ في هذه المزارع .

أما بسنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م فقد انتشرت في العقيق المزارع والحدائق بصورة واسعة . وبالعرصتين والبحرف حدائق أطيبها ماء (الربخية) ^٢ بالبحرف ، وهواماً ، سلطنة ^٣ .

وكان بالعقيق عدد غير قليل من الآبار ، لا تزال آثار بعضها بادية ، ولكنها مطمورة . أما بئر رومة وبئر عروة فقد احتفظنا بحياتها إلى اليوم ^٣ لمزاياها الخاصة على أنهما قد انظرنا في بعض الحقب الحالية .

جماواته والآثار بها :

هي ثلاث هضبات سود^٤ كبار قائمة بطرف العقيق ، على شفيره الغربي ، وسيت جماوات لأنها دون الجبال ، تشبهاً لها بالشاة الحياء التي لا قرون لها .

وأقربها إلى المدينة ، جيماء تضارع ، وهي التي يشاهدها الإنسان عندما يهبط من المدرج إلى بئر عروة ، وخدامها غرباً بشمال : جيماء أم خالد ، فجيماء العاقر التي تصب على العرصة الصغرى . وعلى رأس جيماء خالد

١ الشري في عرف أهل المدينة المنورة اسم جامع لطبيخ الأحمر والخربز والقثاء والخيار .

٢ هي العرصة الكبرى أو جزء منها .

٣ كان ذلك بسنة ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥ م وما بعدها ، والآن : سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م ، فإن بئر عروة عادت للانظار من جديد ، ولعل الله يوفق من ينهها فيعود الاستغناء عن ماها العذب المشهور خلال أحقاب التاريخ .

كان عمر بن سليم الزُّرقي اكتشف هو وزميل له قبراً قديماً ، وَوَجَدَا عنده حجرتين مكتوبين لا تُقرأ كتابتهما ، فحملهما ، فلما ثَقُلَ أحدهما عليهما ألقيا به في الجاه نـها . ولا ندري هل هو باق فيها أم نقل ؟ أم ماذا جرى له ؟ والبحث يظهر الحقيقة . وكذلك لا ندري ماذا حدث للحجر الآخر الذي كان قد بقي معها .

فضائله وعمرائه وخوابه :

في صحيح البخاري : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أناني الليلة أت فقال : صلِّ في هذا الوادي المبارك » .

وفي عرصته يقول : « نعم المنزل : العرصة ، لولا كثرة الهوام » . وكثرة الهوام فيه لا تزال إلى اليوم .. ومن ذلك اني في ذات أصيل كنت مع بعض الرفاق في زيارة للعقيق من ناحيته الخنوية .. ورأيت حجراً مستديراً أملس فراقني منظره فلما حملته بيدي ظهرت من تحته حبة بيضاء ضخمة مُقَرَّنة .. فقتلتها بنفس الحجر .

أما تاريخ عمرانه فيبدأ من الوقت الذي أعطى فيه النبي بلال بن الحارث المزني ما أصلح من العقيق^١ وذلك بموجب حجة نبوية نصّها :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى محمد رسول الله بلال بن الحارث .. أعطاه من العقيق ما أصلح فيه معتملاً ، وكتب معاوية » .

فلما لم يعمل بلال شيئاً في العقيق أبهى لديه عمر بن الخطاب في زمن خلافته فسماً منه ، وانتزع منه الباقي ، وأقطعته للناس . وكان هذا

١ يعتبر إعطاء الرسول صلى الله عليه وسلم لبلال ما أصلح من العقيق ، إرهاب عمرانه الذي بدأ فعلاً في خلافة عمر رضي الله عنه .

منه انفاذاً لفحوى الوثيقة النبوية المشار اليها آنفاً على ما سنوضحه فيما يأتي :

وكان مستندُ عمر رضي الله عنه في هذا الصنيع أمرين :

الأول : الشرط الوارد في كتاب الإعطاء النبوي ، إذ ان بلائاً لم يعمل شيئاً في العقيق ولذا أصبح غير مالك له .

الثاني : احتياج الناس اليه ، لما كثرت المسلمون في المدينة حيث أمها كانت العاصمة .

ومن ذلك الوقت أنشئت به البساتين الغناء ، والقصور الفيحاء تدريجياً فما كادت دولة بني أمية تستريح من القلاقل الداخلية حتى وجهت عنايتها إلى عمرانها : فأصبح جنة سندسية خضراء ، زهورها القصور ، ونوارها الدور ، وأكمامها القُطان والرُواد .

ثم ما كاد يتدنى دور التوقف في هذه الدولة حتى ابتدأ دور اضمحلال عمران العقيق وازدهاره ، فما هوت حتى ذوى ، ثم صار في خبر كان ثم بدأ العمران يدب فيه تدريجياً حتى الآن سنة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

إذن فعمران العقيق الفعلي مقرون بحادثة تصرف عمر فيه ، وإنها لمنقبة جليلة تضاف إلى سجل مناقبه الضخم ، إذ برهنت على نظراته الاقتصادية والدينية الثاقبة ، كما دلت على تفانيه في حب العمران وكراهية الخراب .

فلو فرضنا أنه لم ينتزع العقيق من بلائ ، وبقي في يد ورثته لكان من الجائز أن يظل قاحلاً ، وبذلك تخسر المدينة عمران ضاحية من أجمل ضواحيها ، وأقبلها للعمران .

بين سد عاصم .. وقصره .. بالعقيق ٥

١ - السد :

أقيم هذا السد كسائر السدود القديمة في هذه البلاد لمنع تسرب المياه عقب هطول الأمطار إلى الخلاء ، وليحجز الماء لسقيا صاحب القصر وربما لمن كانوا بجواره ، وربما لخديفته ، وحدائقهم بقرب بطن وادي العقيق إذا كانوا أصحاب حدائق .

وهذا السد مبني من حجر أسود غير منحوت : (دبش) ومحصص ، وهو عريض ، يبلغ عرضه نحو مترين ونصف المتر ، وطوله نحو ٣٦ متراً .

وقد أقيم بين فتحتي جبل تضارع ، المنفرجتين ليستقبل ما يهبط أثناء الأمطار ، وبعدها ، من مياه ، ويحتفظ بها أطول مدة ممكنة . ولا بُد أن له فتحة أزالها الستون . وما تبقى من أطلال السد منهوي وإن كان شاخصاً للعيان ، كما كان . وهو مستقيم ، يمتد من ناحية

(٥) لقصر عاصم هذا ذكر في الفصل السابق ضمن القصور التي حددت مواقعها بالعقيق ، وقد أوردنا لقصر عاصم وسده ، هذا الفصل ، بتعريف بهما كمنودجين للقصور ذلك الوقت وسدوده .

الجنوب إلى الشمال . ويليهِ إلى جهة الجبل - الجهة الغربية من السد - أساس "مبني" ، لا أدري : هل كان دكة أو مُنْزَلَقًا لمياه الأمطار أو غير ذلك ، وما تبقى أو ما هو ظاهر - على أدق تعبير - من هذا المبني يتمثل في أصول ثلاثة جدران ، وقد بُنِيَتْ هذه الأصول بالحجارة غير المنحوتة السود التي هي من نفس الجبل والحصص . وأحد هذه الجدران يتجه من الشرق إلى الغرب . والآخر من الجنوب إلى الشمال ، وهذا الجزء قد اخترقه السيل ، وأتلفه . أما الجدار الثالث فيتجه من الغرب إلى الشرق .

وقد لاحظتُ في غرب السد من حيث يأتيه السيل المنحدر اليه من الجبل أنه قد سُهِّدَ لهذا السيل بمجرى له خاص ، ليسهل عليه النزول إلى السد ، أو ليُجْعَلَ ماء المطر ، يصل اليه من الأعالي صافياً بقدر الإمكان . وباب مياه السد ، الذي تنحدر منه عند اللزوم لا بدّ أنه في الناحية الجنوبية من السد ، لأنّ ذلك أمر طبيعي بالنسبة لقصر عاصم .. وبالنسبة لهذا الأخدود الذي شقته السيول فيما بعد ، وإلى الآن والذي ربما كان هو مجراها القديم ، وذلك لأنّ الجهة الشمالية من السد لا يمكن أن ينحدر منها الماء لاعتلاء ما يليها إلى الجنوب .

وقد بقي هذا السد حتى يومنا هذا هيئته وشكله ، يقارع الزمن ، ويقاوم عوامل الطبيعة القاسية .. ولا يبدو لي أنه رُمِّمَ كثيراً عقب أو بعد عهد ازدهار العقيق .. مما يدلنا على متانة بنائه وروعة هندسته .. ويراعى لي أنه لو أعيد تعميمه بشد أجزاءه المتآكلة إلى بعض بخص أو اسمنت ، لكانت منه فائدة طيبة في الاحتفاظ بكثير من المياه التي تهبط من هذه الجبال في موسم الأمطار .. وهذه الفائدة هي التي توخاها من بنائه ، فحققت له أمله المنشود ..

هذا وقد أخذتُ لهذا السد بعض الرسوم .. كما رسمتُ في نفس

الوقت : بيوم ٩ ذي الحجة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م جبل تضارع الذي يشرف على السد ، وتهبط مياه الأمطار منه إليه .

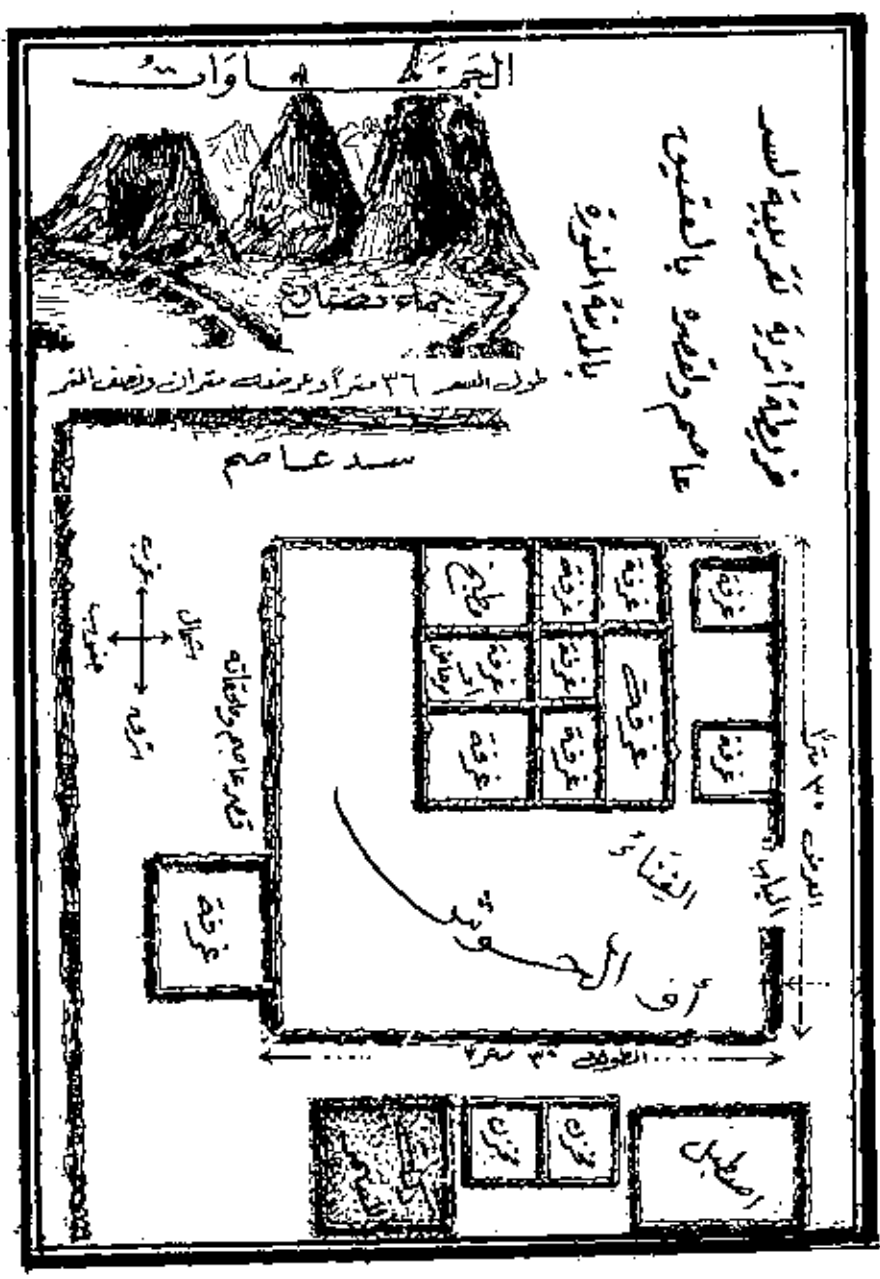
٢ - القصر :

وبعد أن فرغت من دراسة هذا السد وأخذ رسومه ، اتجهت إلى قصر عاصم بن عمرو بن عمر بن عثمان بن عفان صاحب السد على ما يبدو من وضع السد والقصر المجاور له .

وقد عُنيتُ بالغ العناية بدراسة آثار القصر المذكور ، وزمن بنائه ، وشيء من تاريخه وطراز بنائه .

ويقوم القصر إلى ناحية الجنوب ، ببعض انحراف إلى الشمال ، بالنسبة للسد .. وبينهما نحو ٨٠ متراً .

وطول القصر نحو ثلاثين متراً ، وعرضه نحو ثلاثين متراً أيضاً ، فهو مربع .. تماماً . وطراز تقسيماته عادي : عُرف متجاوزة ما بين صغرى وكبرى ، وما يبدو لي أنه مطبخ أو غرفة الخدم ، ودكة للسمر لا تزال أطلالها ، وهي مربعة الشكل تقريباً ، وعالية عن الأرض حتى اليوم ، وأمامها ما يشبه غرفتين ، وبجانب هاتين الغرفتين ريوه مستديرة نحيل إلى ، أنها طلل بناية لعلها تكون ملحقة بالقصر كإصطيل . أما الباب ، أي باب القصر ، على ما يترآى لي ، فهو واقع في ناحية الشمال منه ، ليكون بمنأى عن مجرى السيل الواقع في جنوب القصر . وبلغت النظر أن غرف القصر غير متساوية في المساحة .. بعضها كبير مستطيل ، وبعضها صغير مربع .. وجدار كل غرف القصر الواقعة في غريبه هو سور القصر نفسه .. وأمسأ الغرف التي بناحية الشمال والجنوب والشرق فجدرانها منفصلة تماماً عن سور القصر .. الذي لا تزال



أطلاله شاخصة للعيان بشكل واضح . وآية وجود هذا الخائط المحيط بسائر أجزاء القصر ، هي بقاء أطلاله المتراكمة المنهارة محيطة بسائر أجزاء القصر من كل ناحية . وفي ناحية ما سميت المطبخ ، بدأت أبحاث لعلي أجد بعض آثار القصر ، لأن المطبخ دائماً هو محل استهلاك الأدوات المنزلية القابلة ببقاياها للبقاء والإلقاء خارجه ، مثل القُكُل والأزيار وأواني الزجاج والفخار وما أشبه .. وفعلاً لقد عثرنا على شيء من كل هذا خارجه .. فهذه قطعة زجاجة (إسلامية) زرقاء اللون باهتة بفعل القرون .. وهذه قطعة زجاجة أخرى بيضاء من زجاج أبيض شفيف باهت بفعل مئات السنين .. وهذه الزجاجة الثالثة وقد وجدت عليها صورة نجمة إخطاها خاسية .. وهذه قطع واضحة المعالم من بقايا الأزيار والقلل الملقاة بجانب المطبخ ، وهي ما بين ملوثة وغير ملوثة .. وهذه قطع زرقاء مصبوغة بصيغ ثابت ، وربما تكون من بعض زهريات الزينة في القصر ..

وقد أخذتُ رسماً لكل من السد والقصر .. في جميع أبعادهما .. كما أخذتُ رسماً من زوايا متعددة لجبل جئاء تُضارع الذي بني كلا السد والقصر في سفحه ، على ما رواه مؤرخو المدينة المنورة . ولا يزالان مشاهدين كذلك .

وأعتقد أن قصر عاصم في تقسيماته الداخلية والخارجية ، يعطينا فكرة محددة عن طراز بناء قصور ذلك العهد ، بصفة عامة ، وعن طراز بناء قصور العتيق في عهده بصفة خاصة . ومن أجل هذه النظرية عنيت بوضع المخطط التقريبي له .

كما أعتقد أن بناء هذا السد يعطينا نموذجاً واقعياً منظوراً لبناء السدود التي تبني إذ ذلك لتحفظ أكبر كميات المطر النازل من الأعالي في أطول مدة ممكنة ، للاستعمال المنزلي ، وللاستعمال الزراعي ، معاً ، في ذلك

الظرف .. ومن أجل هذا كله رسمتُ السد في مختلف أنحاءه .. ورسمت ما حوله .. ليكون مثلاً ، شاهداً لفنسة بناء السدود في تلك الحقبة من الدهر .. ولأثرية جماء تضارع الشاخصة على العقيق من هذه الناحية عتبت برسمها أيضاً هنا ، تكملة لإطار الصورة الشاملة للقصر والسد وموقعهما .

أما وقد انتهينا من شرح ما قمنا به إزاء هذا الأثر النموذجي الذي هو « قصر عاصم بن عَمْرٍو بن عُمَرَ بن عُمَانَ بن عَفَّان » ، فلا بأس من الاستئناس بما أورده تاريخ المدينة المنورة عن هذا القصر وصاحبه .

يعرفنا التاريخ : بأن قصر عاصم هذا كان معروفاً ومشهوراً في وقته .. فقد نص السهمودي في كتابه « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » على أنه : « في قبل الجماء : (تضارع) المشرفة على قصر عروة ، وعلى وادي العقيق ، وأنه يواجه بئر عروة بن الزبير » . كما أفادنا بأن جماء تضارع التي رسمنا صورتها فيما سبق ، تسيل على قصر عاصم ، وعلى بئر عروة .. وهذا نص صريح على أن السيل الهابط من جبل جماء تضارع يسيل على قصر عاصم ، كما نراه مُشاهداً اليوم . ولربما كان ذلك بتعديل خفيف ، فهنا إلى جنوب القصر ، غَيَّرَ بعيد عنه ، الأخدودُ الذي أحدثه مرور السيل الدائم بهذا المكان القريب جداً من القصر ، كما حدثنا السهمودي بأن سيل هذه الجماء ، كما يسيل على قصر عاصم ، يسيل على بئر عروة بن الزبير .

وقد تعرض هذا القصر لهجماء بعض شعراء المدينة ونقدتهم في حياة صاحبه وبانيه . وتدلنا الأبيات التي تعاون على نظرها عبدُ الله الجعفري وعمرُ بن عبد الله بن عروة ، على أن هذا القصر كان قد بني في مكان يضايق مرور الناس ، على طرف من الطريق العام إذ ذاك ، كما تدلنا الأبيات على أن القصر كان مشرفاً وعالياً وواضحاً غير خفي للناظرين .

كما يدلنا هذا الشعر على أن صاحبه - عاصماً - لم يكن من مشاهير الأجراد ، على غناه وثروته ومكانته الاجتماعية .. وهذا مع أن القصر كان دائماً محل طهي وطبخ وشواء خاص ، وربما لم يكن يتجاوز تناولها ، صاحب القصر وعباله وصحبه الخاصين به دون سواهم ، فهو - أي عاصم - مُنطَوِي في قصره على نفسه وعباله وصديقه .. ويقدم لنا هذا الشعر نصاً مهماً حيال موضع إقامة هذا القصر .. فهو مُشَادٌّ على مكان حَزْنٍ من الحجارة ، ولم يوضع على مكان سهل لين .. كما تدلنا الأبيات على أن القصر لم يُبْنَ لِأَوَّلِ عهده بالحجارة والحص .. شأن روائع قصور العقيق .. بل بُشِيَ بِطِينٍ .. لأول وهلة ، مما يدلنا على الروح الاقتصادية المسيطرة على صاحبه .. ثم إن صاحبه اضطر ، من أجل إصلاح معاملته وتجميل منظره في أنظار المجتمع حينئذ ، إلى شراء « قصة » فَطْرَةَ بها ، وغرم في ذلك ألفي درهم .

وفيا يلي أبيات هجاء القصر أو نقده ، ونقد بانيه ، التي نظمها الشاعران : عبد الله الجعفري وعمر بن عبد الله بن عروة .. ويلاحظ أن الأخير هو حفيد عروة بن الزبير .. فلا بد أن عامل التنافس كان له أثره في بعث هذا الهجاء أو النقد التحليلي المؤثر ، لقصر عاصم ، ولعاصم نفسه . قال الشاعران :

ألا يا قصر عاصم لو تبين	فتستعدي أمير المؤمنين
فتذكر ما لقيت من البلايا	فقد لقيت حزناً بعد حين
بُنيت على طريق الناس طراً	يسبك كل ذي حسب ودين
ولم توضع على غمض فتخفى	ولم توضع على سهل ولين
يرى فيك الدخان لغير شيء	فقد سُميت خداع العيون
قييح الوجه منعقد الأواسي	حيث الخلق مطرور بطين

ويتراعى لي أن المنافسة الاجتماعية في البناء والكرم كانت شديدة وقتها ، بين أصحاب أكثر قصور العقيق عامة ، وخاصة بين صاحب قصر عاصم وأصحاب قصر عروة وبثره .. ولذلك نرى عاصماً لا يستطيع أن يكتب ألمه مما ناله من هجاء قصره المنيف أو نقده ، من مكروه سوء السمعة وغمط الحقوق ونكران المزايا .. وقد رأينا عاصماً إذن يتصدى بشعره للدفاع عن قصره بسين قصور العقيق ، فيما يتعلق باختيار موقعه بالنسبة لمواقع القصور التي كانت تُبنى في جنبات العقيق وبأعلى قِسمِ جباله ، أو على أرضه القرار ، كما فعل صاحب قصر عاصم بقصره حينما اختار لإقامته مكاناً سوياً شتوياً ، غير ذرى الجبال المرهقة لقاصد قصورها والمقيم فيها في كلا الطلوع والهبوط . وقد افتخر عاصم على معاصريه ومنافسيه في وادي العقيق بأن قصره كان شامخاً وعالياً بخلاف القصور الأخرى ، فهي إما واطئة أو قائمة على رؤوس الجبال بُعداً بها عن مواقع اقتناص مجد الكرم وبذل الضيافة السخية للوافدين والطارقين . فقصره ، لقربه من الناس في مقارهم مع سعته وعلوه هو مثابة كرمٍ وفير ، للقاصدين والوافدين ، يطعمون في أمهاته ما لذ وطاب ، ويببتون في غرفه الواسعة خير مبيت . بخلاف قصور أولئك المنافسين ، وهذا دحض عاصم ، شعراً ، ما رماه به الشعراء من البخل ، وما نقداً به قصره من سوء الموقع ...

قال عاصم يدافع عن نفسه وقصره ويمدحه ، ويبرز فضائله ومزياه :

بَنَوْا وَبَنَيْتُ وَأَخَذُوا قُصُوراً فَمَا سَاوَوْا بِذَلِكَ مَا بَنَيْتُ
بَنَيْتُ عَلَى الْفَرَارِ وَجَانِبُوهُ إِلَى رَأْسِ الشَّوَاهِقِ وَأَسْتَوَيْتُ
عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَعَلَى بِنَاهِهِمْ عَاثَوْتُ وَكَانَ مَجْدًا قَدْ حَوَيْتُ

وقد أمعن عاصم أو ابنه (زيد) في إبراز مزايا قصرهم الذاتية على ما عداه من سائر قصور العقيق في قوله :

وتلك صلاصل قد فكستهم^١ وذلك ودئهم^٢ فيها يموت^٣
فليس لعامل فيها طعام^٤ وليس لضيفهم فيها مبيت^٥

والصلاصل أرض كانت لعروة بعرة وادي بطحان ثم صارت
لابنه (بحيى) فوقها في بنيه ؛ وكان يقال لها (المقربة) . وبدلنا
بيت لأبي معروف أخي بني عمرو بن تميم على أنها كانت في واد قال :
إلى وادي صلاصل فالصلى إلى أكناف أعدق ذي وشيع^٦

هذا ولأرض صلاصل هذه مزايا في نظر عروة بن الزبير ولم تكن
لها هذه المزايا في نظر عاصم .. ولعله عامل التنافس على المجد يؤدي
إلى اختلاف وجهات النظر في مثل هذه الأمور ..

فهذا عروة يقول في صلاصل التي هجاها عاصم مؤخراً :

مآثر أنحوالي عدي وموازن^٧ تسخيرتها والله يعطي الرغائب
فمن قال فيها قيل صدق فلم يقل^٨ ومن قال فيها غيره كان كاذبا

واذن فصلاصل هذه كانت موضع مناقشة اقتصادية ذالعة ، فيما يتعلق
بمزاياها وضدها .. صاحبها عروة عدجها ويفتخر بها ويعتز ، ويرى
أنها من الذخائر ، لأنه تحيرها بنفسه ، بين الأرضين الخصبة .. وعاصم
يذمها ككل الذم ، ويرى أنها جلبت الإفلاس لأصحابها ، فسلك
(ودئهم) أي بنات نخلهم تموت فيها إما لقلة الماء أو من إسباخ
أرضها وقحولتها .

هذا وقد تكون « صلاصل » أيام اشتراها عروة بن الزبير واستصلحها
وغرس بها النخيل وغيرها ، جيدة التربة ، وفيرة الإنتاج فيما غرس فيها ،

١ « وفاء اتوقا بأخبار دار المصطفى » ، المجلد ٢ ، ص ٣٢٦ ، مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة
١٣٢٦ هـ .

ثم ساءت حالتها ، وقلت غائتها بعض الشيء ، بعد وفاة هذا الماهد ،
وفي أيام أحفاده ، بسبب بعض الإهمال ، أو لقلة المال ، فكانت على
بعض ما وصفها به عاصم في زمنه المتأخر عن زمن مُنشئها عروة بن
الزبير .

ويدلنا على أن لعاصم بعض الحق في وصفه لصلاصل عروة المغلفة
في نظره بالملوحة وقلة الفناء ، ما رواه السهودي من أن ابن أبي البديع
(وكان أعلم الناس بالتخيل) مرَّ على عروة وهو يفرس أرض الصلاصل
هذه ، ألواناً فقال له : إن كنت ولا بد غارساً فعليك بعذق ابن عامر ،
فانه ليس عذق أحسن للتره ولا أصبر على المالح منه ^١ .

١ وفاة الرقاء للسهودي ، ج ٢ ، ص ١٩٥ و ١٩٦ ، طبع مطبعة الآداب والثويد بمصر سنة
١٣٣٦ هـ .

قصر سعيد بن العاص^١

وصفه :

يقوم هذا القصر ، في وسط العرصة الصغرى من العميق ، وبشرقيه على مسافة قريبة منه بستان ، وطوله نحو ٣٦ متراً ، وعرضه نحو ٢٧ متراً ، وارتفاع أطلاله الباقية نحو ٩ أمتار ، وسكك جدرانها ٧٦ سنتيمتراً ، وطوله وعرضه المذكوران إنما هما بيضمّ الأقسام المتساقطة منه ، إليه . وبنائه بالحجارة السود المتوسطة الحجم ، وباللص ، وحجارته غير منحوتة ، ولا أثر فيها للكتابة ، وإنما توجد في بعض أروقته وأوافذه نقوش على اللص ، وزخرفة بالطوب المخصص ، وقد عبّثت البدو بناحيته الجنوبية الشرقية . إذ استحدثوا بها بناءً مسقفاً لإيواء أنعامهم . وقصر سعيد بن العاص مطلي باللص ، من داخله وخارجه . ولثلاثة بنائه وارتفاعه عن المسيل ، وتخصيصه بالصفة المذكورة تأثير كبير في بقاء أطلاله واقفة شامخة إلى هذا اليوم برغم اندثار ما بالعميق من سائر القصور .

١ أبقى هذا القصر كما هو في الجنوب الشرقي بدخل سور القصر الملكي الذي أصبح فيما بعد ، دار الضيافة الملكية بالمدينة المنورة كما أشرنا إليه فيما مضى .

وفي جنوب القصر مسطبة (دكة) متداعية ، لعلها كانت معدة
للمجلوس والسمر ، في ليالي القمر ، والعشيات والبكر .



طَلَّلُ قَصْر سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

وبحفرية منه جنوباً وشمالاً ، تُرَى سلسلةُ أكوام ، يعلوها رمل
الوادي الأحمر ، وهي آثارُ دورٍ ، قد تكونُ الدَّوْرَ المسماةَ بالفرائز
التي كانت لبني سعيد ، على ما رواه صاحب الأغاني .

نبذة من تاريخه :

جاء في «وفاء الوفا» : «ابنُ سعيد بالعرصة قصرأ في سُرْتِهَا»
وفيه : «أن القصر بالعرصة الصغرى» . وفي «مرآة الحرمين» إيضاح
لموقع هذه العرصة إذ ورد فيها ما تلخيصه : «القسم المقارب للمدينة

من العقيق الغربي يُسمى العقيق الكبير ، وفيه بشر عروة . والقسم
الشمالي يسمى العقيق الصغير ، وفيه بشر رومة . وهذا العقيق الصغير
عرصتان : كبرى ، وهي التي نلي بشر رومة ، وصغرى تقع جنوبي
الكبرى .

وسعيدٌ بالي هذا القصر هو أحد أمراء المدينة في خلافة معاوية رضي
الله عنه ، وهو من مشاهير أجواد بني أمية ، وقد كان معجباً بقصره
هذا ، كل الإعجاب ، ولذا خصصه للتتره والاستجمام ، مما يدلنا
على مبلغ عنايته بتشيدته وتأنيقه وربما وتأثيته .

قال البتوني في رحلته : وكان هذا القصر في أيام صاحبه آية في
جماله وفخامته ، بل كان آية من آيات القرن الاول الهجري ، وأعجوبة
من أعاجيبه ، حتى فضله الشاعر على أبواب جيرون : (دمشق) التي
كانت في ذلك العهد عاصمة الخلافة ومكان فخامتها وأبهتها . اهـ

والشاعرُ الذي يشير اليه البتوني هو أبو قطيفة إذ يقول :

القصر فالنخل فالحماء بينهما أشهى إلى النفس من أبواب جيرون

قصر إمارة المدينة المنورة

في الجنوب الشرقي من مسجد قباء ، وبعد حديقة (الصَوَيْبِيَّيَّي) وفُوَيْقَ بستان (ابن مُسَلِّم) تجم أطلال بناء ضخيم قائم اللون ، وهو عبارة عن أروقة ضخمة تنتهي إلى بروج في أركانه ، وتقع في وسطها رحبة .. هذا البناء الضخم مجهول الهوية لديّ قبلاً ، وقد بحثتُ عن حقيقته كثيراً فأخذتُ عن أحد المُعَمَّرِينَ : (حمزة خليل ، رحمه الله ، إمام مسجد قباء ، المتوفى قبل نحو ٣٧ سنة) .. أخذتُ عن هذا المعمر المدني ، أنه - وهو صغير - أدرك صاحب هذا الحصن ويعرفه ، فإنه « ابن مضيان » أمير المدينة في عهد آل سعود الأوّل . وهذا الحصن أو القصر يقع في طرف حرة قباء متصلاً من ناحية الشمال بالبيساتين ، وهو يشرف عليها لارتفاع مستوى عمارته عنها قليلاً .. وتحيط به الحرة من ثلاث جهات ^١ .

١ يستأنس لهذه الرواية عن هذا المعمر الذي أدركناه به ورد في كتاب : « عنوان المسجد في تاريخ نجد » لعثمان بن بشر ، حيث ورد فيه ، ص ١٣٥ ، طبع المطبعة السلفية بمكة المكرمة سنة ١٣٤٩ هـ ما نصه :

« رقي أول هذه السنة قبل مبايعة غائب ، بايع أهل المدينة المنورة على دين الله ورسوله وأسمع والطاعة ، وهدمت جميع القباب التي وضعت فيها على القبور والمشاهد ، وذلك أن آل مضيان »

— رؤساء حرب وهما يادي وبداي أينا يدوي بن مضيان ، ومن تبعهم من عربانهم ، أحبوا المسلمين ووفدوا على عبد العزيز وبايعوه ، وأرسل معهم عثمان بن عبد المحسن أبا حسين ، يعلمهم قرائن الدين ويقررو لهم التوحيد . فأجمعوا على حرب المدينة ونزلوا عواليها ، ثم أمرهم عبد العزيز ببناء قصر فيها ، فبنوه وأحكموه واستوطنوه ، وتبعهم أهل قباة ومن حولهم ، وضيقوا على أهل المدينة ، وقطعوا عنهم السوايل ، وأقاموا على ذلك سنين ، وأرسل إليهم سعود ، وهو في موضعهم ذلك ، الشيخ العالم قرناس بن عبد الرحمن صاحب بلد الرس المعروف بالقصير ، فأقام عندهم قاضياً معلماً ، كل سنة يأتي إليهم في موضعهم ذلك ، فلما طال إحصار أهل المدينة ، وقمت المكتاتبات بينهم وبين سعود ، من حسن قلبي وأحمد الثمار ، والأعيان والنفساء ، وبايعوا في هذه السنة ، سنة ١٢٢٠ هـ .

وأقول تعقيباً : « أنه ربما يكون حمزة خليلي رحمه الله ، أدرك ، وهو صغير ، من أهل المدينة المنورة من أدركوا عهد إمارة ابن مضيان وكانوا يتنقلون في مجالسهم الخاصة والعامة حوادث ذلك الظرف الذي ضيق عليهم فيه ، رطبة وجديدة بالنسبة إليه ، فعزا ذلك إلى مشاهداته تجوزاً أو مجازاً أو تأكيداً من مسوعاته واعتبارها ضمن مشاهداته والله أعلم .

وادي رانواناء

هَضَابٌ يَهْدَا السَّدَّ بِالصَّنْدِ كُلِّهَا
عَلَى كُلِّ وادِيهَا جِنَانٌ مِّنَ الْأَرْضِ
وَإِنَّ الْغُرَانِي لَا يَزَلْنَ يَرُدُّنَّهُ
وَكَوَلَّ فَتَى سَمَّحٍ سَجِيئَهُ غَضَبٌ

عُثِرَ عَلَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ مَسْفُورَيْنِ - بِحُطِّ قَدِيمٍ - فِي صَخْرَةٍ عَظِيمَةٍ جَدًّا ، بِقَرَبِ السَّدِّ الَّتِي بَوَادِي رَانَوَانَاءَ ، عَلَى يَسَارِ الْمَذَاهِبِ إِلَيْهِمَا مِنْ قُبَاءٍ .. وَقَدْ وَقَفْتُ مَعَ بَعْضِ الْإِخْوَانِ أَمَامَ تِلْكَ الصَّخْرَةِ تَحْتَ شُعَاعِ الشَّمْسِ الْمَحْرُوقِ ، زَهَاءَ نِصْفِ سَاعَةٍ ، مُنْجَاوِلُ قِرَاءَةِ هَذَا الْخُطِّ الْعَتِيقِ . وَبَعْدَ اللَّتْيَا وَالَّتِي وَفَّقْتُهُ إِلَى قِرَاءَتِهَا بِالصَّوْتِ الْمَرْقُومَةِ أَعْلَى . وَلَا أَزَالُ أَلَاحِظُ اضْطِرَابًا لَفْظِيًّا وَمَعْنَوِيًّا فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ .

وَأَسْلُوبِهَا الْفَخْمِ يَتِيمٍ عَنِ كَوْنِهَا مِمَّا قَبْلَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ .

وإننا لنشكر لهذا الشاعر ما قام به من تسجيل هذا الصك الشعري التاريخي الخافل بذكريات رائعة عن دور ناصر من أدوار واقع هذا الوادي القاحل اليوم .. ضرباً عنه المؤرخون صفحاً ، وأعرضوا عنه إعرافاً كلياً .

وهكذا نرى بعض الشعراء في بعض الأحيان يقومون بدور المؤرخين ولكن يمثل هذا الأسلوب الشعري الإجمالي الأخاذ .

يريدُ الشاعر أن يُصَلِّعَنَا - نحن الأجيال القادمة - بالنسبة لزمته - على أن هذا الوادي لم يكن كما نراه اليوم ، أُجْرَدَ قاحلاً ، بل لقد كان في عصره زاهراً وزاخراً بالرياض الغناء ، ومرتماً للظباء الأوائس ، ومسرحاً للفتيان الأجواد ، يقصده النوعان ، بكرة وعشياً . للتنزه في مروج الخضراء ، والتمتع بحاله الجذاب .

ويخيلُ لنا أن الشاعر لما ارتسم في ذهنه الصافي ، مجالُ منظر الوادي ومن فيه أبتُ قريحته الحصية إلا أن تجود بالبيتين المذكورين ، وأبى سمو مداركه إلا أن ينقشهما بيده على هذه الصخرة المساء ، وقلنا : إن ناظدهما هو راقمهها ، استنتاجاً من وجود اسم تحتها ، ولرداءة خطهما ، كخط أغلب الشعراء البارعين .

• • •

آثار الوادي : السد - الكتابات :

قولنا (السد) بلفظ المفرد ، لا نخلو من مجاز ، وإلا فالحقيقة أنها سدودٌ ثلاثة محكمة البناء متقاربة ، وأكبرها الجنوبي الذي يلي مصادر السيل ، ويليه في الضخامة الثاني فالثالث .

وحجارة بناء السدود الثلاثة متلاصقة بدون حشو بينها .

والحِكْمَةُ في جعل السد الجنوبي ، أضخم ، تقويته لِيَتَلَقَّى تيار السيل الذي يصادمه لأول وهلة ، فإذا امتلأت السدود بحري السيل في الصفائف إلى أن ينزل إلى العصبة .. وهناك مجراه ظاهر .

• • •

هذا وقد عثرنا على كتابات شتى في صخور الهضبة التي تلي السد في
غربيه . وأهم ما فيها كتابة هذا نصها :

« جدد هذا السد بإرادة الملك المظفر السلطان عبد العزيز خان سعادتلو
شيخ الحرم خالد باشا بنظارة الفاضل محمد صالح حماد سنة ١٢٨٩ هـ
بالمدينة المنورة . . عمر ازميري غفر الله له آمين » ا هـ .

وهذه الكتابة تدل على أنه كان في موضع هذا السد ، سدّ آخر ،
لأن التجديد لا يكون إلا للموجود ، ولعلّ السدّ المُجدّد بهذا هو سد
عبد الله بن عمرو بن عمر^١ بن عثمان الذي جاء في « وفاء الوفا » أنه
يصبّ فيه سيل رانواناء :

وتوجد كتابات كثيرة في صخور هذا الوادي ، ويمصبه إلى العصبه .
أما مصدر سَيْلِهِ فهو مقمة أو مقمن (جبلٌ جنوبيّ عَيْثِر) ،
ومن هذا الجبل يفيض على قترين صريحة ، فالسدّ الموصوف ،
فالعرصة بعده ، فالصفاصف ، فالصخور ، فأرض العصبه ، ثم
يسير حتى يعترض طريق قباء الحديث حيث عمل له هناك مجرى فوقه
جسر ، ثم يختلط بوادي بطنحان ، ويدخلان المدينة معاً تحت باب
قباء في شرقية .

وادي رانواناء في الضاحية الجنوبية الغربية للمدينة . والسد الذي به
يبعد عن بطن المدينة بنحو خمسة كيلومترات ، وطريقه منها :

باب قباء - طريق قباء - انحرافاً إلى الجنوب الغربي - الطريق
غربي بستان العصبه - الحرة - الصخور - الصفاصف - العرصة -
السدّ أو السدود .

١ عبد الله بن عمرو بن عمر بن عثمان هذا هو أخو عاصم بن عمرو بن عمر بن عثمان بن هفان صاحب
القصر المعروف بقصر عاصم الذي تحدثنا عنه في فصل خاص .

جبل سلع والآثار به

جبل عظيم شامخ في شمالي المدينة ، وقد اتصل به العمران حالياً وتجاوزه . وحجارة هذا الجبل سودٌ بوجه الإجمال ، تَمَتَّتْ من ضغطها باليد ، ويقال إنها تحتوي على مادة الإسمنت ، ولكن لم يتحقق هذا بتجربة علمية بعد . وفي شرقيه « دكة جلال » مهدها شخص يدعى بهذا الاسم في عهد الدولة العثمانية ، وفي سفحه الغربي كهف بني حرام الذي كان به مبيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبشمال هذا الكهف في سفح الجبل أيضاً مسجد الفتح .

وفي علو سفح جبل سلع الجنوبي كتابة كوفية أثرية قديمة منقورة في الصخر ، نصّها على ما رواه صاحب مرآة الحرمين : (أسمى وأصبح عمر وأبو بكر يشكوان إلى الله من كل ما يكره) . (يقبل الله عمر . الله يعامل عمر بالمغفرة) . وهي في أماكن متفرقة وقد أثبت البحث الأثري أنها قديمة ، ويخط هذين الصحابين الجليلين^١ .

١ انظر مرآة الحرمين لابراهيم رفعت .

جبل سُلَيْع

هو الجبل الصغير الذي يقع بجنوبي جبل سُلَيْع ، وفيه كانت بيوت نبي أسلم من المهاجرين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفوقه اليوم أحد أبراج قلعة الباب الشامي ، وكان عليه في القرن التاسع الهجري حصن أمير المدينة من الأشراف ، بناه الأمير ابن شيخة أحدهم في القرن السابع الهجري ليتحصن به وليكشف منه ضواحي المدينة ، ويقول جعفر برزنجي في «نزهة الناظرين» : إن هذا الحصن هو القلعة المعروفة عند باب السور المعروف بالباب الشامي وفي تاريخ المدينة للعباسي ما يفيد أن القلعة المذكورة هي في مسكان الحصن ، وأنها من منشآت الدولة العثمانية .

ويفصل بين سُلَيْع وهضبة بشاله ، طريق يؤدي إلى المجزرة وسُلَيْع . وهذا الطريق هو المعروف قديماً بثنية عثث .

الجبل المتوهج

كانت هويتي الأولى منذ صدر شبابي ، التنقيب عن الآثار .. ومعرفة أخبارها وتطوراتها : وساعدني على ذلك كثرة الآثار بالمدينة المنورة .. سواء ما كان منها جاهلياً عربياً في الجاهلية ، أم قريباً من الإسلام ، أم ما كان إسلامياً في صدر الإسلام ، وبعد ذلك .. وكانت أولى خطواتي في هذا الميدان قراءة الكتب التي تبحث عن آثار المدينة في القديم ، مثل كتاب «وفاء الوفا» للمسمودي ، وكتاب المطري والمرازي وغيرهم من قدامى العلماء الإسلاميين الذين عنوا بعناية خاصة بآثار المدينة المنورة في عهودهم المتتابعة .

ثم كانت الخطوة الثانية الاستقراء العملي ، والدراسة الواقعية ، لما كتبوا عنه ، فكنت لذلك أنجشم مشاق الوصول إلى كل ضاحية وناحية تحدث عنها أولئك المؤلفون ، مشياً على الأقدام ، في أغلب الأحيان ، وركوباً على الحمير ، في بعض الأحيان .. إذا كانت المسافة نائية أو الطريق وعرة ، لا يمكنني المشي على الأقدام من الوصول إلى ما أبتغي الوصول إليه منها .

والمدينة ذات طقسين متباينين : أحدهما حار لافح ، ويمثل أغلب نصف العام ، وهو فصل الصيف والحَرور ، وثانيهما بارد

قارس ، شديد البرودة إلى حد نزول الثلج في بعض الفصول . وهذا الفصل هو فصل الشتاء . ولكن الهمة الطمّوح المنبثقة من جوانحي حينئذ لتتحقيق هذه المهمة ، كانت لا تدع لي مجالاً للتفكير عن تحقيقها ، سواء أكان الزمن شتاء قارساً أم صيفاً لافحاً .. فكُنْتُ تراني أنجول في شوارع المدينة ، يستوقفني مثلاً « حَجَرُ مِسْنٍ » مثبت على باب عتيق ، أو دارٌ متهدمة عتيقة ، أو مسجدٌ قديم .. وكنت تراني أنجول في ضواحي المدينة ، مُحَقِّقاً مجرى واد مجھول الآن ، ذكرته قدامى المؤرخين ، أو باحثاً عن منازلٍ لقوم من الأنصار في إحدى تلك الضواحي ، أوردَ ذكرَها المؤلفون الأولون .. وكنت تراني في بعض الأحيان أنجاوز كل هذا وذاك ، مستطعاً متقباً عن آثار لم يحدثنا عنها المؤلفون ، كانت تستوقفني عَرَضاً أثناء تجولاني ، فأقف مصراً ، على حلِّ طلاسم رموزها .. أقف نارة في صيھود الجو الملتهب ، وتارة في زهريير الشتاء .. وكثيراً ما وُفِّقْتُ إلى حل طلاسم من الخط العتيق ، بالمقارنة والبحث والتأمل .. مثال ذلك أنه يوجد بقرب السد الواقع جنوبي غرب المدينة المنورة ، رقعة بيضاء فيحة من الأرض تحيط بها الجبال من كل ناحية ، وبأحد تلك الجبال صخرة ضخمة ملساء ، استرعى انتباهي إليها وجود نقوشٍ عتيقةٍ مضطربةٍ عليها .. فوقفت أمامها نحت أشعة الشمس الملتهبة ، زهاء ساعتين ، حتى اهتديت إلى حل هذا الطلسم من الخط العربي البدائي المنحوت على الصخرة الضخمة الملساء .. ويا عَجَبَ ما قرأتُ وحللتُ .. فقد دلني ذلك على أن هذه المنطقة المرءاء القاحلة ، كانت في عصر من العصور القديمة رياضاً غناء ، ومنازلَ أنيقةً ، ومرتاداً للشبان في تزھمهم وروحانهم وغدوانهم .. ذلك ما عبّر عنه البيتان المنقوشان بالمسار على تلك الصخرة الملساء الضخمة التي تمثل جانباً من جوانب الحبل المتقورين فيه كما سبق ذكره بإيجاز .

يقول أحد البيتين عن ذلك الوادي :

وإنّ الغواني لا يزلن يَرُدُّنَهُ

وكلّ فتى سَمِعَ سَجِيتهُ غَضَّ

• • •

هنا وقد دفعني حب الاستطلاع في يوم من أيام الصيف المنتهية ، إلى أن أمتطي حماراً ، من المدينة المنورة¹ ، وأتوجه إلى طريق (الجِصَّة) . وطريق الجِصَّة اصطلاح لاهل المدينة يعنون به ذلك الطريق الأثري الذي سلكه النبي صلى الله عليه وسلم ، في هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة .. وقلت في نفسي : لا بد لي من استكشاف أواخر هذا الطريق بنفسي ، ورؤية معالمه ، لأنه أثر من الآثار التاريخية المهمة .. 'بِمَثَلِ' نقطة تحول عظيمة في تاريخ الحياة البشرية .

ومضيتُ على حماري بعد أن وضعتُ فوقه 'مُخْرَجِيْنِ' للزّاد والماء ، في هذه الرحلة الاستكشافية ، وحملت عصاً صغيرة من نوع الخيزران ، أسوق بها الحمار إذا ما جمح ، أو تبلد عن السير . ومضيتُ متجهاً صوب جنوب المدينة .. لقد مررت على قباء ، وأخذت الطريق إلى جانبها الأيمن ، في اتجاه جنوبي غربي ، وتركتُ بجانب حديقة « الرفيعة » ومن ورائها شاهدتُ (أطم الضحيان) .. ذلك الأطم الأسود الهائل القائم على ذراع الحرة الغربية .. وهو الأطم الوحيد الباقي من أظام الأنصار في عصر الجاهلية ، وكان أحيحة بن الخلاح أحد زعماء المدينة من الأوس قد بناه في عهد الجاهلية بالحجارة البيض الصغار فلما رآه 'عُرْضَةً' لتهدم ، أمر بتقصه وبناء بالحجارة السود الضخام ،

1 لم تكن السيارات يومئذ بهذه الكثرة الموجودة اليوم .

وما يزال ماثلاً للعيان إلى اليوم ، أثراً خالداً من آثار العرب القدامى
في فنّ البناء ..

وبدأت أتوغل في الحرة ، ورأيت أمامي خطأً دقيقاً باهتاً أكل
الدهر عليه وشرب ، من خطوط الطرق القديمة .. فهل هذا الخط
الدقيق المتفاني يمثل طريق الحصّة الأثري .. وتبعته ومضيت لا أنوي
على شيء .. هذا جبل «عَبْر» حدّ المدينة المنورة الغربي الجنوبي ..
وتكاثرت الجبيلات عن يميني وعن شمالي ، وبدأ حجري يتعثر .. إذ
كانت الطريق وعرة مهجورة ، والحجارة بها متوافرة .. وقد نفعت
العصا ، فصرت أزجر الحمار بها زجراً هيناً خفيفاً وأوجهه بها توجيهها
غير صارم .

ها أنذا الآن قد توغلت في الجبال ، وقد مضت ثلاث ساعات على
خروحي من المدينة المنورة .. وها أنذا أمضي قُدماً .. ما الذي أريده
الآن ؟ ما الذي أسعى إليه ؟ لا أدري ! إلا أنني أزمعت المضي قُدماً
لأبتي هاتفاً عميقاً في نفسي ، لا يريد لي العودة رغم طول ابتعادنا عن
نقطة قيامنا .. لعل أكل ما أريده استكشاف اللامسات الأنخيرة الدانية من
طيبة في طريق هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق .

ومضيتُ .. وتطامنت الجبال وصغرت .. وقنلتُ وصات هضبات
وتلالاً غير سامقة .. فسجلتُ هذا الاختلاف الطبّعي في مذكرتي .

وها نحن أولاء الآن قد مضت علينا أربع ساعات في السير ، وقد
ارتفعت الشمس فوق رأسي حين توسطت كبد السماء . وكنت قد
استعددتُ هنا ، بمظلة تقيني لحر اللافح . ففتحتُها فوق رأسي ،
ومضيتُ .. وقد رأيت إلى الأمام عن يساري جبلاً واطناً ، بلوح لي
من بعيد .. مشرفاً متوهجاً أبيض وضاهاً ، على عكس جميع الجبال
والجبيلات التي مررتُ بها وكانت كلها سوداً ، وداكنة : ونحاسية

الألوان .. أما هذا الجبل الذي أقترَبُ منه رويداً رويداً ، والذي يقع إلى اليسار من طريقي ، فهو أبيض متوهج ، يشبه الأضواء الساطعة في الليل الدامس ، والشمس المشرقة في فجوات الضباب ، والألماس المتألُّي بين الحجارة السود .. ألا يكون إذن جِبَلِ الألماس ؟ لنُدع الخيال يسرح ويمرح .. فلنني مُقَدِّمٌ على الجبل ، وعمّا قليل سأكون عنده ..

بلغت الجبل الساطع .. فما خائني البصر ، وعند سفحه نزلت من على متن الحمار ، وقيدته حتى لا يتحرّر مني في هذا البقع الموحش المخيف .. وأخذت عصاي بيميني ، وتقدمت للصعود إلى الجبل ، فإذا حيوان أخضر ناضر الاخضرار ، أكبر قليلاً من القِطْ وأصغر من الكلب ، يقف لي فوق سفحه بالمرصاد ، فأخذت حجراً مسن الحجارة الكثيرة - وكنت رَمَاءً بالحجارة - وألّيت بالحجر على هذا الحيوان الأخضر الناضر الاخضرار ، الذي لم أر له مثيلاً من قبل ، سوى الخرباء الصغيرة التي تتلون بلون ما تقف عليه ، فيخضر لونها إذا كانت على عُصْن أخضر .. وبمجرد أن وقع الحجر قريباً منه وثب عليه ، ففضه ، وسرعان ما أتبعته الحجر بحجر آخر مثله ، في رمية أقوى من الأولى وأعنف ، فلما استهدفه الحجر وكاد يصيبه وتب بعيداً عنه ، وما إن هبط على الأرض حتى وثب عليه فضه . عندها آثرت المهادنة ... فقد يكون هذا الحيوان ساماً وخطيراً ، وقد يكون مفترساً عارماً ، وقد يكون ... الخالصة أنني آثرت بعدها طريق المسالمة فانجيت نصيباً عن طريقه .. ومضيت في ترقب وحذر : إلى الجانب الآخر من الجبل .

وبألهشي : فقد لاحظت عندئذ أن الجبل كله فصوص ذات بريق مشرق .. وعدت إلى حيازي المقيد . فأخذت الحرجين . ووضعت

فيهما كمية لا بأس بها من الفصوص ذات الريق الخاطف ، ثم عدت إلى الجبل ثانية فاسترعت نظري هذه القُبُيَّات الواطئة المنتشرة كالبيثور على سطحه المتكور من كل ناحية .. إنها قُبُيَّاتٌ من حجارة الجبل نفسه ، ولكنها الحجارة السودُ الكبيرة والمتوسطة .. فقد ظهر لي أن الجبل ذو ثلاث طبقات .. طبقة الفصوص المترهجة ذات الريق الخاطف وهي العليا البارزة للعيان .. وطبقة الحجارة الكبيرة والمتوسطة وهي سوداء اللون ، وتحت الطبقة السالفة طبقة الصخور الكبرى التي تمثل كيان الجبل الداخلي ، وهي سوداء وصفراء باهتة اللون يتخللها تراب وطين أحمر .

وقفتُ عند قُبُيَّةٍ من هذه القبيبات الواطئة المنبثة على الجبل الغريب ، ومن باب الاستكشاف ، أقدمتُ على محاولة رفع حجر من حجارة إحداها .. وبجهد تمكنتُ من رفع الحجر ، ونظرت إلى داخل القُبُيَّةِ ، عن طريق الثغرة التي أحدثتها برفعي الحجر .. فبهرتني ما شاهدتُ ... لقد شاهدتُ داخل القُبُيَّةِ هياكل بشرية مُمَدَّة .. ثلاثة وأربعة وخمسة في كل قُبُيَّةٍ ، ولكن هذه الهياكل البشرية العظيمة الضخمة ، مجردة عن اللحم تجريداً تاماً .. وهي أضخم بكثير من الحالية .. في الحمجمة والأذرع والسيقان والأقدام وفي كل شيء .. وذهبت إلى قُبُيَّةٍ أخرى ففتحتها أيضاً بعد جهد ، فإذا بالمنظر نفسه يتكرر ... عندها علمت أن هذه مقبرة مجهولة ، عريقة في القدم .. والشيء الذي حَزَّ في نفسي هو أنني أدركت من وقتها أن هذه المقبرة لا بد أن تكون جبانةً لمدينة قريبة منها .. وكم رددت لو تمكنتي المقادير من استكشاف موقع المدينة القريبة من هذه الجبانة ؟ .. ولكن الشمس بدأت تميل إلى الغروب ، وخشيتُ البقاء وحدي في هذا القفر الموحش ، خصوصاً بعد أن كاد الماء ينفد من الركوة المعلقة على الحمار . وسرعان ما عدت لأمتطي حماري ، وأرجع أدراجي إلى المدينة

من الطريق التي أتيتُ منها ، فوصلت إليها والشمس قد آذنت بالمغيب ، وقد سقطت وراء الأفق البعيد .

إنها رحلة شاقّة ولكنها ممتعة .. أما ما التقطته من الفصوص فقد بقي لديّ فترة من الزمن ، ثم رأيتُ عرضها في سوق سوقة بالمدينة .. وبالفعل عرضتها ، وفهمت أنها ليست بألماس كما توهمت ، وإنما هي من هذه الحجارة المعروفة في المدينة « بحجر المدينة » .. وهي تستعمل أيضاً فصوصاً للخواتم كالألماس تماماً .. ولكنها ضئيلة القيمة .. قيمتها يومذاك أشبه بقيمة الألماس الصناعي اليوم .. لقد بعثُ كل ما جمعتُه يومئذ منها بخمسين ريالاً فقط .. وكان الذي اشتراها مني بالجملة أحد الباعة بالمدينة في سوقة وقال لي : إنه سينحتها وينظمها ويعمل منها فصوصاً براقّة كالألماس لبيعها للزوار في موسم الحج القادم .. هكذا آل مصير الفصوص التي ظننتها ألماساً ، وهكذا تبخّر حلمي بالألماس .. وذلك كان آخر عهدي بالحبل المتوهج .

جبل عار *

عار : كما هو معروف اليوم ، هو سلسلة هضبات متصلة بعضها برباق بعض ، تبعد عن المدينة جنوباً بنحو ١٩ ساعة ، بسير القوافل الحجازية ، وبنحو نصف ساعة بسير السيارات في الوقت الحاضر ، وهذه السلسلة من الهضبات المشمخة تخترقها الطريق الذي يوصل بين مكة والمدينة . وتظن قبيلة (الرحلة) الحربية في هذه المنطقة الآن . ويحدثنا التاريخ بأنها كانت من منازل قبيلة مزينة . وتنتهي هذه السلسلة غرباً إلى وادي الفريش^١ ، وشرقاً إلى مفرق الطرق المعروف

(٥) نشر هذا البحث في المحرم ١٤٥٦ هـ - مارس ١٩٣٧ م ، بالعدد الثاني من مجلة « المنهل » ، وكانت هذه الرحلة القصيرة مع بعض الأصدقاء ، فقد قمنا من المدينة المنورة بعد صلاة الشاء بمطين سيارة كبيرة ، ووصلنا في الليلة نفسها إلى محطة الفريش وبدأنا بها وفي الصباح أجمعنا أمرنا وتوجهنا صوب جبل عار وتجوّلنا فيه مدة حتى حمي وطيس الشمس فعدنا إلى المحطة .

١ وفي « وفاء الوفاء » ما نصه : « فرش ملل ، والفريش مصغره معروفان قرب ملل ، يفصل بينهما بطن واد يقال له مشركان بهما منازل وعشائر ، وكان كثير بن الدياس (الشاعر الحجازي المعروف) مقيماً في هذا الوادي » . وعلى هذا فالفرش هو الوادي الذي يقع بعد عار جنوباً ، المعروف الآن بالعاصد ، ومشرك هو هذا الوادي الواقع في هذه الهضبات المعروف بمجموعها اليوم بجبل عار . وهذه الهضبات كان منزل شاعرنا ، مع محبوبته إذ يقول (معجم البلدان ، ص ١٥٣ المجلد السادس) :

سقياً لعة خلة سقياً لها إذ نحن بالهضبات من أملا

قال ابن السكيت : « أملا » هي ما يدعى اليوم جبل عار ذو الهواء النقي وانتلاع الأنوار والشعاب الحصية الجميلة .

اليوم بالعاصد . والاحمرار هو اللون الغالب على هذه الهضبات . .
 ويدخلها في الجانب الشمالي من الطريق فتحة واسعة في وسطها مهراس^١
 عميق ، وجدناه مملوفاً بالمياه المنحدرة إليه من أعالي الجبل . ويستقي
 منه البادية هناك^٢ . وبشرق المهراس قاعٌ أبيض ، فيه منازل مبنية
 بالحجر والطين ، بناية في غاية البساطة ، ولا يزال من فيها يدعونها
 بالحيام . ويجنوبه وشرقه صخور أثرية منقورة بالمسار على طريقة العرب
 الأولين ، وهي بالخط الكوفي القديم ، وقد ذهلت عن المهراس ومائه
 العذب النسر على رغم اشتداد الظلماء بي ، بسبب عثوري على هذه
 الآثار التاريخية في هذه القطعة المتروية عن الأنظار . وتملكني الدهشة
 من روعة هذا الخط المنقور منذ مئات السنين على هذه الصخور ،
 وعجبت من ضخامة حروفه وانتظام تركيبه وخلوده واحتماله لعوادي
 الأيام ، وتقنيات الأجواء ، وقسوة الحر والبرد ، فلكلِّه أيدي نقشته ،
 والله أناملُ رَسَمَتْهُ .

وقفتُ مع بعض الإخوان برُهْمَةً ، أمام كل واحدة من هذه
 الصخور ، أحاول قراءة ما احتوته من هذه الخطوط المتداخلة المشتكبة
 المهملة من التثقيط ، وبعد تدقيق عميق وامعان شديد ومقارنة دقيقة ،
 استطعت أن أقرأ منها ما يلي :

- (اللهم ثبت عبد العزيز بن المعتز بن عمر بن عبد)
 (اللهم أعتق محمد بن عبد بن عبد الرحمن برحمتك ولا ...)
 (اللهم صل على محمد النبي عبدك ورسولك و سعيد بن عمر
 وموسى الله الخنة) .

١ المهراس : هو التفرة في الجبل ، تجتمع فيها المياه .

٢ لعله ماء العشيرة الذي يقول فيه كثير عزة :

أعزناً على ماء العشيرة راغوى على ملل يا لطف نفسي على ملل

(انا عبد الله بن سعد المرتضى)

(لا اله إلا الله وحده)

(اللهم صلي على محمد النبي عبدك ورسولك)

(الله لم يلد ولم يولد شهد الله وملائكته أن الله لا إله إلا هو العزيز الحميد) .

(وعلى ذلك شهد يوسف ومحمد في خمس وثمانين وخمسةائة)^١ .

وهناك كتابات أخرى كثيرة ، بدأ بعضها في الانقيااس بسبب الأمطار والمؤثرات الطَّبَعِيَّة ، والبعض لا يزال ظاهراً ،

وتشابه أشكال هذه الخطوط ، واتفاق كتابتها على عدم تنقيطها ، واختلافها في دقة الرسم وجمال الحروف كل ذلك يجعلنا نرى أنها كُتِبَتْ في القرون الإسلامية الأولى ، وأحدنا عهداً بينها ما كُتِبَ في عام ٥٨٥ هـ لأنه أجملها وأظهرها جيدةً ورونقاً .

أما ما نستنتجه من هذه الخطوط فهو أمران :

الأول : اشتهار هذا المهراس في تلك العصور بسبب عمران هذا الجبل بالقُطَّان والرَّواد والمتزهين^٢ .

الثاني : عناية الناس بهذه الصَّخَرَات العظيمة الملساء المصقولة ، بنقش أسماهم ودعواتهم لأنفسهم ، وصلواتهم على النبي صلى الله عليه وسلم ، عليها .. ومن هذا يُفهم أنها مأثورة في أنظارهم . ولا تزال

١ من الملاحظ هنا أن هذه الخطوط العربية الأثرية مع قدمها - إذ هي أو بعضها منتقور على الصخر في القرن الحجري السادس - هي أحدث عهداً من النقوش التي نقرت على صخور الصويرة كما سيأتي في الفصل التالي لهذا الفصل .

٢ كما سبق فإن هذا الجبل كان منزل كبير الشاعر وحبيبه عزة ، وقد كان عامراً ، وهو أمر يدل على أنه كان مسموراً بالسكان ومرافق الحياة الملائمة .

نرى كثيراً من المسلمين إلى يوم الناس هذا يكتبون نحواً مما ذكر على جدران المساجد الماثورة والأماكن المقدسة .

لقد نَقَبْتُ في الأسمار التاريخية ، عليها تعرض ، ولو بإشارة عابرة ، لذكر هذا المكان وهذه الصخور ، وهذه النقوش ، فما عثرت إلا على قول ياقوت الحموي في معجمه (م ٦ ، ص ٢٦١) : « الفرش واد بين غميس الحمام ومكَل . وفرشٌ وصُخْبِرَاتُ التمام كلها منازل نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار إلى بدره اه . ففعل هذه الصخيرات هي صخيرات التمام التي أشار إليها ياقوت ، بالنظر لما سبقت إليه الإشارة آنفاً . وقد يكون التصغير للتعظيم .

وليس هذا الغموض الملاحظ في حقيقة هذا الموقع بمقصود عليه وحده ، فهذا شأن أغلب الأماكن الماثورة في الجزيرة العربية عامة ، والأماكن التي يحلها البادية منها خاصة ، لا يَسْتَحْتَقِلُ المؤرخون بتحديدتها تحديداً علمياً يحفظ كيانها من الجهالة في العصور التي تلي عصورهم ؛ فَصُورٌ ملموس في تاريخ الجزيرة العربية يجب أن نسمى سعيًا حينئذٍ لتلافيه ، وثلمةٌ واسعة في حضارة الجزيرة الإسلامية ، يجب أن نعمل على سدها . ويلوح لنا أن للمؤرخين الأقدمين بعض العذر في عدم تحقيقهم لهذه الآثار المنتشرة في جبال الحجاز وأوديته : فاختلال الأمن ، واضطراب جبل الطمانينة ، اللذان كانا يسودان أماكن الآثار لقد وَضَعَا عراقيل قوية في سبيل الباحثين والمثقفين والرحالين والعلماء والأدباء ، يضاف إلى ذلك جهلُ سكان هذه البقاع من البادية وعدم اتصالهم بأهل العلم ، ونفورهم من هذا الاتصال بهم في كل عصر ومصر . أما وقد زالت العقبة الأولى - وهي كبرى العقبات - بفضل شمول الأمن في هذا العهد ، فلإني أرى حيناً أن تُؤَلَّفَ (بَعَثَاتٌ أثرية) من أساتذة المدارس ، حكومية وأهلية ، شهراً من كل عام ،

وتكون هذه البعثات تحت إشراف مديرية المعارف العامة ويضم إليها فريق من الأدباء الممتازين ، والكتّاب المحققين ، وتتجول هذه البعثات في كل الأماكن انظنون أن بها آثاراً تاريخية هامة ، مسترشدة في تجوالها وأبحاثها بمؤلفات المؤرخين الذين كتبوا في تقويم البلدان وتعريف المواقع التاريخية ، كصفة جزيرة العرب للهمداني ، وكمعجم البلدان لياقوت وخلافهما ، من مراجع التاريخ العربي التي تُعنى بالبحث عن منازل العرب والمواضع الأثرية فيها . ويكون لهذه البعثات نظام دقيق في التدوين ، حاملة معها آلات التصوير ، راسمة بها ما ترى رسمه مفيداً . وبعد استكمالها لهذه الحلقة المهمة من البحث والاستقصاء ، تعقد اجتماعات متوالية ، ونضم إليها من ترى انضمامه لازماً وناجماً . وفي هذه الاجتماعات تُدَوَّنُ خلاصة أبحاثها ودراساتها وملاحظاتها وآرائها فيما درسته ، وتخرج من ذلك أسفاراً تاريخية جلييلة الأسلوب ، واضحة التراكيب علمية جامعة شائقة .

وما أُلّف بالطريقة المدرسية بقرر في المدارس ليعلم النشء الحديث من تاريخ بلاده الذهبي ، ما جهله من تقدموه ، وما أُلّف بالصفة العلمية يستنير به الباحثون وطلاب العلم في داخل البلاد وخارجها .

بعد أن تجولنا هنيهة حول المهراس والصخور الأثرية ، صعدنا إلى الجبل فراغتنا هذه الأعشاب البرية الزاهية الألوان المفتحة الأزهار الفواحة النوار . وأعجبنا هذه الأشجار المورقة المتلاصقة المصطفة بجوانب التلاع ومجاري المياه ، كأنما نُسِمَتْ تسيقاً فنياً بديعاً لتجذب بانتظامها الأنظار ، وراعنا هذا النسيم الطلق الذي ينشر أرديته الفضفاضة على فروع الأشجار المتراسة ، فينعشها ويرسل لنا من أريجها ما يُنعشنا ويُذهب عنا وعتاء التعب . ويحول بيننا وبين هذا الشرر الملتهب المتطاير من أتون ذكاء .

ومن أهم ما شاهدته بهذا الخيل شجرُ التَبَلَسَم المعروف عندنا باسم (التَبَلَسَانِ) . ووصف هذا الشجر - كما شاهدناه ، أنه شجر ليس بالكبير ولا الصغير ، ورقه دقيق صغير جداً ، يشبه من حيث الشكل لا الخجم ، ورق شجر السدر ، وورق النبات المعروف هنا بالشذاب وإذا جُرِحَتْ شجرةُ البَلَسَم أو كُسِرَتْ ، تقاطرت المادة الصمغية من الموضع المجروح أو المكسور تقاطراً بطيئاً متوالياً . وتفوح رائحة البَلَسَم من الشجر ومن ورقه وغصونه على السواء . وفي جبل (عار) معدن الرخام ولكنه ليس بذلك الرخام الأبيض الجميل . إن لونه مشرب بصفرة ، وفيه عروق سود كثيرة ، وقد عثرنا على هذا المعدن على مقربة من المهراس في الجهة الجنوبية بالنسبة له .

ومما استرعى أنظارنا في عار ، شجيرةٌ رائعة الجمال اللونية والشكلي معاً ، ولها ساقٌ قوية كعمود المرمر النقي البياض ، وتقوم فوق هذه الساق كتلةٌ من الزهر إثمديّة اللون ، متجمعةٌ من زهرات من هذا اللون . وقد راعني منظر هذه الشجيرة الغربية لأول وهلة ، إذ كدت إخال أنها قطعة من الدباج الأحمر ، سُدَّتْ فوق هذه الساق بوضع هندسي محكم جذاب ، أو أنها كتمةٌ (طاقية) شديدة الاحمرار ، ضاربٌ احمرارها إلى السواد - وقد وُضِعَتْ فوق رأس هذه الشجيرة لتحجبها من وهج الشمس ، وتأثير تيار أشعتها القوي هنا . ولكن بمجرد وصولي إليها فهمت كل شيء . . وقد ورد في « تاج العروس » : « والغلي كسكري شجرة مرة يدبغ بها وإذا أظعم ثمرها السباع قتلها قال أبو وجزة : (كأنها غلى من الرخم تدف) .

وكنيت سألت دليلنا الأعرابي عن اسم هذه الشجيرة وعن سيرها . وخطر ببالي قبيل توجيه هذا السؤال إليه ، أن هذه الشجيرة سراً ، وأنها كم تبسُدُ بهذا الشكل الجذاب اللطيف البالغ في الجمال أقصى حدوده إلا

لاحتوائها على خطر خفي .. وإذْنُ هي سامة ، وشافهت بعض الإخوان بهذا الرأي ، قبيل إلْقائي السؤال على الدليل البدوي ، فلما سألته أجبني بأن اسمها في عرفهم هو (الغُلِّي)^١ - بغين معجمة ولام مضمومتين وثناء مكسورة بعدها ياء - . وقال : لأنها من الأشجار السامة ، وهم يضعونها مع قطعة لحم أو خبز لما يريدون قتله من السباع المفترسة . وبمجرد ابتلاعها تتخير ميتة ... وهكذا تحققت فراسيتي إزاء هذه الشجيرة الغريبة . وشجرة الغُلِّي هذه شبيهة الشكل بالصَّبَار المعروف ، فيما عدا زهرها الموصوف . فهذا الزهر إثميدي اللون ، مكون من عدة زهرات خمسة الأضلاع ، في وسط كل واحدة منها ، نوارٌ صغير ، ناصع البياض ، يبدو ، لشدة بياضه وسواد ما حوَّاله ، ذا بريقٍ وتوهج ، كالنجم الساطع في السماء ، في ليلة ظلماء .

ويحكى في هيئته وصفه ، عيون العناكب ، وفي بريقه ، الألباس الأبيض . وقد لاحظنا تجتمع الذباب على هذه العيون خاصة ، ففهمنا بطريقة الاستنتاج ، أن طعمها حلوٌ ، لأن الذباب لا يتجمع عادة إلا على ما كان من هذا القبيل . وهكذا يندس السم في العسل ، والله في خلقه أسرار وشؤون .

١ في كتاب « الروض الأنف » شرح سيرة ابن هشام ، وصف لشجرة الراة : « قال أبو حنيفة : الراة من أغلات الشجر . » ص ٤ ، ج ٢ ، طبع مطبعة الجاهلية بمصر سنة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م وإذْنُ فقد حرف اسم الشجرة وبقي اسمها مع تحريفه لها حتى الآن .

الصويدرة وادي الآثار الجميل
أو الخلاء الذي أصبح مدينة عامرة

تمهيد :

كم ديار كانت مقاصير عمرا
نـ ، وقد أصبحت 'طلولاً' قواء
ثم عادت ربعاً فربعاً فكانت
كل جرداء روضة غنّاء
عبد المحسن الكاظمي

منذ رحلتُ إلى الصويدرة في عام ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م ، ما زالت
تحولك في صدري رغبةً شديدة وعميقة ، إلى تكرار هذه الزيارة مرة
أخرى ، لاستيفاء دراسة الآثار الموجودة بها ، وتصويرها ، بالآلة
المُصوِّرة ، إذ لم تكن لديّ هذه الآلة المصورة في رحلتي الأولى إلى
الصويدرة .

وقد يسر الله تحقيق الخُلُم القديم .. بعد ثلث قرن . وكان ذلك
في يوم عيد الأضحى من عام ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م .

وقد امتطيتُ سيارتي (البونتياك) واتجهتُ إلى الصويدرة . وكانت الساعة إذ ذاك تشير إلى الخامسة والرّبع قبيل الظّهر حسب التوقيت العربي للمدينة المنورة من يوم السبت الموافق ١٠ ذي الحجة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨ م . وانسابت بنا السيارة ناحرة صوب مشرق الشمس ، فكانت أشعة الشمس تسقط سقوياً قريباً من العمودي على أعلى جباهنا . وكنتُ في نشوة غامرة بهذه الرحلة الممتعة التي حقق الله بها أمنية طالما تحركتُ بين جوانحي . ومع ذلك كنتُ أحس بشيء من القلق .. إذ لا « دليل » من الاعراب ، معنا ، يقوم بإرشادنا إلى الطريق السوي في هذه « الحلقة » الملقاة في فلاة جرداء .. على ما كنتُ أخبر .. ومع ذلك فإن العزم المصمم كان رائدنا في هذا السّفر « الأثري » المنشود .

وقد مضت السيارة في انسيابها السريع الهادئ على الإسفلت ، إلى ما وراء المطار بقليل ، وحاذينا العاقول ، واتقطع عنا الإسفلت الأملس الجميل .. ودخلنا في « حَزْن » مليء بالحجارة ، ولا بدّ للسيارة من اختراقه .. وقد شعرنا بآثار إعلان الحرب بين عجلات السيارة وجهازها السفلي من ناحية ، وبين حجارة الطريق من ناحية أخرى . فالعجلات تطأ أكوام الحجارة في طريقها غير المعبد ، وتتأثر الحجارة بهذا التلاحم الشديد الضاغط عليها فترتفع عمودياً وتضرب جملة وفرادى « بطن » السيارة وأجهزتها الدنيا .. التي فيها وعاء النفط ووعاء الزيت معاً . وأشدّ ما كنا نخشاه حينئذ أن يصيب طلقٌ حجري قوي نافذ ، أحد هذين أثناء صدامها مع الأرض فيعوقنا ذلك ، ويعطل سيارتنا عن المسير إلى الهدف المقصود .. لقد كانت ملحمة صاروخة طويلة المدى ، لم تقف رحاها عن الدوران والطنن ، حتى وصلنا الصويدرة بعد التبايع . وكانت السيارة كثيراً ما تضطر إلى أن تزحف على « بطنها » فوق تلال الحجارة الواقعة لها بالمرصاد .. فيحدث زئير مزدوج .. ينشأ جانبه الأول والأخير من احتكاك « حديد السيارة » بحادّ الحجارة

الصفري والوسطى والكبرى .. ويحدث هذا كله «ردّ فعل» في نفوسنا .
ولكن الله لطيف بنا ، فلم تتوقف السيارة ، ولم يُحترق وعاء النفط ولا وعاء
الزيت في مسيرتنا إلى الصويدرة .. في هذا الطريق «الجَمَلِي»^١
الذي قلده السيارات وخلفته في المسير به ، وحاله على ما كان عليه منذ
عهد مطايا الخيال والدواب .

وفي أثناء سيرنا طالعتُ في ساعتني فإذا بها تشير إلى السادسة والربع .
وإذن فلقد تابعنا السير في هذا الطريق البدائي الوعر ، ساعة كاملة
ولمّا نَبُلُغ الصويدرة .. وكنا نتلوى ونصعد ونهبط باستمرار تبعاً
لتلوي الخط غير المعبّد وصعوده وهبوطه ، وكانت الجبال المتوسطة
والشامخة تُضَيِّقُ علينا الخناق كلما أمعنا في السير .. وقد علّت
الشمس ، وتوسّطت كبد السماء ، وبدأت ترسل أشعتها الحادة الحارة
إينا . وكنا نسير بغير دليل وقد دَآخَلْنَا شَيْءً من التردد بين الإقدام
والإحجام ، ولكننا تغلبنا على هواجس الضمير ووهم الفكر ، وجزع
النفس ، وحبيرة القواد .. فمضينا إلى الأمام .. مترقبين بكل احساسنا
ومشاعرنا رؤية مشارف الصويدرة أو العثور على مرشد لنا إليها على الأقل
وإذا بنا نقف بجانب «معسكر» - كَمَب - أقامته شركة (كات) ⁽
المتولية لأمر إصلاح هذا الطريق وسفلته بين المدينة والقصيم ، وقد
تطلعنا ملباً لعلنا نرى إنسيّاً في المعسكر يهديننا سواء السبيل إلى الصويدرة
وقد لمحنا شبحين يتحركان من بعيد بين خيام المعسكر وتحت وهج
الشمس ، فسررنا هذه المفاجأة وترجلنا من السيارة .. وأقبل الشبحان
إينا ، فإذا هما حارسان من حرس هذه المعسكرات ، وقد طلبنا من
أحدهما - سعيد بن حمّيد العُجماني - أن يرافقنا في طريق

١ نسبة إلى الجمل لأنه هو الذي كان واسطة المواصلات قبل عهد السيارات والطائرات وكان يسمى
بحق « سفينة الصحراء » .

الصويدرة .. فوافق بعد شيء كبير من التردد .. وفاجأنا بأن الطريق ما يزال طويلاً أمامنا ، وشاقاً ، ومرحقاً . وأضاف إلى ذلك أنه لولا خوفه الضياع علينا في هذه الصحراء المضيئة ما كان يرافقتنا .. وقد شكرناه .. وكان رجلاً صموتاً هادئاً .. لم يرهقنا بثمرة لسانه ، ولا بعنجهية جلجلانه^١ ، ولم ينس بينت شفة اللهم إلا بالكلمات الأولى المذكورة آنفاً التي أطلقها من عقابها ، أو عقاله ، عن إخلاص وتقدير للموقف ...

وقد صدق الرجل .. فيما قاله لنا ، حيال بُعد الصويدرة عنا .. فقد أدركنا أن المعسكر الذي أخذناه منه للمرافقة والإرشاد ، كان بينه وبين الصويدرة نحو ثلاثين كيلومتراً ، كلها متحجراً عنيفاً ومخيفاً يرهق اجتيازه السيارة ، ويحيل الكيلومتر الواحد إلى كيلومترات مضاعفة بالنسبة لوعورته ، وصعوبة قطعه ، وأخذنا أمداً مديداً من الزمن .. وفي أثناء سيرنا من بُعد المعسكر ضاقت منا الصدور وبدأت أشباح اليأس من الوصول إلى الصويدرة بهذه السيارة الصغيرة الواطئة : بدأت تلك الأشباح السلبية تتراقص أمامنا في كل لحظة ومكان ، كما تراقص الجنان في هذه القلوات في أساطير الأزمان الخالية .

وبعد أن تعبنا ودأخلتنا من الراهق الكثير ، أشار الدليل الصموت الهادئ ، إلى جبل حترّي ممتد أمامنا من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي .. متعرج في النفاه كالأفعى الأسود التبرّاق .. وقال لنا : إنه وادي الصويدرة الذي نقصده .

عل مشارف الصويدرة :

وقد انحدرت بنا السيارة المزججة ، في وهدة منخفضة جداً كالخندق

١ الججلان : هو القلب .

العميق تقريباً ، وأفضت بنا هذه الوهدة إلى وادي الصويدرة الذي مازالت صورته هذه مرتسمة في تلافيف دماغ كاتب هذه السطور منذ ثلث قرن .

وكنت أعرف « الصويدرة » فلاة خالية مجردة من أي أثر للحركة أو الحياة .. وليس فيها ، حينما رأيتها لأول وهلة ، سوى بضعة شجيرات دَوْمٍ متعاقبة ، ومتناثرة ، ككُلِّ ثلاث أو أربع مع بعض .. كأنما كانت تستأنس بهذه المعانقة من هذه الوحشة الرهيبة التي تحيط بها من كل جانب .. وكانت هناك نُخَيْلات متفرقة لا تُدرِي من غرسها هنا ، وهي تقوم قريباً من جبل الصويدرة الخُرِّي ، وقريباً من مسيل واديه الملتوي الكبير .. وقد دلنا البدوي الذي كان رفيق رحلتنا الأولى إلى أن أرض وادي الصويدرة ذات أحشاء .. فأين ما نَبَسْتُ بيدك الأرض وجدت ماءً عذباً نقيراً .

كذلك كنت أعهد الصويدرة .. وكذلك وصفتُها في رحلتي الأولى إليها .. فيما قبل ثلاث وثلاثين سنة .. فأما اليوم فإن شجيرات الدوم الصغيرة المتعاقبة والمتناثرة قد تَمَمَّوْنَ وكَبُرْنَ وصرن أشجاراً فارعة القامة طويلة الغصون .

وحينما قوت عيوننا وهدأت خواطرنا ببلوغنا وادي الصويدرة ، كان أول ما رأينا القيام به أن نملأ وعاء سيارتنا الفارغ من مادة النفط ، من المحطة التي لا تزال بدائية بالصويدرة^١ .

١ سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م .

٢ هي الآن سقيفة من الصفيح ، بها وبجانبيها براميل مملوءة بالنفط الذي تزود به السيارات . يُدْرَسُ يوضع في داخلها أنبوبة من القلائد ونحتها صفيحة يصب فيها النفط حتى تمتلئ ومن ثم يملأ به وعاء النفط بالسيارة على الطريقة البدائية التي عرفناها في المحطات بين مكة وجدة والدمنة قبل تطور محطات النفط إلى حالها الحاضر .

في بلدة الصويدرة :

وكان أول ما لفت نظري ، هذه البلدة الصغيرة التي وُلدت بالصويدرة بعد عهد قديمي الأول إليها لاحقاً .. لقد كان شيئاً مدهشاً ورائعاً أن تُبنى مدينة ذات مرافق حديثة في هذه الثنوفة التي كنت جئت إليها قبل ثلاث قرن ، وكانت كلها جرداء بلقها سكون عميق ، كما يلف سائر الصحراء المحيطة بها من كل جانب .

ومن يُدرينا ؟.. فلعل هذه الصحارى المائلة في هذه البلاد كانت في سالف الأندهور العريقة القدم ، تموج بالحضارة والزراعة والصناعة والتجارة .. ثم لفها عامل الخفاف ، فإذا هي بعد ذلك تستحيل كما رأيناها ونراها ، جرداء ظمياء .. بكاء عجفاء موحشة ..

ومن يدري ، فلعل هذه الصويدرة ، وهي جزء من هذه الصحراء المخيفة ، لعنها كانت في عهد من العهود الخوالي مدينة متحضرة راقية تحتوي على كل مرافق الحياة الراقية .

وكما يشقى الإنسان ويسعد في مختلف فترات حياته .. كذلك شأن البلاد والأرضين .. تتعاورها عوامل الشقاء والسعادة في فترات تاريخها الطويل .

ولا ريب في أن انبعاث هذه البلدة الصغيرة الجميلة ذات المرافق الحديثة من مدرسة ابتدائية لأطفالها ، ومستوصف لمرضاتها ، وخزان ماء مُعتل يصل إليه الماء من عميق آبارها بواسطة مضخة حديثة مركبة عليها وذات المحطة النفطية البدائية ، والدكاكين والبيوت الطينية المتينة ، والصفحية البراقة — لا ريب في أن هذا كله هو من آثار التطور الشامل الحديث الذي تسير في فلكه هذه البلاد قُدماً ، نحو قمة الازدهار. وهكذا تشاهد اليوم الصحارى الجرد الموحشة أثناء القرون العديدة الخالية تتحول تدريجياً

إلى مدن وقرى وريف .. وهذا يستتبع بطبيعة الحال تحوّل أبناء
البادية وتطورهم أيضاً إلى حضريّ متّبعين . ينشدون الاستقرار وينعمون
به .. وينشدون الرقيّ العلميّ ومخطون به . ولقد ذكرني مشهد الصويدرة
الحاليّ بقصة أسطورية كنت قرأتها في بعض الكتب . تقول القصة :
إن الخضر الذي وهب حياة الخلود المديدة في هذه الدنيا
مر في إحدى سياحاته العالمية على مدينة كانت حاضرة البحر عامرة
تموج بالسكان وبسائر مرافق الحياة الراهية السعيدة الطائفة .. وبعد ألف
عام مرّ بمكانها مرة ثانية ، فإذا هو بلقع خال من كل معاني الحياة
حتى لكان لم تمض عليها فترة عمران أئبل .. وبعد ألف عام ثالثة مرّ
بالمكان ذاته مرة ثالثة وقد عادت الحياة إليه فعاد مدينة ضخمة كما
كانت قبل ألفي عام ، تموج بالحرّكة والنماء وبالسكان ، والسعادة الوارفة
من جديد .

• • •

والصويدرة واد مستطيل يأتي من الجهة الجنوبية الغربية ، ممتداً إلى
هذا المكان الذي عرف في وقت سابق نجعله باسم الصويدرة .. وبجانب
وادي الصويدرة خبّئت مرتفع عنه بعض الشيء ، به أقيمت « بلدة
الصويدرة » الجديدة . وحينها تكاثرت السكان بها اضطروا إلى حفر الآبار
العسيقة بالوادي ، لتأمين سقيهم وريّ مزارعهم التي بها النخيل
والخضراوات والفواكه .. وقد أقاموا خزان ماء الريّ بمتصف علو
جبل الصويدرة المليء بالآثار الذي يقع إلى الغرب عن بلدتهم المولودة
حديثاً .. على أيدي هؤلاء الماهدين من أبناء البادية ، ومن انضم إليهم .
وقد حدثني أحدهم - سعيّد العجّمي - نسبة إلى قبيلة العجان ،
بأن تعداد سكان بلدة الصويدرة الآن : آخر شهر من سنة ١٣٨٧ هـ -
١٩٦٨ م ، هو نحو مائة شخص ما بين رجل وامرأة وطفل وطفلة .

ولما أمر اسمه مرزوق السُّحيمي . وكما قلنا فقد بنت الحكومة لأطفالهم مدرسة ، ولمرضاهم مستوصفاً . وبها محطة نفط بدائية ومقاهٍ . وبناء البلدة من مادة طينها ، ومن الصفيح ، ودورها من دَوْرٍ واحد .. وبها دكاكين ..

واختراق طريق المدينة - القصيم - المسفلت لبلدة الصويدرة أعتقد انه عامل مهم في الإسراع بها إلى التطور والنمو في السكان ، وفي العمران ، على السواء .. لا سيما إذا استغلوا هذا الانصال الدائم بين البلدين خير استغلال ، فأقاموا استراحات ، ومقاهي حديثة وفنادق صغيرة لتزول المسافرين ، ومطاعم كذلك .

• • •

هذا وبعد اطمئناننا إلى نجاح قضية مَلِّم وعاء السيارة بالنفط هذا البال ، لأن هذا النفط هو « وسيلة » حركة المستقبل ، بالنسبة لرحلة الإياب الوشيكة إلى المدينة . وعندئذ تَلَقَّتْ فرأيت من حولنا بعض أهل الصويدرة ، جاءوا يرحبون بمقدمنا .. فقد أخبرهم زميلهم المرافق لنا ، بنا ، وقد ألحوا في أن نذهب معهم إلى مضافتهم فيذبحوا لنا الذبائح ويصنعوا لنا القهوة والشاي ، وترتاح عندهم إلى قريب من الليل .. فوعدناهم وعداً سطحياً غير جازم .. وقلت لهم : ان المهمة التي حضرتُ إلى هنا من أجلها هي أخذ صور لتقوش الصويدرة .. وهي كثيرة .. ونخشى أن تحيل الشمس كثيراً إلى الغروب ، فيتعذر أخذ الصور بالآلة المصورة . وانا لندرجو أن تسمحوا لنا بالاياب الآن ، فالوقت ضيق .. وعندما يتم رصف طريق الصويدرة بالاسفلت ويسهل الوصول إلى بلدكم الناشئ الجميل ، عندئذ سنحضر اليكم إن شاء الله ونقبلُ لديكم ، ونأكل ذبائحكم السمينه ، ونشرب قهوتكم العربية وشاهيكم المنعنع ، براحة وهناة ... وبعد التأكيد بذلك قبلوا منا العذر على

مضض .. وأقبلنا أنا ومسعود قاضي ، وسائق السيارة نمشي على الأقدام إلى الجبل ، فقد ملنا ركوب السيارة وعانينا منها المتعب ، وتَحَصَّصْنَا منا الخسوم خضاً كارياً ، وصكَّتْ آذاننا صكاً بزجرتها ويهدبرها وبوقع حوادث معركتها الرهيبة مع جماهير حجارة الطريق المتربصة لها ولذيلاتها إذا سرن في هذه التنوفة الخاوية ..

تقديرات علمية :

هذا ويبدو لي من كثرة النقوش وجملها وعمقتها بهذا الجبل ، ما بين خطوط ثمودية وعربية ، وبين صور حيوان أليف ومتوحش - يبدو لي من كل هذا أنه قد كان للصويدة هذه ، شأن مجهول لدينا الآن ، ويدلنا على طَرَفٍ من هذا الشأن معرفة اسمها والاحتفاظ به وبموقعها حتى صدر الإسلام ، فهي فيما يبدو لي (الرعة) التي وصل إليها بعض الصحابة في معركة أحد . ويتراءى لي ، أنها كانت مدينة معروفة مقصودة من البلاد .. وقد عُمِّرَتْ في عهد الجاهلية بدليل هذا الخط الثمودي الذي نقر على بعض صخورها^١ ، كما عمرت في عهد الإسلام ، وبالتحديد في أواخر القرن الهجري الثاني وأوائل الثالث ، بدليل هذه النقوش الخطية التي تنطق بنقورها في هذا التاريخ أو قريباً منه^٢ ، ولربما كانت تكون بها حدائق غناء ومراتع طباء ، وليالي سَمَرٍ في أضواء القمر ، وكثيراً ما ينتقل إليها الناس ومنها بالجمال ، بدليل نقش صورها فيها^٣ ، وبها وحواليها كان كثير من الحيوان المفترس وغير

١ ستأتي في هذا الفصل صورته ومثاله .

٢ لها صور وأمثلة في هذا الفصل .. تأتي فيما بعد .

٣ في هذا الفصل .

المفترس .. بدليل هذه الظباء ذوات التمرون الكبيرة المعقوفة المنقورة على صخورها^١ ، وبدليل هذا الاسد المنقورة صورته على أحد صخور جبالها^٢ .

ولربما لو أُجْرِي بها حفر أثري علمي ، لتكشفت لنا أعماق أرضها عن مدينة زاهرة وأثاث ورياش ونقرش وأدوات من حديد ونحاس وعن ذهب وفضة ، مما كانوا يتعاملون به .. كما أنه من الممكن أيضاً أن نعث كذلك على هياكل وجثث وأجداث لسكانها وروادها القدامى .

وكل هذا رهن بمجهود دائرة الآثار التابعة لوزارة المعارف ، إلى جانب إسهام جامعة الرياض في قسمها الأثري في هذه المهمة العلمية الأثرية .

دراسة الآثار بالصويدرة :

وبعد فهذه إلمامة عن دراسة الآثار بالصويدرة ، دراسة أعمق مما سبق وأدق .

١ - الآثار الحطية :

ولإليك قائمة الصور الحيوانية والإنسانية ، والنقوش الكتابية المنقورة في صخور جبل الصويدرة ، التي أخذتُ بعضها بالآلة المصورة ، وبعضها باليد من كتب ، وهي صور مطابقة تماماً لأصولها المنقورة بالحبل .

١ أخذنا صورها بالآلة المصورة وستأتي في هذا الباب .

٢ له صورة فتوغرافية ستأتي في هذا الفصل .

وها نحن أولاء نبدأ بأقدم النقوش الكتابية . وأقدم هذه التديونات الأثرية : هو النقش الثمودي القديم التالية صورته .



النقش الثمودي في جبل الآثار بالصويدرة

وقد نُقِشَ هذا الأثر الممغن في القدم على صخرة كبيرة تقع فوق منتصف الجبل بالنسبة لارتفاعه ، في نقطة غير بعيدة من فم الوادي الذي يخترقه طريق المدينة - القصيم .. وهذا النقش هو أقدم نقش هنا . ونعتقد أنه ثمودي المشابهة في الحروف ، لنقش وادي بويب القريب من جدة .. ويدل على أن ثموداً كانت تقيم هنا أيضاً ، أقامت

أيد هذه النظرية الدكتور عبد الرحمن الأنصاري المتخصص بعلم الآثار والمدرس بجامعة الرياض كما سيأتي ، في نفس هذا البحث .

فيه بهذه الديار ، عقب نزوحها الجبري من الجنوب العربي مباشرة
أو بعده بأزمان .

ومما هو جدير بالذكر أنني كنتُ قد عرضتُ هذا النقش الكتابي
على عبدالله (فلبني) سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م . وبعد أن قام بدراسته
أفادني بما نصه :

« إن هذه الحروف قديمة جداً ، وهي من نوع غريب ، ومتداخل
فيها بعض الخطوط القديمة ، وعلى كل فهي إما أن تكون ثمودية ، أو
من الخط العربي القديم ، أو العبراني القديم ، أو الفينيقي . وعلى كل
فالأربعة من أصل واحد . والأرجح عندي أنها من العربي القديم .
وأرجح أنها أسماء لأشخاص كانوا نزلوا في المحل الموجودة به في
الحقب الخوالي . وهي تقرأ كالخطوط السامية من اليمين إلى الشمال » .
وهذا حلها في نظره :

ه ت ل و د ل ه ت ل و د د ب و د د ه ت ل م م
ه ت ل و د ل ه ت ل و د د ب و د د ه ت ل م م

ه ت ل و د ل ه ت ل و د د ب و د د ه ت ل م م
ه ت ل و د ل ه ت ل و د د ب و د د ه ت ل م م

وهذا تركيبها :

(هتل . ودل . بناد . زهت . زمام . شرح عيشل) . ولكن
(فلبني) لم يفسر لنا معاني هذه الكلمات ولم يبين عنها شيئاً في
جوهرها ، ومدى صلتها بالعربية الفصحى التي نعرفها .. لقد اكتفى
بما ذكره آنفاً .

وقد كان جوابه هذا في سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م ، كما ذكرنا آنفاً .

ثم إنني في ١٣ ذي الحجة ١٣٨٧ هـ - ١٩٥٨ م رأيت أن أستطلع رأي الدكتور عبد الرحمن الأنصاري بصفة كونه خبير الآثار العربية القديمة لدينا ، فأعطانا شرحاً وتفسيراً لما حسب ما يلي :

غ ت ل و د ن ي د د
 غتل^(١) ودن^(٢) يدد^(٣) نغيت^(٤) (بن زميع^(٥)) (بن هنش^(٦)) (بن يثر - يسر^(٧) يتريل (وترايل)^(٧))

خ ا
 ٧٩ د
 يتريل (وترايل)^(٧)

يثر يسر

أشرف

هنش^(٦)

غ ت ل و د ن ي د د
 غتل^(١) ودن^(٢) (ابن) يدد^(٣) (بن) نغيت^(٤) (بن) زميع^(٥) (بن) هنش^(٦) أشرف^(٧)
 يثر - يسر يتريل (وترايل)^(٧) .

- ١ غتل : غتل المكان كثر فيه الشجر فهو غتل . ونخل غتل ككنف سنف (يمانية) ، (تاج العروس) .
- ٢ ودن : انعبود (ود) الحرفي . وقد ورد اسمه في القرآن المجيد .
- ٣ زاد الدكتور كلمة : (ابن) بين أسماء الأعلام تمثيلاً مع الطريقة التي مار عليها علماء النقوش والكتابات في اقتراض وجودها مستترة .
- ٤ نغيت على وزن « زبير » : اسم شخص . تاج العروس .
- ٥ الزميع (بكسر الميم) : الفضيان . تاج العروس .
- ٦ هنش : الهنش : الخفيف (تاج العروس) . ومن المحتمل أن تكون الكلمة بمعنى الإنسان ، والرجل ، مكتوفة من (ه) كأداة التعريف و (نش) بمعنى إنسان أو رجل .
- ٧ ترايل : من الأسماء الشائعة بين أسماء الأعلام الجذوية وخاصة بين ملوك الجنوبيين ، وهو في هذا النقص كما يبدو : كاتب النقش ، ولا تعلم إن كان اسماً خاكم هذه المنطقة أو هو الخطاط فقط . (الدكتور عبد الرحمن الأنصاري) .

- هذا ومن دراستي لهذا النقش ، بالنسبة لذاته ، توصلت إلى ما يأتي :
- أولاً - إن حروف هذا النقش كلها فرادى منفصلة عن بعضها كما شاهدناه في خط المسند والخط الفينيقي والخط الهيروغليفي ، وأخيراً المخطوط الأفرنجية التي هي امتداد للخط اللاتيني الذي هو امتداد للخط الفينيقي .
- ثانياً - يتكون كامل النقش من ثلاثة أسطر ، منظمة التكوين منسجمة متساوية في ابتداءاتها .
- ثالثاً - وهناك خمسة أحرف انفردت بمكانها في آخر السطرين الثاني والثالث . وربما يكونان توقيع المؤلف أو كاتب النقش ، غير ذلك على ما كنت رأيت وأبدته الدكتور عبد الرحمن الانصاري في تحليله لهذا النقش وتفسيره له .

• • •

وكما سبق أن بيّنتُ ، فلاني قد كنت بعثت بهذا النقش مخطوطاً بيدي ، نقلاً حرفياً ومسطرياً عن النقوش التي بالحبل ، إلى الدكتور سليم حسن عالم الآثار بمصر ليقرأه ، فلم يردني منه جواب ، فلربما يكون خطابي لم يصل إليه ، أو وصل إليه وشغل عنه بما هو أهم في نظره .

• • •

ولعل أقدم النقوش الكتابية ، بعد النقش الشمودي الموصوف آنفاً

هو ما تلي صورته :

اللهم طاب علمك محمد
 من ماحمك بن مابور
 الأهواري ومعه ولد
 المفضل بن مابور
 خمس ومائتين

وقد قرأته هكذا : « اللهم صل على محمد من أحمد بن أيوب
 الأهوازي ومعه ولد الفضيل بن ابراهيم سنة خمس ومائتين » .

وملاحظاتي على هذا النقش أنه ذو أهمية أثرية ، لأن ناقشه قد
 أرتخه .. كما دَوّنَ فيه اسمه واسم أبيه ولقبه واسم بلده الأصلي
 (الأهواز) فهو (أحمد بن أيوب الأهوازي) .. ولعله كان في
 طريق الحج أو التجارة أو الزيارة أو الاستئناس بجمهورية المانع ..
 كما أفادنا بأن اسم رفيقه هو (ولد الفضيل بن ابراهيم) ونص لنا في
 النقش على أنه نقره (سنة خمس ومائتين) .. أي في نصف العقد الأول من
 القرن الهجري الثالث : ولا بد أن راقم هذا النقش اذن قد ولد في

١ في قرأتي الأولى له لم أتمكن من حله .. وقد تمكنت في قرأتي الثانية هذه من حله .

العقد الحجري الثاني .. وجاء هنا شياً أو كهلاً أو شيخاً .. حيث نخلد
نخطه الكوفي الجميل الحالي من النقط قصة قدومه مع رفيقه إلى هذا
المكان .

وخط النقش مصلع ، وفي أوائل وأواخر بعض حروفه زخرفة بسيطة
لتجميله كما كنا رأيناه ودوناه في مماثله في الزخرفة : نخط شاهد مقبرة
مدينة بني سليم المنشرة^١ .

• • •

وثالث النقوش الكتابية المهمة هو النقش التالية صورته :

الله ما عر
لظهور
بار الخراسان
موله هار هو
ما مره لوه
مس

١ انظر فصل « قبيلة بني سليم » في هذا الكتاب .

وقد قرأت هذا النقش على النحو التالي :

(اللهم اغفر لطيفور بن باز الخراساني مولى هارون أمير المؤمنين)
ومعنى هذا ، أن راقمه كان قد عاش في عصر هارون الرشيد الخليفة
العباسي المولود سنة ١٤٩ هـ - ٧٦٦ م والذي استخلف سنة ١٧٠ هـ -
٧٨٦ م . ومات سنة ١٩٣ هـ - ٨٠٩ م . فالتقى على هذا مدون في
القرن الهجري (الثاني) أو أول الثالث ، وذلك لأن كاتبه بموجب نصه
هو مولى لهارون الرشيد . واسمه : (طيفور) . وأصله من (خراسان) :
فهو (خراساني) كما يقول عن نفسه .

وقد جاء ذكر أحمد (بن طيفور) في كتاب الأعلام للزركلي فقال
عنه : « أحمد بن طيفور أبي طاهر الخراساني ، أبو الفضل : مؤرخ
من الكتاب البلغاء الرواة ، أصله من مرو الروذ ، ومولده ووفاته
ببغداد . كان مؤدب أطفال ، له نحو ٥٠ كتاباً ، منها « تاريخ بغداد »
طبع منه الجزء السادس .. إلى أن قال : وله شعر قليل أورد ياقوت
نبدأ لطيفة منه ^١ . ولأحمد هذا ابن اسمه عبيد الله وهو مؤرخ
خراساني الأصل ولد وتوفي ببغداد ^٢ أيضاً . ويبدو لي أن طيفوراً
صاحب النقش وموضع البحث هو والد أحمد بن طيفور وجد عبيد الله
لأنهما خراسانيان وموطنهما بغداد ، وبغداد هي موطن خلافة هارون
الرشيد ، وقد يكون طيفور أدباً ولده أحمد في ظل عطف الخليفة
فصار مؤرخاً معروفاً ، كما أن ابنه أحمد أدب ابنه عبيد الله فصار
مؤرخاً مثله لبغداد والخلفاء العباسيين . ودعاء طيفور لنفسه بالمغفرة يدل
على أنه ذو دين وعقيدة طيبة وإيمان بالله عميق .. ولذلك طلب مغفرة
الله : والله غفور رحيم .

١ الأعلام للزركلي ، ١ م ، ص ١٣٨ ، الطبعة الثانية بمصر .

٢ نفس المصدر والطبعة ، ج ٤ ، ص ٣٤٣ .

وهذا والنقش كغيره من النقوش المثبتة هنا، منقور على صخرة ضخمة بركانية سوداء من صخورات هذا الجبل الحُرِّيِّ البراق .. ومُلاحَظٌ أن الكثير من هذه الصخور عرضة للتدحرج إلى الوادي لأن تماسكها مع بعض وارتباطها بالأمّ - التي هي الجبل - ضعيف واهن .. وهي ضخمة وارتفاع الجبل شبه عمودي .. فـدَحْرَجَتْها أو تَدَحْرَجُها أمرٌ سهل ومرتبب بين سنة وأخرى .. وقد رأينا بعض هذه الصخور وقد هبط بنفسه من عليائه ؛ بفعل انحلال الجبل وعمودية ارتفاعه ؛ ونوء الصخور به ، حتى لكأنها بثوراً وضعت هكذا لتزيلها يد الأيام بيسر وسهولة متى أراد الله .

وعلى هذا فلو عني بهذه الآثار المهمة وحفظت ثم نُقِلَتْ بِفَسِيحَةٍ إلى (متحف) السويدرة المرتقب الذي نرى ضرورة إيجادها بالصويدرة ذاتها أسوة بمتحف كل بلد فيه آثار من هذه المملكة - وكان في ذلك إنارة للتاريخ القديم ؛ وتنقل هذه الصخور الأثرية إلى متحف السويدرة بعد تنسيقها مع ما سيكتشف مستقبلاً إذا أُجريت الأحافير الأثرية بالصويدرة ؛ ونود أن يتم ذلك قبل أن تكبر البلدة وتوسع .. فيعصب حينئذ إجراء هذه الحفريات بأنحائها ، بالنظر لامتداد العمران وانتشار السكان في كل مكان من البلد .

ونُقِشَ (طيفور) المشار إليه لا يخرج في قاعدته الكلية البارزة عن عن قاعدة نقش (أحمد بن أيوب) .. إلا أننا نلاحظ على نقش (طيفور) أنه مجرد من الزخرفة الفنية في أوائل حروفه وفي أواخرها ، بعكس نقش (أحمد بن أيوب) الموجودة فيه هذه الزخارف .

ونقش (طيفور) مكون من ستة أسطر ، متساوية الأطراف الأولى

والأخيرة .. باستثناء السطر الأخير منه : (مس) الذي جعله راقمه منفرداً ، مع انه يكون الجزء الأخير من كلمة واحدة هي ، (المؤمنين). ولست أدري باعث هذه التفرقة في الكلمة الواحدة مع أن المكان متسع لصمها إلى أولها : (المو) ...

• • •

وهناك نقش عربي قديم آخر ، هذه صورته :

أحمد بن عباس بن أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

وقد قرأته حسب ما يأتي :

(أحمد بن عباس بن أحمد بعتصم بالله الخالق الكريم) .

ولاحظت من دراستي لهذا النقش أموراً هي :

أولاً - إنه غير متسق السطور ولا متساوياً ، ففيه فجوات وكلمات منفصلة عن بعضها بدون علمنا للسبب .

ثانياً - إنه يشبه همزة الوصل في كلمة (ابن) مع وجودها بين عكمتين ، ومع أنها ليست في أول السطر وهذا مما يناهز قاعدة الخط العربي التي نعرفها مدونة في الكتب .

ثالثاً - يشبه أسلوب هذا النقش في بساطته وفصاحته أسلوب نقش جبل سلع بالمدينة المنورة المذكور في فصله من هذا الكتاب .

فنقش (أحمد بن عباس) يقول لنا : (أحمد بن عباس بن أحمد
يعتصم بالله الخالق الكريم) ... ونقش جبل سلع يقول : (يقبل الله
عمر الله يعامل عمر بالمغفرة) ومن هذا يمكننا أن نستنتج تقارب عصرهما ،
وبالتالي قرب عهد نقش (أحمد بن عباس) من صدر الإسلام .

* * *

ومن النقوش الأثرية هذا الأثر :



نقش القاسم بن محمد بن أبي عيسى

ونص هذا النقش : (اللهم اغفر للقاسم بن محمد بن أبي عيسى الخراساني
أو (البحراني) .
ونلاحظ في هذا النقش أمرين :
أحدهما : خلوه من الزخرف الخطي فهو على غرار خط (أحمد
ابن أيوب) .

وثانيهما : أنه حذف دفعة واحدة همزة الوصل بين الاسمين العائمين سواء أكانت متصلة بعلم سابق كما في كتابته لـ (لقاسم بن محمد) أم كانت في أول السطر كما في : (بن أبي عيسى) ، والقاعدة الخطية تفرق بين الحالتين .. فإذا كانت صيغة (ابن) بين علمين ، وهي مندرجة في السطر ، فإن همزة الوصل لا تُكْتَبُ . وإذا كانت بين علمتين وجاءت في أول السطر فإن همزة الوصل تُكْتَبُ في هذه الحالة .

• • •

ومن هذه النقوش نقش : (أبي سليمان علي بن طالوت) وهذه صورته :



نقش أبي سليمان علي بن طالوت

وقد قرأته هكذا : (أبو سليمان علي بن طالوت يشهد أن لا إله إلا الله شهادة يلقى بها ربه) .

ومن دراستي لهذا النقش توصلت إلى أنه من قديلي نقش (القاسم بن محمد) السابق الحديث عنه ، فلا زخرقة به ، وإنما تضليح ، وعقفة إلى اليمين للألفات في ذيوها ... وهو من هذه الناحية يشابه خط (أحمد بن أيوب) الذي كتب سنة ٦٠٥ هـ على أنه خير منه انسجاماً وانتظاماً في حروفه وسطوره في أولها وفي آخرها ويلاحظ عليه انه رسم صيغة (يَلْتَمَى) بفتح الياء والقاف وبعدها الف رسمها بالألف ، خلافاً لقاعدة الرسم المعروفة .

• • •

وهذا نقش آخر عَائِيَّتُ الكثير في محاولة قراءته كله ، فلم يخالفني كل التوفيق بسبب انطلاس بعض حروفه وانمحاه بعضها :



نقش النجمة الحماسية

وقد استطعت قراءة بعضُ جُملٍ هذا النُقش الكتابي المطموس ،
وأعياني حل بعض جملة .

وهذا بيان ما تمكنت من قرأته منه :

اللهم اغفر ...

اللهم اغفر لزيد بن

عبد الله المعتصم رحم الله

من قال آمين (وفي آخر هذا السطر رُسمتْ بِدِقَّةِ النجمةُ
الحماسيةُ متصلة بالسطر نفسه) .

وفي أسفل الحجر نُقشُ نصه :

لا اله إلا الله .

وتحت حرفان ثموديان هما على التوالي هكذا :

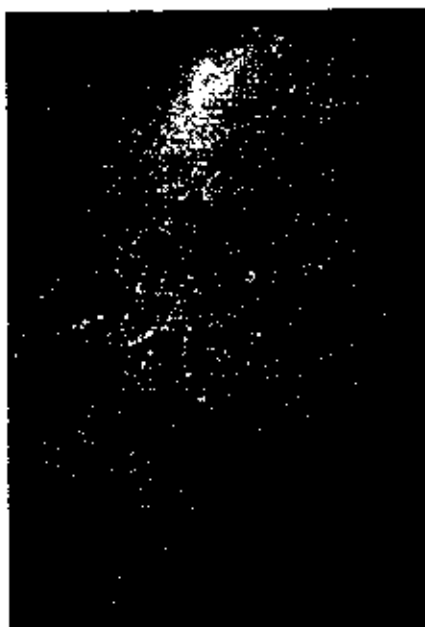
□ هو الحرف العربي (ج)

◻ وهو الحرف العربي (ي)

ويخط هذا النُقش يشبه تماماً نقش أبي سليمان علي بن طالوت إلا أنه
أدق صنعةً منه ، وأجمل تكويناً بعض الشيء ، ولعل هذا يعود إلى
الكاتب أكثر مما يعود إلى تفاوت العصور وتطور الكتابة العربية .

• • •

وفي نقشٍ آخر ما صورته الفوتوغرافية :



نقش ناصر بات على لحم

وقد قرأته مبدئياً هكذا : (ناصِرْبَاتِ عَمَلِ لَحْمٍ لَدَى وَعَمَلِيَّ
منصور .. قَتَاصُ الأَيْلِ) .

ونتيجة دراسي له كانت كما يأتي :

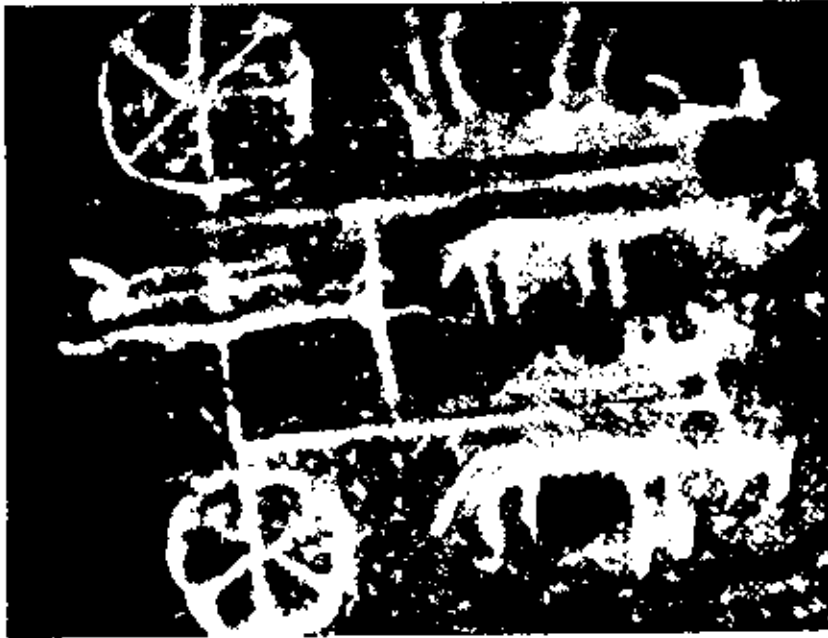
أولاً- لا يزال الغموض يكتنف قراءته ، فهي في حاجة إلى مزيد من
الحل الصحيح .

ثانياً- إن أسطره غير منسقة ولا مستقيمة ، ففيها ميلٌ واضح إلى
أسفلٍ .. وهو بالجملة من نوع خط « أحمد بن عباس » تقريباً ، في
الطراز ، وفي اضطراب السطور ، وعدم توازنها .. وكلاهما من نوع

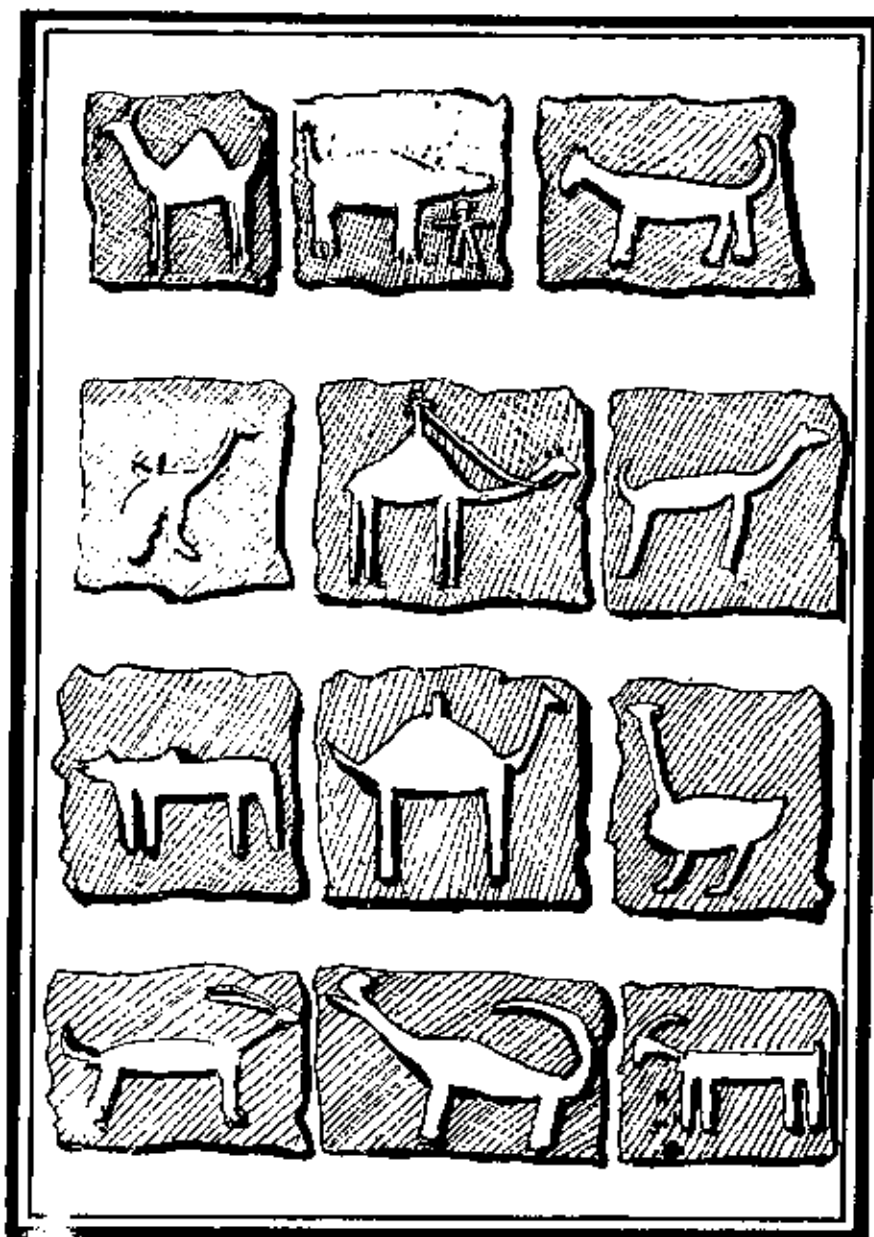
الخط الكوفي القديم .. وإذا كان حكتي له صحيحاً فهو يدلنا على حالة
اجتماعية مهجة للقوم تؤيد جاهلية شعر امرئ القيس في قوله :
وظل ظهارة اللحم ما بين منضج صفيق شواء أو تقدير معجل
وعلى صخرة ملاء مكسورة أخرى نقش أحمد بن عباس بن أحمد
عبارته السابقة المنقوشة على الصخرة التي نقلنا صورتها سابقاً نقلاً مسطرباً ،
ولعل الكلام ظهر مبتوراً ، بما كُسِرَ من الطرف الأول للصخرة
نفسها .

الصور الحيوانية ، ودراسة لها :

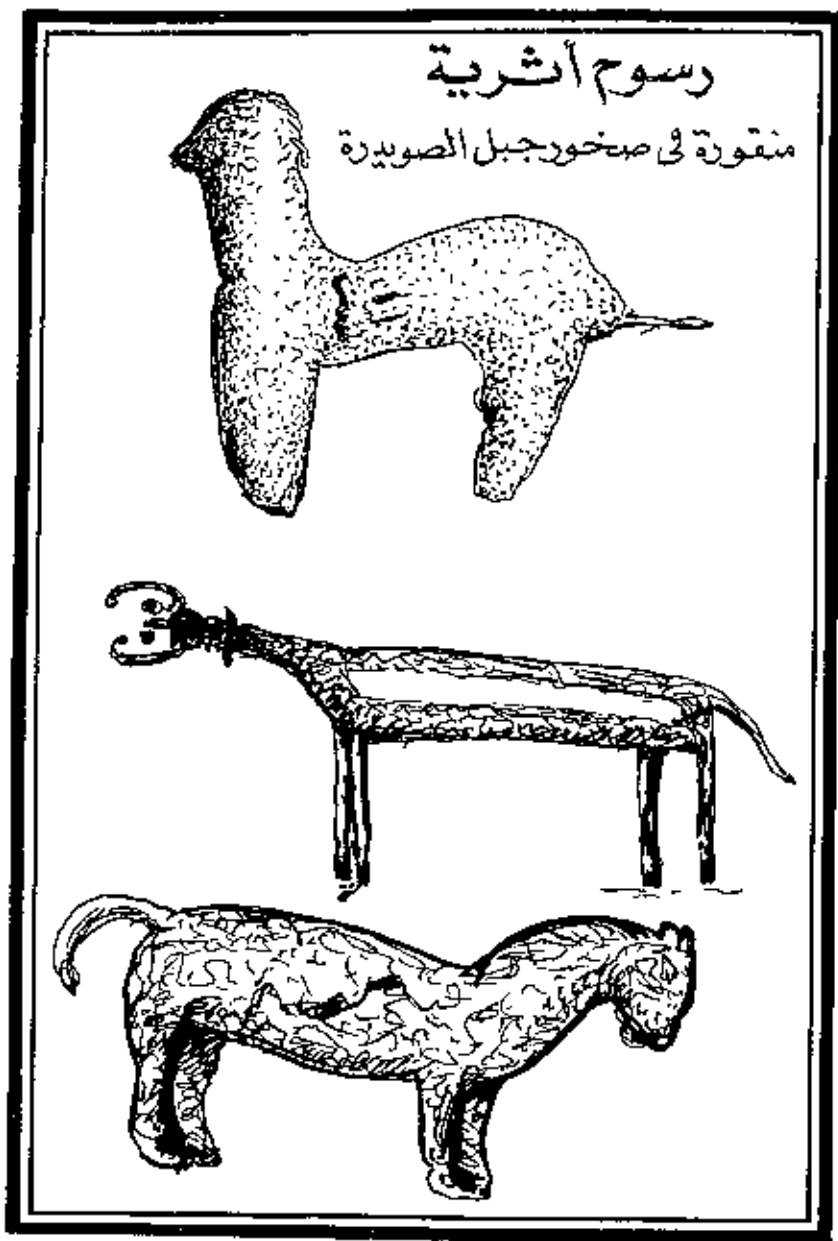
أما الصور الحيوانية ما بين بشرية وغيرها فإن صحور الخيل مفعمة



من آثار الصحراء الكبرى : رسم الخيل التي تجر العربات



من الآثار المنقورة على جبل الصويدة
وهي تدلنا على وجود الجمال والبط والطباء والنعمام وحيوانات
أخرى بعضها يشبه الديناصور ، كانت تعيش بهذه المنطقة



8181 1076 1111 1111 1111
BIBLIOTECA MUSEO LINDRINA
Assisi - Italia

بها ، من كل لون .. فهذه صورة ثورٍ ، بجانبها صورٌ بدائية لحيوانات
شتى من حيوان الجزيرة .. وإلى جانب الصورة الكبيرة لحيوان منقرض
يقف رجلان ، أحدهما بجانب الآخر وهما يصوبان سهامها أو رماحها
لأرتاك الحيوان البرية الهاربة من أمامها ..



صورة تمثل صيد الفيل . ويبدو فيها رجل لم يكاد يطلق سهمه ،
حالما اضطلع آخر ميتاً على الأرض

ويُرى على الصخرة السفلى الحامدة لتلك الصور العربية البدائية العتيقة
كلمة (الله) محفورة بخط كوفي واضح ..

ومقارنتنا لرسم هذه الحيوانات مع الرسم المصورة في كتاب :
(الصحراء الكبرى) لمؤلفه (جيمس ويلارد) يظهر تماثلها في الشكل
والبدائية خاصة رسم الخيل التي تجر العربة وهي التي تحدث عنها
(هيرودوتس) فيما كتبه في القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وكذلك يشبه
تقريباً الرسم المحفور للرجلين الصيادين ، الرسم المحفور في الكتاب



صورة الصيادين العرب بالصويدة

المذكور لرجل يقوم بمحاولة صيد فيل^١.

وهذه صورة أسد متحفز بكل ما لديه من حنّ وجراءة ، للوثوب على الرجل الواقف أمامه وجهاً لوجه ، وكأنا هما في عراقك^٢ ، أو على وشك عراقك شديد .

هنا وبعد ما انتهينا من التقاط الصور التي تهمتنا من صخور جبل الصويدة انتهت مهمتنا فيها ، فعدنا فوراً إلى امتطاء سيارتنا آيبين إلى

١ كتاب الصحراء الكبرى ، تأليف جيمس ويلارد ، نشر مكتبة النرجاني بطرابلس ، ليبيا .
أمام الصفحة ١٦٠ ، من الكتاب المذكور .



صورة الاسد والرجل

المدينة المنورة ١ .

مسافة الطريق :

والمسافة بين المدينة والصويدرة هي سبعون كيلومتراً قطعناها في الذهاب

١ يرى القارىء في هذا الفصل رسوم الحيوانات الانسية والوحشية المنقورة على صخور جبل وادي الصويدرة التي يجده غرباً. وبين الرسوم رسم حيوانات منقرضة أفرجها شكلها المشيوان ذو القرنين الملقوفة : ذر الذيل المتلوي والقسم المهروت . ويبدو أنها كانت تجوب هذه المنطقة قبل عصر الجفاف. فلما بدأ هذه العصر انقرضت وزالت عن الوجود وبقيت رسومها شائخة على الصخور التي سجلها عليها معاصروها الاقدمون .

إلى السويدرة في ساعتين وربع الساعة . واجتازناها في عودتنا إلى المدينة
في نحو ساعتين إلا ربع الساعة . وقد حمدنا الله على سلامة الإياب .
وهتف الضمير عندما شاهدنا مأذن المسجد النبوي ترتفع قاماتها
الرشيقة إلى السماء ، هتف بهذا البيت الذي كان علي باكثير ارتجله في
مساجلة لنا معه :

مأذن مسجد هذا الرسو ل ترف المسرة للناظرين

آثَارُ الرِّيَاضِ وَمَا حَوْلَهَا

من آثار الرياض

لا تخلو مدينة قديمة في المملكة العربية السعودية من بعض الآثار .. وأغلب الآثار التي نَحَدِّثُنا عنها في أغلب مدن المملكة هي الآثار الظاهرة على سطح الأرض : ما بين محمور ومقوش ، أما ما يَسْتَكِينُ في باطنها مما يحتاج إلى أحافير ، فمن المعلوم أنه إلى هذا التاريخ لم تَجِرْ أحافير أثرية علمية بهذه البلاد ، فيما أعلم ، اللهم إلا ما ندر جداً .

وفي مدينة الرياض مَبَانٍ قديمة عَفِيَ عليها التنظيم الحديث لمدينة الرياض . وما تبقى من معالم بعض آثارها يَحْسُنُ أن يُحْفَظَ به كَمَعَالِمٍ وَكَصُورٍ للتاريخ .. يَسْتَدِلُّ بها ، عن عيان ومشاهدة ، صلابُ العلم ، وعشاقُ البحث العلمي والأثري والتاريخي في الجليل الحاضر والأجيال المقبلة ، على ما كانت عليه حال عاصمة البلاد في الأجيال الماضية .

المصمك :

ومن تلك الآثار مثلاً : قصر « المصمك » .. وقد أحسنت الحكومة

١ أواخر يناير الآخرة ١٣٨٧ هـ - سبتمبر ١٩٦٧ م ، حيث كتب هذا البحث في ذلك الوقت .

بوابة بيت جويسر تاجر
 البقر الذي دخل منه بجلالة
 المغفور له الملك الراحل
 عبد العزيز آل سعود
 وصحبه ليلة فتحه للرياض
 للوصول إلى بيت حريم
 عجلان أميرها من قبل
 ابن الرشيد



إذ أبقته على حالته ، فلم تعمل فيه معاول الهدم .. فإنّ هذا القصر
 المبني بالطين في أواخر المائة الثالثة عشرة الهجرية ، له طابعه المعماري
 وله أثره التاريخي البارز في مطلع عهد «توحيد المملكة» ورأب الصدع :
 صدع الفرقة الشاسعة المدى التي كانت تزيد شمل أبناء البلاد الواحدة
 تمزقاً وشتاتاً .

لقد كان هذا «المصمك» المكان الذي «وئدت» فيه «الفرقة»
 و«وئدت» فيه «الوحدة» .. كما هو مفصل في التاريخ ، ولا لزوم
 لإعادته هنا ، فهو معروف .

دار الأشعة :

ومن آثار مدينة الرياض (دار الأشعة)^١ ، وكانت غرفها واسعة تشرح الصدر ، وكانت في وسط البلد ، وكانت مشادة أيضاً بالطين ، وقد صمدت لحوادث الزمان ، فلم تتركع تحت وطأة أقدام الخراب .. كانت كالكهل القوي العضلات ، الصامد أمام التقلبات. فحبذا لو أبقى هذا « المبنى » الأثري على حاله ، وحبذا لو أحيط بسياج يفصله عما يراد تجديده وتنظيمه على الطراز الحديث في هذه المدينة المتطورة ، ليكون سببته « الوقور » وبضخامته ، كذكرى حية للتاريخ .

المربع :

وكذلك قل في قصر « المربع » أي القصر الذي بناه وعاش فيه مؤسس المملكة المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، فإنه يعتبر في نظري - وإن قُرب أوان بنائه - من مهم الآثار الحديثة في البلاد .

أهمية المحافظة على آثار الرياض وعموم الآثار :

وفي اجتماع لي ، مع صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز ، أمير منطقة الرياض ، تحدثت إلى سموه عن فائدة المحافظة على الآثار عامة ، والعناية بتاريخها ، لحساب التقدم الحضاري العام في البلاد ، وقلت لسموه فيما قلت : إن من لا ماضي له لا حاضر ولا مستقبل . وتطرفت

١ هذا من تسمية المنطق باسم الخلال فيه .. فقد وضعت بها الأشعة الصحية فيما يلغني ردياً من الزمن . نشأت تسميها بذلك . وكانت قبل ذلك داراً لحكم على ما يلغني أيضاً .

إلى أهمية استبقاء ما تبقى من قصر المربع ، الذي كنت لمحتة - في رحلتي إلى الرياض بحجرات الأجر ١٣٨٧ هـ - سبتمبر (أيلول) ١٩٦٧م - وقد بدأت عوامل التنظيم الحديث للرياض تتسلل إلى كيانه وتأخذ من أطرافه ، وتكاد تأتي عليه كله ، واقترحت أن يُعنى بالمحافظة على ما تبقى منه كعَلَمٍ مُهِمٍّ من معالم التاريخ الأثري الحديث ، لموحد شمل البلاد ، وعرضت على سموه فيما عرضته أن يُعنى - بضم الباء - بجميع آثار الأئمة من آل سعود ، وخاصة آثار الملك عبدالعزيز كَسَيُوفِهِ وبنادقه وبعض أثاره الذي كان يستعمله ، وبعض آثاره الأخرى ، وتحفظ كلها في (المتحف) التاريخي بالرياض ، بعد أن يسجل بجانب كل أثر ، تاريخه الخاص به .. وقد استحسنت سموه هذا الرأي ، ووعد بتنفيذه وتحقيقه ..



عمران الرياض القديم

متحف جامعة الرياض :

وعلى ذكر المتاحف ، فمن الحدير بالإشارة أن في (كلية الآداب)
بجامعة الرياض « متحفاً » أثرياً ، أو نواة متحف أثري على التعبير الدقيق .
وهذا « المتحف » عبارة عن « غرفة » واسعة علوية ، نُسِقَتْ بها
مختلف الآثار التي تحتويها ، بإشراف عالم الآثار الدكتور عبد الرحمن
الطيب الأنصاري . وقد حَدَّثَنَا عن تاريخ كلِّ أثرٍ موضوع بالغرفة ،
وعن التعريف به ومكان العثور عليه ، وكيف تم جلبه إلى هذا
المتحف ، كما حَدَّثَنَا عن نبذة مما نُقِشَ عليه . . وكان يقرأ لنا بعض
السطور المنقوشة بالخطوط القديمة قراءةً خبيرٍ مُمارِسٍ مستوعبٍ .

وقفة بين أطلال الدرعية

في «رحلة الرياض» رأيتُ أن لا بدّ من مشاهدة «أطلال» مدينة الدرعية التي كانت إحدى عرائس الجزيرة العربية ، عمراناً وضخامة وازدهاراً . وفي طريقنا إليها من مدينة الرياض رأينا إرهابات العمران تمتد من الرياض إلى هذه المنطقة الفيحاء التي تفصل بين الرياض والدرعية وبعد نحو عشر كيلومترات - سَيَّراً على السيارات كنا نسير في مشارف مدينة الدرعية . لقد أُشْرَفْنَا على وادئها الهادئ الجميل ، الواسع ، الذي تحتضنه من جهة حدائق النخيل الباسقة ، ومن جهة مدينة الدرعية المرتفعة عن وهدته والمنخفضة ، ومن ثمّ شاهدنا أبراج الدرعية التي كانت تمثل بعض تحصيناتها الخارجية أيام ازدهار عمرانها وقبل تقويض بنيانها ..

ورأينا سور الدرعية الطيني القوي المتداعى من فعل الحريق . وقد اقتحمت سيارتنا وادي الدرعية بجرأة وإقدام ، وذلك لأن الطريق إليه وفيه ، قد سَقُلْتَا ، فلم يَعُدْ كما كان صعبَ المراس . وكان وصولنا إلى الدرعية في الظرف الملائم ، فقد خفت حدة أشعة الشمس ، فمنحتنا خفتها فرصة طيبة للتجول الباحث المستطلع بين أطلال

مدينة الدرعية المنهارة بفعل العزاة الضامة ، وجاءت لنا المقادير على يد
أحدنا : أحمد سليمان داود ، بالشيخ عبد الرحمن اليوسف أحد سكان
الدرعية . فكان دليلنا إلى معرفة أمور ، ما كنا لنقف على حقائقها
ولا على ماضي تاريخها لولا دلالته وإرشاده .

أرانا الأماكن التي دارت فيها رحى القتال طحوناً للعمران
وللرجال .

وأرانا قصر الإمام عبد الله بن سعود بمحلة (سكتوى) .

وأرانا الطريق الخابط المُستَمَفَّ بالنعقود الحجرية المطابقة ، في أيام
ازدهار الدرعية وحين عنفوان عمرائها . وهو الطريق الذي كان عبد الله
ابن سعود يسلكه إلى (دكتته) المُفضَّلة الشبيهة بمدرجات الجامعة أو
مدرجات ملاعب الرومان في استغلالها وبنائها وهيئتها من حيث العموم ..
وقد أصبحت اليوم أثراً بعد عين . والدكتة هذه مبنية بالحجارة المطابقة
المنحوتة البيضاء .. ومع مرور عشرات السنين عليها وهي مهجورة لم
يَجْرُ عليها ترميم أو عناية ، فهي لا تزال على حالها في انتظام صفوف
حجارتها وتماسكها . لم يطرأ عليها تفتت أو تكسر أو تساقط ..
عما دلنا على مهارة من بنوها ، وعنايتهم ببنائها لمن بنوها من أجله .

وهذه (الدكة) العالية المشرفة المدينة تحد الوادي في فاحيته القريبة
من الرياض .. تحده شمالاً .

وكان عبد الله بن سعود ، يجلس عليها هو وصحبه وأقاربه وضيوفه
ومن كان معه من العلماء ووجوه البلد والحاشية ، جلستة الراحة
والاستجمام بعد صلاة العصر ، وربما للنظر في بعض القضايا المتعلقة بهذه
السوق المتحركة النشطة : (سوق الإبل والشاة) وربما كان من يفدون
إليه ويجلسون معه على هذه (الدكة) ، من ذوي الشأن والحل والعقد

من أطراف البلاد أو من الخارج . وكان مجلسه فيها بأوقات الأصيل التي تنكسر فيها حدة الشمس حينما تهبط وتتواري بين أغصان النخيل السامقة وبين التلال قليلاً قليلاً ، كما تتواري العروس الحسنة عن أنظار الناس بعد ليلة الزفاف . وإذا بدأ قرص الشمس الكبيرة في السقوط تدريجياً وراء الأفق الغربي ينهض الإمام من مجلسه ، وينهض كل من كانوا معه . فيصعدون معه إلى المسجد الجامع ، ربوؤذُنُ لصلاة المغرب ، فيصلون صلاة المغرب جماعة ، ومن ثم ينصرفون مع الإمام إلى قصره العامر ، حيث السمر البريء ، والأحاديث الدينية ، والمذاكرة ، وعرض الأوراق والأمور المستعجلة المهمة عليه ، ليبيتَ فيها ، حتى إذا أذن للعشاء ، نهض إلى الجامع وصلى به هو ومن معه ، ومن ثم يعودون إلى القصر ليتناولوا طعام العشاء والقهوة العربية .

وقصّر الإمام عبد الله قريباً من كلا الجامع والوادي .. هو في الطرف ويليه الجامع ، ويلى الجامع الوادي الذي تقع (المسطبة الإمامية) في طرفه الشمالي .

وكان الإمام ورفاقه يجلسون على هذه الدكة الكبيرة المرتفعة ، بعد صلاة العصر ، كما قلنا سابقاً ، بحيث يشاهدون عن كثب حركة هذه السوق المائجة بالرغاء والثغاء .. وربما بالصهيل وغيره .. رغاء الإبل المعروضة في السوق للبيع ، وثغاء الشاء المعروضة فيه لنفس الغرض ، وصهيل الخيل كذلك .

والجامع ذو عقود ومبني بالحجارة المطابقة .. وهو كبير^١ مشاد على مرتفع من الأرض في موقع ليس بعيد عن الوادي ولا عن القصر

١ في كتاب تاريخ البلاد العربية المودية للدكتور منير العجلاني ذكر للمسجد الكبير الذي بناه الأمير محمد بن سعود بناء على رغبة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالدرعية ص ٩٨ . فهل هو هذا الجامع أو غيره ؟

الكبير ، وقد شاهدناه مُهتدماً .. لم تبق منه إلا بعضُ جُدُرانه وبعضُ
 أطراف عقوده التي أزيلت أعاليها فبقيت أكتافها التي لم يتناولها
 التهديم الشامل العام الذي شمل كل مدينة الدرعية ، فأحاطها إلى أكوام
 متراكمة من حجارة مطابقة بيض ، ما بين متناثرة ومدفونة تحت أطباق
 الترى ، وتحت أطباق أنقاض المدينة التي أشعل فيها الغزاة المهاجمون
 النار في آخر الأمر ، ولم يَنْجُ في هذه المدينة من هذا البلاء المستعبر
 سوى «بضعة مشاجب» ظلت عالقة بالحدار العلوي في قصر الإمام عبد الله
 ابن سعود ، وقد رأيناها وهي (مخروطة) ولا تزال مثبتة في بقايا أعالي
 الحدار الغربي في داخل القصر ، بطابقه الأعلى .. ولعل ارتفاعها البالغ
 هو الذي حماها من أن تلتهمها النيران المتأججة في هذه المدينة في تلك
 الأيام السود الحالكة .

وسار بنا عبد الرحمن اليوسف في منحرجات الشارع العام ، فاذا به
 ضيقٌ ومُلتَوٍ ، مثل شوارع أمهات مدن المملكة ، قبل تنظيمها
 الحاضر .

وتأملتُ طراز بناء القصور والدور في الدرعية الساكنة سكون الأموات
 في أجواف القبور المهجورة ، بعد حياة حافلة بالنشاط والمجد الديني والعلمي
 والعملية ، فإذا هي كلها مشادة بالطين وباللبن الأصفر ، كما شاهدتُ
 ذلك في مدينة (الرياض) - خلفتها - قبل أن يتحدثَ بها هذا
 التطور الكبير .

وطراز بناء بيوت مدينة الرياض وقصورها فيما رأيناه - سنة ١٣٦٦هـ
 - ١٩٤٦م ، هي نسخة طبق الأصل ، من طراز بناء بيوت مدينة
 الدرعية وقصورها المشاهدة أطلالها الآن (سنة ١٣٨٧هـ) .

وليتهدم كل ما في الدرعية من أماكن ومنازل ودكاكين وغرف
 ومخازن ، ودارات ، لم نتمكن من معرفة حقيقة ذلك إلا أن لنا من

مدينة الرياض قبل تطورها الحديث صورةً لا تخلو من معالم مماثلة لكل ما ذكر .

وإننا للأسف أن رأينا كل ما في الدرعية مهدوماً ومركوماً .

ومن رأيي أنه لو قامت جامعة الرياض أو أية هيئة علمية أثرية بإجراء البحث والتنقيب العلميين الواسعين في أرجاء هذه المدينة وما يُطيفُ بها من حصون وأسوارٍ وأبراج ، وما حولها وفيها من حدائق ، ومساجد وبيوت ، ومحلات ، بصفة شاملة ودقيقة ، فلا بُدَّ أن آثراً بالغة الأهمية لتقدم معرفتنا ، لتاريخ هذه البلاد الحديث ، سنجدها بين هذه الانقراض وتحتها .

• • •

والدرعية مدينة عربية إسلامية المنشأ والطراز ، بدأ العمران يدب فيها بصفة واسعة معروفة منذ اتخذ ربيعة بن مانع بسنة ٨٥٠ هـ - ١٤٤٦ م المليبيد وغصيبة المعروفين بالدرعية مقاماً له . وقد كان مانع المذكور بحلِّ بلكد الدروع من نواحي القطيف ، ثم ترأس مع رئيس دروع حجر اليمامة الذين هم بنو عمومته ، دروع القطيف ، فدعا ابن دروع حجرج اليمامة ، ابن عمه مانع بن ربيعة من القطيف ، فوفاه بحجر اليمامة وأعطاه المليبيد وغصيبة ، فاستقر فيهما هو وبنوه .

وظلت الدرعية عاصمة آل سعود الأولى إلى أن أُخرِبت - بضم الخاء وتشديد الراء المهملة - بسنة ١٢٣٣ هـ - ١٨١٨ م . والدرعية الجديدة تُقابلُ البلدة القديمة . وهي في الجهة الشمالية من وادي حنيفة ، وتقع بغربي الرياض ، غير بعيدة عنها . وقسده بلغ سكانها

١ تاريخ عنوان المجلد لابن بشر ، ص ١٦ ، طبع المطبعة السلفية بمكة المكرمة .

سنة ١٣٥٤ هـ نحو ١٥٠٠ نسمة . وبها كثير من أشجار النخيل والفاكهة
وتسقيها ٤٠٠ بئر غزيرة المياه ، وأشهر ضواحيها الطريف في الجهة
المقابلة من الوادي ، ومريح وغصيبة ، وهي منفصلة عن بعضها
بأسوارها الخاصة^١ .

ويذكر المؤرخون أن تدمير مدينة الدرعية تم بأمر محمد علي باشا ،
في حزيران سنة ١٨١٩ م^٢ .



جامع الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالدرعية

١ كتاب جزيرة العرب لحافظ وهبة ، ص ٥٨ .

٢ تاريخ نجد لثعبي ، تعريب اندراوي ، طبع بيروت ، ص ١٦١ .

آشَارُجِيْدَةٌ وَمَا جَوَّلَهَا

الآثار في مدينة جدة

ليست الآثار المائلة كثيرة في هذا البلد . ولعل السبب في ذلك يعود إلى طبيعة جَوِّ البلد الرطب الذي لا يكاد يُبقي على أثر أو بناء ، وقتاً طويلاً من الزمن ، إذ تصطَلح عليه عوامل الرطوبة والحرارة ، فيفضيان عليه تدريجياً وبصورة منتظمة وغير بطيئة . يضاف إلى ذلك ملوحة الأرض ، فإن أغلب أرض جدة - لقربها من البحر الأحمر المِلْح - سَبْخَةٌ - حتى العمارات تتأثر بهذه الطبيعة الغلّابية فلا تبقى قروناً ما لم تكن ذات قوة وتماسك في البناء يستطيعان مقاومة عوامل طبيعة الجو والأرض القاسية إلى أبعد وقت ممكن .

وكل الآثار التي اطلعتُ عليها في جدة ، أياً كان لونها أو شكلها ، لا ترتقي إلى العصر الجاهلي ، بل لم أرَ حتى الآن أثراً شاخصاً يرتقي إلى صُبْح الإسلام أو ظهره .

وأقدمُ الآثار الشاخصة التي شاهدتها ، مسجدان ، هما : مسجد الشافعي القائم في حارة المظلوم ، فإن بناءه المائل للبيان الآن كان بَعْضُهُ ، في سنة ٩٤٠ هـ وبعضه قبل ذلك ، كما هو مثبت على الحجرين الملتصقين ببابه إلى اليوم ، ولا يمنع هذا أن يكون قد حدث فيه ترميم أو إصلاح بعد بنائه ، إلا أن أكثر البناء القديم هو باقٍ إلى اليوم .

وقد لاحظت أنه أصبح لتقدّم عهده ، أخفّض مستوى من الشارع الذي يقع أمامه . وقد تلقيت عن قديم هذا الجامع رسالة من عمر نصيف رحمه الله ، كتبها بخط يده في أواخر شعبان ١٣٨١ هـ قال فيها :

« وأقدم عمارة في بُجدة هي الدار وقَفُّ الخدّ عبد الله نصيف أمام دار سيدي الوالد بمحلة اليَمَن ، ثم تليها الدارُ ملكُ فرج يسر سابقاً ، وهي سكني آل الحمجوم الآن بالقرب من مسجد المعيار ، وأقدم جامع هو جامع الشافعي ، وأقدم مسجد هو مسجد عثمان بن عفان رضي الله عنه . »

والمسجد الثاني القديم هو مسجد عثمان بن عفان .

هذا ، وقد أشار عمر نصيف إلى دارين قديمتين في بُجدة ، هما : دارُ جدّه ، ودارُ فرج يسر سابقاً . واعتقد - بناءً على القرائن التاريخية - أنهما بُنيتا في أواخر القرن الثالث عشر الهجري أو أول الرابع عشر .

ومن الدور القديمة ، دارُ الحكومة التي يملكها آل باناجه والتي كانت فيها قائممقامية بُجدة إلى عام ١٣٧٨ هـ ، وتقع أمام « بَرَحَة » سيارات الأجرة الذاهبة إلى المدينة سابقاً . وكان قد عمرها الدكتور عارف بك التركي ، الذي كان من أغنياء التُّرك ، وقد جعلها مستشفى حينما لم تبين الحكومة مستشفى ببجدة ، ثم وهبها للحكومة فانتقل إليها الوالي ودائرته ، وبقيت مقراً لولاية السترك والأمرام من بعدهم ،

يشبه في هذا ما حدث في بيوت المدينة المنورة القديمة في حارة الاغوات وفي زقاق الحزامي ومما شاكلها من المنازل .. حتى المسجد النبوي والمسجد الحرام في واقعهما الراهن منخفضة أرضهما عن أرض الشوارع المحيطة بها .

إلى ما قبل أمد ليس بالبعيد . وقد بنت الحكومة التركية المستشفى العام بباب شريف . وجدير بالذكر أن اللواتي كان يقم قبل انتقاله إلى الدار المذكورة - بالدار المعروفة بالمَشَوْرَة ، وكانت تقع غرب دار آل الزاهد ، وراء المسجد هنالك ، وكانت تطل على البحر لعلوها عن غيرها وقد هدمت ^١ .

وإذا بحثنا في بطون الكتب عن الآثار القديمة الباقية في مُجْدَة إلى الآن فإننا واجدون بينها مَسْجِدَ الأَبْنُوسِ ، وقد تواتر ذكر هذا المسجد لدى الرّحالة والمؤرخين قديماً وحديثاً . ذكره الرحالة ابن جبّير في القرن الهجري السادس ، وقال عنه : « وبها مسجد آخر له مبارتان من خشب الأبنوس » ينسب إلى عمر بن الخطاب ، ومنهم من ينسبه إلى هارون الرشيد ^٢ . وذكره غيره . وأضن البشاري يقصده بقوله : « وبها جامع سري » ^٣ كما ذكره بطرس البستاني فقال : « وبها جامع الأبنوس يقال : إنه يستجاب فيه الدعاء » ^٤ .

وقد تأملت بناءه الحالي ، فإذا هو من طراز أبنية القرن الثاني عشر الهجري . إن له شرفات ، وبنائه ما زال متماسكاً ، وهو مبني على « تلّ مُجْدَة » في نقطة مرتفعة ، وهو صغير ، ولا تقام فيه الجمعة الآن ، وإن كان فيما مضى جامعاً تقام فيه الجمعة .

وقبر حواء من الآثار المذكورة في التاريخ ، وهذه مزية كبيرة لِمُجْدَة لو ثبتت ، ولكن دون ثبوتها خرط القناد .

١ عن الشيخ محمد نصيف .

٢ ابن جبّير : رحلته ، ص ٥٣ ، ط بيروت .

٣ ابن بطوطة : رحلته ، ص ٤٣ ، ط بيروت .

٤ بطرس البستاني : دائرة المعارف ، ص ٤١٤ ، ط بيروت .

إن قبر حواء على طرازه المعروف هو قبرٌ طويل كَمَجْرَى نَهْيَرٍ^١ ذاهِبٍ إلى الشمال بمسافة مائة وخمسين متراً ، وشكله يشبه قناة مسدودة من طرفها الجنوبي بثلاثة جدران ، وفيه مكان لرأسها ومكان لقدميها ومكان لِسُرَّتِهَا . وكان به حَجَرٌ من الصوّان يبلغ طوله نحو متر ، محفور من وسطه .

وقد ذكر ابنُ المجاور ، هذا القبر ، فقال : « وما أظن هذه البَرَكَةَ لِحَدَّةِ مَضَاعِفَةِ أَجْرِ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ فِيهَا ، إِلَّا مِنْ جِهَةِ أُمَّ الْبِشْرِ حَوَى صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهَا ، لِأَنَّهَا مَدْفُونَةٌ بِظَاهِرِ جُدَّةٍ ، وَكَانَ الْفَرَسُ قَدْ بَنَى عَلَيْهَا ضَرْبًا بِالْأَجْرِ وَالْحِصْنِ ، مُحْكَمًا ، فَبَقِيَ إِلَى سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَسِتِّانَةَ ، فَعِنْدَ هَذَا التَّارِيخِ تَهَدَّمَتْ ، وَارْتَدَمَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَهُوَ مَوْضِعُ مُبَارَكٍ^٢ ، مُسْتَجَابٌ فِيهِ الدَّعْوَةُ^٣ . »

ولو أخذنا بقول ابن المجاور ، لاعتقدنا أن قبرَ حواءِ المزعومِ وجودُه في جُدَّةٍ هو أَقْدَمُ أثرٍ بشريٍّ على وجه الأرض ... ذلك أنه يقول : « ويقال إنما سميت جدّة ، جدّة ، لأنها دفنت بهسا أمّ البشر حواء عليها السلام ، فهي جدّة جميع العالم ، فلما بُنِيَ هذا البلد عرف باسم جدّة ، أي حواء زوج أبي البشر عليه السلام^٣ . »

١ يشبه في هذا قبور الأنبياء : هود وصالح وحنظلة في حضرموت ، وقبر سنخلة النومي فيها وكلها مفرطة في الطول على ما رواه صالح الحامد في كتابه تاريخ حضرموت ، الجزء الأول ، ط دار الكتب ، بيروت ، ص ٧٢ و ٧٣ ، فعمل للأشاس في الزعم القائل : إن قبر حواء بجدة في هسدا المكان بالذات وتطوين مساحتها هكذا ، علاقة بما قيل عن قبور اولئك الأنبياء .

٢ ابن المجاور : تاريخ المستبصر ، ص ٤٨ .

٣ نفس المصدر ، ص ٥٢ .

وتطرق ابن المجاور إلى مضاعفة أجر الصلاة والصدقة في جِدة ،
وعتَلَّ ذلك ببِرَكَّة وجود قبر حواءَ فيها ، وهو تعليل لا نوافقه
عليه . فإذا كان أجرُ الصلاة والصدقة يُضاعَفُ في جِدة ، فلعل ذلك
يَعُودُ إلى أنها دارُ «رِباطٍ» للمسلمين ، وثغُرٌ من ثغور الإسلام
الأولى ، وبابُ الحرمين الشريفين . للرباط فيها أجر كبير ، بالنسبة
لرِباط ذاته عامة ، وبالنسبة للرِباط بها خاصة من أجل حماية الحرمين
الشريفين من أي تَسَلُّلٍ مُعادٍ أجنبي . ولا يمكن أن يُعزى ذلك إلى
وجرد قبر مزعوم لحواء فيها .

على أننا استفدنا من ابن المجاور أن الذين بنوه ضريحاً بالآجر
والحصن هم الفُرسُ ، وأنه بقي على بنائه لهم ، إلى سنة ٦٢١ هـ
وإن لم يَدْكُرْ لنا تاريخُ بنائهم له . ولعله يقصد بعض جنو اليهيم
في عهد الإسلام . ثم أعيد بناؤه بعد ذلك ، وهكذا ، وقد رآه ابن
المجاور عامراً وخراباً .

هذا ، ولا يصح مطلقاً الزعمُ القائل بأن اسم جِدة (بضم الجيم)
هو مأخوذ من اسم جِدة البشر (بفتح الجيم) وذلك لتباين الصيغتين :
جِدة (بضم الجيم) وجِدة (بفتحها) ، في الوضع وفي المعنى معاً كما
هو واضح .

ومن آثار جِدة ، هذه الصهاريج التي كانت مخازن للماء العذب
في القرون الخالية . ومن الصهاريج القائمة أطلالُها إلى اليوم صهريجُ
المَشَاطِ العائدُ للشيخ محمد نصيف ، وصهاريجُ أخرى في المحلتين :
البغدادية والشرفية ، وهما كلها قديمة البناء مَتِينَةٌ ، ولربما يكون من
بينها ما له عدة قرون . وهذه الصهاريج بُنِيَتْ بالطوب الأحمر والنورة
البلدية بناءً مُحْكَمًا ، يُمَكِّنُهَا من اختزان المياه ، ومقاومة الجُو
والموازرة في حالة حصارها ..

ومن صهاريج الماء الخاصة ، صهريج مسجد الشافعي الذي يشمل أسفل ساحته الكبيرة ، وصهريج دار الشيخ محمد نصيف في حارة اليمّين ، وهو يشغل سفلى الدار منداً وشاملاً لكل ما تحت مكتبه المظل على الشارع العام ، وهو في شكل عقود كالأقنية المتينة أو المخابى الحديثة القوية البناء .

• • •

والمتاحف ، هل يوجد شيء منها في جدة ؟

إن المتاحف لها أهمية كبيرة في وصل حضارة اليوم بحضاراته القرون الغابرة . ويوجد في جدة « متحف » حكومي للعاديات^١ يقوم في دار كبيرة بجوار دار معمل الأحماث ، وتتبعان وزارة البترول والثروة المعدنية .

كان المتحف قبل إنشاء هذه الوزارة تابعاً لمكتب المعادن ، ويشغّل الطابق المتوسط من الدار .

ويفيدنا « سنت جون فيلبي » بأنه جلب اليه مجموعة لا بأس بها من قطع الحجارة المنقوشة وبقايا أواني الخزف وقطع النقود وما أشبه ذلك : مما جمعه في رحلته إلى شبال المملكة السعودية عامة ، ومن خرائب تيماء القديمة ومدائن صالح خاصة . ويقول فيلبي : إنه عرض ذلك كله بالمتحف لمن شاء أن يجزي عليه دراسة^٢ .

١ أي الآثار القديمة . وقد نقلت الآثار الموجودة بهذا المتحف إلى مدينة الرياض مؤخراً ، ونحن هنا نصف محتوياته كما كانت قبل نقلها .

٢ سنت جون فيلبي : أرض الأنبياء ، مدائن صالح ، ص ٩٥٩ و ١١٣ ، ترجمة عمر الدبرايي نعيم بيروت ، وهي ترجمة كثيرة التحريف للاسماء العربية حتى ان الترجمة تحتاج إلى ترجمة أخرى صحيحة .

كما حَدَّثَنَا بأن أحمد فخري الذي هو أحد تلاميذ « ك. س. توينشل » كان المسؤول عن هذا المتحف الذي انشئ استناداً إلى مبادرة من رجل الإنكليزي من (ويلز) يدعى « جيبس » . ثم عمر هذا المتحف بالكثير من الآثار خاصة تلك التي كان فيلبي قد جمعها في رحلاته السابقة ، ثم أضيفت إليه النقوش والآثار التي وجدها في رحلته الآنف ذكرها والرحلات التي تلتها .. ويقول : « إنه أثاره سَمَرُ (جيبس) بعد أن انتهى تعاقد مع الحكومة السعودية ، وذلك لأن المتحف وما يحتويه - وكان بعضه ذا قيمة كبيرة ونادرة - سيكون عرضة للتدمير ، وكان (فيلبي) يخشى أن أحداً من رجال الحكومة لن يكلف نفسه مشقة زيارة المتحف أو حتى اللقاء نظرة واحدة على محتوياته ، رغم أنه « أي فيلبي » كثيراً ما ذكر أمام المسؤولين أهمية الموجودات فيه ، وكذلك أهمل اقتراحه الذي قدمه فيما بعد ، بأن يشرف الملك هذا المتحف بزيارة سامية^٢ .

لقد أزمعتُ زيارة هذا المتحف ، التابع لشؤون الفنية للثروة المعدنية بجدة ، فذهبتُ إليه في يوم الخميس الموافق ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٨٢ هـ - ١٦ أغسطس ١٩٦١ م ، واستقبلنا معتوقاً بالحجرتي مدير معمل الكيمياء التابع لوزارة البترول والثروة المعدنية ، وبعد تجوال معه في معمل الأبحاث دَلَّفْنَا إلى المتحف المائل بجواره في عمارة مستقلة كبيرة ، فوجدناه مليئاً بالآثار والعاديات العربية . وكلها من جزيرة العرب ، وأغلبها من نواحي المملكة العربية السعودية . فهو يمثل حضارات جاهلية قديمة خير تمثيل ، كما أن به بعض آثار إسلامية

١ لم يحدث والله الحمد ما توقعه فيلبي فبقي المتحف قائماً عموداً بذخائره ، وإن تم نقله إن سببته الرياض وأعيدت اقامته بها ملبغاً بوزارة المعارف في عناية وصيانة حقتين .

٢ أرض الأنبياء ، ص ٨١ .

قديمة ، وآثار وعاديات من بلاد اليمن ، وآثار رومانية في جوانب المملكة العربية السعودية ، لا بد أن العرب القدامى جلبوها أو نحتوها . وقد حصرنا موجودات المتحف فكانت حسب ما يلي :

١ - مبخرة حجرية من آثار سيل ، وهي مربعة الشكل مرتفعة القامة من حجر الغرانيت ، وقد أتى بها من تعز ، لإبراهيم بن معمر ، أيام كان سفيراً للمملكة في اليمن . وقبض ثمنها من الحكومة .

٢ - تمثال روماني من الفُصَيِّر ، جنوب بلدة الوجه في وادي الحمض ، جاء به فيليبي وقدمه هدية للمتحف .

٣ - كتابة سبئية منقوشة على حجر جيرى أبيض ، أتى بها إبراهيم بن معمر ، من تعز باليمن ، وقبض ثمنها من الحكومة .

٤ - جزء من عمود مرمرٍ وُجِدَ في أم القريات ، قرب الوجه . قدمه فيليبي للمتحف هدية .

٥ - عديد من مطاحن الذهب العربية باليد ، من صغيرة ومتوسطة وكبيرة ، مصنوعة من حجر البازلت الأسود ، ومن حجر الغرانيت ، وجدت في منجم ظلم وفي المهند .

٦ - حجر لذبح القرابين داخل معبد ، وجد في قرية (وادي الدواسر) ، وجاء به فيليبي هدية للمتحف ، وهو من حجر رملي أبيض .

٧ - تماثيل صغيرة لأشخاص من حَجَرٍ مختلف ، ما بين رخامٍ ورملي ، وهي سبئية ، أتى بها إبراهيم بن معمر من تعز وصنعاء .

- ٨ - هاوونٌ حَجَرٌ بازَلْتِ وجد في مهد الذهب .
- ٩ - قطعة من نحاس منقوشٌ عليها كتابةٌ سبئية أتى بها إبراهيم بن معمر من تعز وصنعاء .
- ١٠ - كتابات سبئية على حجر رملي ، أهداها فيلبي للمتحف .
- ١١ - بيضة نعامٍ متحجرة جاء بها فيلبي من « النُفَر » قرب تبوك . وأهداها للمتحف .
- ١٢ - قطعٌ فخارٌ كثيرة من صغيرة ومتوسطة ، من الجنوب الشرقي للطائف ، أهداها فيلبي للمتحف .
- ١٣ - مكاحيلٌ زجاجيةٌ صغيرة قديمة ، لم يبق إلا أعناقها ، وقبدها أهداها فيلبي للمتحف .
- ١٤ - هاوونات من البازلت وجدت في منطقة ظلم ، جاء بها إلى المتحف موظفو المعادن .
- ١٥ - هاوونٌ كبيرٌ من حجر البازلت قطره (٦٠) سانتياً ، وجد بجدة وعليه كتابةٌ محفورة أو نقش قديمان .
- ١٦ - أوانٌ من حجر الصابون وجدت قرب قصر إزلام أو إسلام ، هدية من فيلبي .
- ١٧ - قطعة حجر سوداء كبيرة من حجر الحديد عليها رسم جَمَلٍ منقوشٌ بطريقة فنية بارزة .
- ١٨ - قطعٌ كثيرة من فخار نبطي ، وجدت في قرية تبعد عن تبوك في شاطئ الغربى بـ (٤٥) كيلومتراً في « أم الدببة » - بفتح الدال المهملة المشددة بعدها باء مشددة مفتوحة فناء مربوطة -

- ١٩ - مجموعة إنسان نبطي ، وجدت في مقابر الألباط بالشمال - هدية من فيليبي .
- ٢٠ - طَسْتُ رِخَامِيَّ جميل صقيل من آثار الثموديين ، قطره (٦٠) سنتيمتراً وعمقه (٢٥) سنتيمتراً ، أهداه ولي العهد إذ ذاك ، للمتحف . وجد هذا الطست بقوز الجعافرة^١ قرب جازان .
- ٢١ - تدوين "كتابي" على حجرٍ وُجد في (قوز الجعافرة) قرب جازان . أهداه للمتحف ولي العهد إذ ذاك أيضاً .
- ٢٢ - قطعة حجر منقوش عليها كتابة عربية كوفية محفورة حفرأً واضحاً جميلاً ، والخط جميل وكبير .
- ٢٣ - جزء علوي من عمود ، وجد في «قوز الجعافرة» بقرب جازان هدية من ولي العهد إذ ذاك .
- ٢٤ - قطع زجاجية كثيرة خضراء وبيضاء ، وجدت في مدينة خرائب «حرّة خريدة» ، هدية من فيليبي .
- ٢٥ - قطع فخارية وزجاجية وجدت في «هواره - مدين» بالشمال .. من آثار ثمود ، هدية من فيليبي .
- ٢٦ - قطع صداف وجدت في مَسْكَنَةِ مَدِينٍ ، من آثار ثمود (هدية من فيليبي) .
- ٢٧ - عمود من حجر رملي أبيض ، فيه زخرفة عربية على شكل معين ، وجدت في «قوز الجعافرة» بقرب جازان . أهديت للمتحف من (ولي العهد ، إذ ذاك) .

١ فوز الجعافرة : تل مرتفع على ساحل البحر بين صيها وجازان « عن السيد محمد السوسي » .. ويلاحظ أنه مكتوب في تعريف هذا الأثر بالمتحف اسم : «فوس الجعافرة» وهو تعريب غلط صحته ما ذكرناه . ولعل أصله (فوز الجعافرة) و (لقوز) هذا بمعنى التل .

- ٢٨ - تدوين كتابي على حجرتين رمليتين من نجران (أهداها فيلبي ،
وريكان ، للمتحف) .
- ٢٩ - قِطْعُ فخّار وجدت في الأخلدود بنجران من آثار السبئيين ،
(هدية من فيلبي) .
- ٣٠ - مجموعة قِطْعٍ فخّارية وجدت في قرية «الشمّور» على بعد
(١٠٠) ميل جنوب وادي الدواسر .
- ٢١ - تدوين كتابي على حجرتين من الرمل الأبيض من آثار السبئيين
وجدتا في قرية «الشمّور» على بعد (١٠٠) ميل جنوب وادي
الدواسر ، ويرجع تاريخ السبئيين إلى ما بين عام ٢٠٠ ق.م.
و ١٠٠ ب.م .



من رسوم متحف آثار جدة الذي نقل إلى الرياض

هذا وقد أهدى إلى المتحف حمد محمد العيبيدي بعض ما
اكتشفه في رحلاته بالمملكة وذلك :

- ٣٢ - قطع فخارية وجدها قرب قصر السمائل بن عاديا ، بتياء .
٣٣ - مجموعة فخارية وزجاجية وجدها بميناء المدينة القديم : « الحار »
ويعرف حالياً بالبُرَيْكَة (بضم الباء الموحدة بعدها راء مهمله
مفتوحة فباء مثناة تحية فكاف فناء مربوطة) .
٣٤ - قطعة من جمجمة إنسان وجدها مدفونة في سور قصر السمائل
ابن عاديا في تياء .

هذه جملة أهم موجودات المتحف ساعة كتابة هذا البحث . وكل
التحف موضوعة على مناخذ خشبية ومكتوب بجانبها التعريف عنها ،
ومن أهداها ، أو جلبها ، ولن تعود ، ومن أين جلبت .

هنا وتشتمل الحجارة المنقوشة بالخط العربي ، أسماء متوفين
والترحم عليهم ، وفي بعضها إختبار أو اشعار بحوم حول البريد حيث
ورد فيه ما نصه : (منا من البريد وهو على أشرف سنن بريسد من
الكوفة) وهذا الحجر مكسور كما يستبين من الاطلاع عليه .

متحف آل باعشن بجدة

كما أن بجدة مُتَحَفٌ آخَرٌ خَاصاً ، وهو أقدم بكثير من المتحف الحكومي الذي أشرنا إليه آنفاً . وكان قد أنشأه الشيخ المعمر محمد صالح بن علي باعشن المتوفى سنة ١٣٨٠ هـ .

وكان مبدأ تأسيسه لهذا المتحف الخاص بسنة ١٣٢٠ هـ وقد جمع فيه آثاراً وتُحَفاً نادرة من مختلف بلاد العالم : من مصر ، ومن السودان ، ومن إيران ، ومن الهند ، وحتى من الصين . والمتحف والآثار التي جمعها لا تزال مصفوفة ومرتبة في غرفتها المخصصة لها في الدور الثاني من داره في محلة الشام .

وكانت طريقة تجميع محمد صالح باعشن لهذه التحف أن يوصي بعض أصدقائه الذين اعتادوا أن يجوبوا بعض أنحاء العالم - بإحضارها له ، ويأخذها منهم بئس مرتفع ، وكان من هؤلاء الأصدقاء محمد العروسي التونسي المدني الذي كانت بلاد الهند منطقة جولائه ورحلاته .
وصديق آخر اسمه محمد باسراجيل المولود في أندونيسيا .

ولم يشر محمد صالح بن علي باعشن ، رحمه الله تعالى ، إلى هذا المتحف ، في مذكراته الخُطْبِيَّةِ التي بدأ في إملائها سنة ١٣٥٩ هـ ، وانتهى منها في سنة ١٣٦٥ هـ .

• • •

وَأَخْبَرَنَا مُحَمَّدٌ عَارِفٌ بِأَنَّهُ يَوْجَدُ لَدَى مُحَمَّدِ إِسْمَاعِيلِ التَّاجِرِ مَجْدَّةً
مَتَّحِفٌ خَاصٌ بِهِ فِي دَارِهِ بِمَحَلَّةِ الْيَمَنِ ، يَحْتَوِي عَلَى تَحْفٍ مِنَ الْخَرْفِ
قَدِيمَةٍ ، ذَوَاتِ أَشْكَالٍ مَنُوعَةٍ .

• • •

أَمَّا الْفُنُونُ فَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ مَجْدَّةً مِنْهَا أَلْوَانًا ، مِنْ أَمَمِيَّهَا هَذِهِ
الزَّخْرَفَةُ مِنَ النَّقُوشِ الَّتِي نَرَى وَجِهَاتٍ بَعْضُ قُصُورِ أُجْدَةٍ مَزِينَةٌ بِهَا ،
وَالِإِلَى جَانِبِهَا هَذِهِ النَّقُوشُ الْفَنِيَّةُ الَّتِي تَحُلِي بِهَا بَعْضُ أَبْوَابِ الْمَنَازِلِ وَرَوَاشِينِهَا
وَبَعْضُ الْجُدْرَانِ .

هَذَا وَقَدْ رَوَى أَبُو بَصِيرٍ بَاشَا - كَمَا أَسْلَفْنَا - أَنَّ السَّيِّدَ عَمْرَ
السَّقَافِ حِينَمَا بَنَى قَصْرَهُ الْمُنِيْفَ فِي الْكَتَنْدَرَةِ جَلَبَ لَهُ مَزَخْرَفَاتٍ هِنْدِيَّةٍ
وَصِينِيَّةٍ خَاصَّةً ^١ .

• • •

وَمِنَ الْفُنُونِ الْجَمِيلَةِ فَتَنَ التَّطْرِيْزُ ، وَقَدْ كَانَتْ النِّسَاءُ فِي أُجْدَةٍ
يَقْمُنُ بِتَطْوِيْزٍ يَدَوِيٍّ لِلْمَلَابِسِ وَالْفُرُشِ بِأَلْوَانٍ مِنَ الْخِيُوْطِ الْحَرِيْرِيَّةِ
وَالذَّهَبِيَّةِ وَالْفُضِيَّةِ وَبِالْتَّرْتَرِ وَغَيْرِهِ .

وَقَدْ دَخَلَ فَتَنَ الرَّسْمِ إِلَى مَدَارِسِ أُجْدَةٍ حُكُومِيَّةٍ وَأَهْلِيَّةٍ ، وَهُوَ
أَمْرٌ نَأْمَلُ أَنْ يَنْتِجَ لَنَا رَسَامِينَ فَنِيْنٍ وَفَنِيَاتٍ كِبَارًا ذَوِي مَوَاهِبٍ مِمْتَازَةٍ .

• • •

وَمِنَ الْفُنُونِ الْجَمِيلَةِ الْحَدِيْدَةِ مَجْدَّةُ « فَتَنَ التَّصْوِيْرِ الْآلِي » . وَأَوَّلُ
دَخُوْلِهِ كَانَ فِي عَهْدِ الْأَتْرَاكِ . حَدَّثَنِي الشَّيْخُ مُحَمَّدُ نَصِيْفٌ بِأَنَّهُ فِي سَنَةِ

١ - مَرَاةُ الْحَرَمِيْنِ بِالْمَعْنَى الْاِتْرَاكِيَّةِ لِأَبُوْبِ صَبْرِي بَاشَا .

١٣٠٠ هـ ، أَخَذَ رَسْمَهُ وهو ابن ستة أشهر ، المستشرق الهولندي «سنوك هرجرونه» الذي كان يومئذ نزيلاً «جدة» قادماً إليها من مصر . وكان ذلك برغبة من الشيخ عمر نصيف جد الشيخ محمد لأبيه . وهذا يدل على أن الرسم الفوتوغرافي كان معروفاً بجدة في مطلع هذا القرن الهجري ، كما يدل على أنه كان وقتئذ مقصوراً على الأفرنج من نزلاء هذا البلد ، وخاصة دور القناصل بها .

آثار وادي بويب

في وادي بويب ، بقرب جدة ، وإلى الشمال الشرقي منها على بعد نحو ١٥ كيلومتراً ، عثر على نقش ثمودي ، نصه وتفسيره كما يأتي حسب ما ورد في كتاب : « من الساميين إلى العرب »^١ لنسيب وهيبه الخازن :

التفسير باللغة العربية الواضحة الآن	الاصل
يا كاهل (الله) اجعلني كاملاً سلام(ود)	هكهل ائمن ورد
رسول التباب ذهب (فل)	شمل اكه التيب فلل
يا رضى اسمع للملوك الرئيس (ورضى اسم صنم معروف في عهد الجاهلية الأولى)	هارضو سمع للملوك هاوالت
هنا ساكت بن يشعن بات ليله	هسكت بن يشعى بت
محل حب ماوات	محل حب مت

١ ص ١٦١ ، طبع مطبعة الحياة ببيروت ١٩٦٢ م .

حمت جمات جمات أصيب بالحمى^١ .

(وجمات - على ما أرى - اسم «جمعة» و «حمت» أي أصيب بالحمى ، ولم يدغم كاتب النقش اليمين في بعضها ؛ لأن ذلك لم يُعرف في الكتابة بعد . وقد تكون جمعة امرأة كاتب النقش لأنه أنث فعل الماضي : (حمت) .. وهذا خلافاً لما رآه الشيخ نسيب وهيبة الخازن من أن (جمات) اسم رجل .

١ انظر كتاب من الساميين الى اقرب .

عَسِير
مَلَامِحُ وَأَشَار

عسير

لعل أقدم مرجع عربي عُنِيَّ بعسير هو كتاب «صفة جزيرة العرب» للهمداني . ولكنَّهُ لم يذكر عسيراً على أنه اسم لمنطقة أو إقليم كما هو موضوع بحثنا .. وإنما أورده على أنه اسم لقبائل عربية متساكنة .

يقول : «ثم يواطن حزيمة من شأميها ، عسيرٌ : قبائل من عنزة» . ويحدد لنا مواطنين هذه القبائل فإذا بها لا تخرج عن مواطنها الحالية تقريباً فيقول : « فأوطان عسير إلى رأس تبة ، وهي عقبة من أشراف تهامة .. وهي أبها ، وبها قبر ذي القرنين فيما يقال .. عثر عليه على رأس ثلاثمائة من تاريخ الهجرة^١ .

ويفيدنا فؤاد حمزة بأن «عسيراً» كاسم جغرافي ، هو اصطلاح حديث جداً ، يعود إلى نحو ١٥٠ عاماً خلت فقط . أما هو كاسم لقبيلة أو خلف قبائل فقديماً جداً .. والأصل في الاصطلاح الجغرافي هسو لإطلاق اسم القبيلة على البلاد التي تسكنها فيقال : بلاد عسير ، ثم أهملت النسبة ، واشتهرت البلاد باسم (عسير) . وقال : إنها كانت في العهد العثماني متصرفية ، وقال : إن قبائل عسير تعود إلى أسلم على خلاف في ذلك .

١ صفة جزيرة العرب ، ص ١١٨ ، طبعة مصر ١٩٥٣ م .

ويعطينا الحمدانيّ مواطن قبائل عسير وقد عد منها العشر التالية
اسماؤها : الدارة ، وأبها ، والحللة ، والفتيحا ، فحمرة ، وطيب ،
فأناة ، والمغوث ، فَجْرُشَة ، فالأيداع . ويضيف إلى ذلك قوله :
« أوطان عسير من عنز ، وتسمى هذه الأرض طَوْدًا » كما عدد غيرها
من مواطنهم الكثيرة ^١ .

وتقع مواطن عسير على ضفاف أودية منها : الدارة ، والفتيحا ،
واللصبة ، والملحة ، وطيب ، وأناة ، وعبل ، والمغوث ، وجرشة ،
والحدبة ^٢ .

وتدلنا إقامة القوم على ضفاف الأودية الحارية على أنهم كانوا يتقنون
من وراء ذلك تأمين « لقمة العيش » ، إذ على شواطئ هذه الأودية ،
يمكنهم إيجاد مزارع القمح والذرة والشعير والقواكه والبقول والخضراوات
التي تقوم بغذائهم وكسائهم .

وعسير - القبائل والموطن - هما في سلسلة السّراة التي هي
الجبال والأرض الحاجزة بين تهامة واليمن ، وتشرف على البحر الأحمر
من المغرب وعلى نجد من المشرق . وتحديد هذه المنطقة بالدقة كما يصفها
رحالة مشاهد هو : أنها (تتألف من الجبال والأودية والسهوب الواقعة
بين أعلى سِراة الأزدي في الغرب ، وبلاد قحطان في الجنوب ، وبلاد الحَمَرِ
وبلاد السَمَرِ في الشمال) . وبعبارة أخرى هي البلاد الواقعة بين جبل تمنية
وعقبة القرون ووادي دكان الممتد إلى « الحقو » بالبحر ، من جهة
الجنوب . وبلاد بني شعبة وربيعة باليمن ، ورجال أَمْع ووادي حلي
من جهة الغرب ، وعقبة شعار ووادي (تَيْبَة) والسهب الممتد إلى

١ ص ١١٨ من نفس المصدر .

٢ ص ١١٨ من المصدر السابق .

بلاد بالأحمر من الشمال ، وسلسلة الهضاب والسهوب المتصلة ببلاد
شهران ، من الشرق . وإذا قيست المسافات بالساعات للمشاة ، كانت
المسافات من (شعار) في الشمال ، إلى (تمنية) في الجنوب ، ثلاثاً
وعشرين ساعة بالمشي السريع .. والمسافة من الشرق إلى الغرب ،
تقرب من المسافة التي من الشمال إلى الجنوب وهي بين أبها وبلادشهران
تبلغ (٣٥) كيلومتراً . وعلى هذا الاعتبار تكون بلاد قبيلة عسير عبارة
عن بقعة من الأراضي الجبلية يبلغ طولها ١٥٠ كيلومتراً وعرضها ٤٠
كيلومتراً على وجه التقريب^١ .

* * *

ومنايع أودية عسير العشرة هي من عقبات عسير الجبلية .. فنولا
العقبات العالية ما تكونت الأودية الفيضانية إلى السهول . وتبلغ (٢٤)
عقبة .. وهي ما بين رئيسية وفرعية . واتفق الهمداني وفواد حمزة في
تعداد أودية عسير .. لقد عدّها لنا عشرة أودية . ومنها بعض ما
ورد عن الهمداني اسمه ، ومنها ما هو مختلف عنه ، وهو الأكثر
فيما أورده فواد حمزة .

يقول فواد حمزة : إن أودية عسير هي : وادي نخيبي ، وادي
الملاحه ، وادي أمانة ، وادي طيب (وقد أوردها الهمداني) ،
وادي جوجان ، وادي ضلع ، وادي مرية ، وادي عنود .
وقال : إن الحقيقة أنهما واديان : أحدهما شرقي والآخر غربي ،
وكلاهما ينبع من عقبة عنود التي كانت مسكن الأُسُود في شبه جزيرة
العرب^٢ .

وتبلغ قرى عسير اثنتين وثلاثين قرية بعد المائة .. وهي متصلة

١ في بلاد عسير : لفواد حمزة ، من ص ٨٨ إلى ٩١ .

٢ المصدر نفسه ، ص ٩٥ .

بعضها بحيث يرى المسافر القرية تلو القرية طيلة رحلته في ربوع عسير ..
وقدر عدد سكانها بمليون ونصف المليون ، ولربما كان هذا التقدير
لا يخلو من مبالغة . والإحصاء الصحيح للسكان تُعنى به الحكومة ،
لما لُمت من مزاياه . وأغلب السكان شافعيو المذهب وتوجد قلة
منهم حنبليون . والمرأة سافرة في القرى والبيادي .. عاملةٌ مُجيدةٌ ..
ويستعملون في لباسهم جلود الحُمْلانِ : (صغار الضأن) المدبوغة
المخروزة ، وفي تهامة عسير تغطي النساء رؤوسهن بالطفشة ، وهي
قبة من خوص .. ونساء الحاضرة في جبال عسير يستعملن الخمار على
رؤوسهن ، وتلبس الأبيكار قبةً خوصٍ مصنوعةً من القماش .

والعسيريون يلبسون القمصان المجنبة البيض ، ونساؤهم يلبسن هذه
القمصان حمراً وسوداً فقط . كما يرتدين العباءات الثمينة ويتحلين بالدمالج
والخلاخل ، وبالخواتيم والعقود ، وبالأساور الذهبية والفضية . ومن
الجلد مضفور تستعمله النساء كالحزام .. ومن عجب أن هذه « النسعة »
وبهذا الاسم نفسه يستعملها رجال قبائل حرب وأطفالهم في جنوب المدينة
المنورة بينها وبين رابغ ، كما يستعملها رجال جنوب مكة من بعض
القبائل كقبيلة هذيل ، وهي تستعمل في عسير للنساء فقط بالاسم
نفسه .. وتلبس ربيعة (التُّمُوطَ) ويتقلد رجال عسير خناجر طويلة
تسمى الواحدة (جنبية) . وأكبر خناجرهم ما يلبسه رجال أُلَمَع .
ومعظم نساء هذه القبيلة يخرفن آذانهم لتحليتها بالزمام . ومن ملابسهم
كذلك « السبتة » وهي حزام من جلد منقوش مخروز تمنطق به النساء
فوق أثوابهن . و « المكفة » قطعة جلد بشكل إكليل تضعها النساء فوق
رؤوسهن ، و « إكليل » من الحسف والأعشاب البرية العطرة كالشيع
ليمسك الشعَرَ عن تلاعب الريح به . و « الشملة » عباءة من الصوف

١ تاريخ عسير تميمي ، ص ٦٢ .

قصيرة جداً ، تُطرح على الكتفين ، وهي لباس الأغنياء ^١ .

• • •

أما وقد ذكرنا «الملابس» ، فبقي أن نذكر «المطاعم» . إن طعام العسيريين الرئيسي الوطني هو «البُر» و «السمن» وكلاهما من إنتاج بلادهم . واللحْمُ مقامه في الأعياد والمواسم والضيافات . والفاكهة والخضراوات وجودهما كعلمهما .. وهناك طعام العسيريّة أهم الأطعمة وأعمّها . ونوع آخر من الخبز يُسَوَى على النار في «الطابوق» أو في إناء ثم يُصَبّ عليه السمن والعسل ، أما اللحم السابق فيقطع لرباً ^٢ .

وفي عسير آثار مظلورة ، وآثار ذكرها لنا المؤرخون .. ومنها الكهف الذي يحوي جُثث أربعة أموات قدامى ، أحدهم رجل ضخّم الحثة جداً . ويوجد هذا الكهف المجهولُ الأجدث في غارٍ بالشرحة : جبل شامخ ، يفصل بين تمنية وتمامة ، وفي قمته يقع الغار المسكون ، وقبر ذي القرنين الذي ذكرنا أن الهمداني قد ذكره بأبئها . ومع أن فؤاد حمزة عد هذا من باب التخريف إلا أن عمر رفيع رداً عليه وأبدى أن ذا القرنين هذا الذي يقال إن قبره بأبها هو غير ذي القرنين الاسكندر المقدوني اليوناني .. إنه عربي صميم من أهل هذه الدارة ^٣ . ومن رأيي أن نقاض البناء التي أخذ رسمها عمرُ رفيع في كتابه ، هي نقاض لبناء مستجد في عهد الإسلام ولا يرتقي إلى عصر ذي القرنين مطلقاً ، وإنما بُنيَ في عهد انتشار الاعتقادات الخرافية في عصور

١ في بلاد عسير : لفؤاد حمزة ، ص ١٢٧ .

٢ في بلاد عسير : لفؤاد حمزة ، ص ١٢٧ و ١٢٨ .

٣ ص ٤٤ من كتاب في ربوع عسير ، لعمر رفيع .

التأخر والجمود . وقد أقامه بعضهم بعد ما شاع أن قبر ذي القرنين كان هناك ، بدليل وجود مسجد بجوار الأنقاض ، وبدليل هدم الضريح من عهد ليس بالبعيد ، وليس من المعقول أن يبقى بناء قبر ذي القرنين القديم على حاله إلى يومنا هذا حتى يُهدم . فليس في جزيرة العرب بناء قائم على حالته - فيما أعلم - منذ ذلك العهد مطلقاً سوى ما في مدائن صالح^١ ، ولا بُدّ أنه توجد آثار مطمورة أو مبهوطة في تلك المنطقة الحصينة المعروفة بالازدهار من قديم الأزمان . والتفتيب العلمي الرصين كفيلاً بإظهار الحقائق الكامنة .

* * *

وبعير ثروة زراعية وحيوانية .. فمما يُزرع بها ويجود ، أنواع الحبوب : كالدخن ، والذرة ، والقمح ، والشعير ، والقطن . والزيتون البري منتشر هناك ، وهو بحاجة إلى التلقيح لبشر ، وقد أخذت الجهات المختصة تُعنى بذلك ، ومن مشهور حبوبها حبّ الهَميس^٢ الذي كان يجلب بكميات وافرة إلى أسواق الطائف ومكة إلى عهد غير بعيد . ومن ثروتها الزراعية غابات العرعر . والجسل كثير بها .. ولاشتغال أهلها بالزراعة كانت البادية الرّحل قِلبةً بينهم .

ومن ثروتها الحيوانية المَعزُ والأبقار والإبل والحمير ، وقد شاهدت عمر رفيع إبلاً صاعدة في عقبة كوؤود بكل مشقة ، وصاحبها يساعدها بدفعها على السير إلى أعلى . وبعير ، النمرور وأنواع الثعابين ، والطيور المغردة ، وكان بها الأسود في عقبة (عتود) .

* * *

١ ولعل سبب ذلك أن بيوت مدنن صالح منقورة ذفراً في الجبال وليست بناء بالمعنى المتباد في البيوت .

٢ أي قنب الهسيس ، ويمتاز بصفرة اللون وضخامة الحبات .

وفيهما معادن : كـمعدن التـيـبـر بجبل (ضنـكـان) من أعمـال
الصحمة^١ . ويصفه الهمداني بأنه معدن غزير لا بأس بشبهه . ومعدن
جبل (تهلل) الذي يرتفع عن سطح البحر بـ (٢٨٧٥) متراً ، ويقع
إلى الشمال من قرية السودة ، وهو معدن حديد . وكان صناع عسير
يستخرجونه بطرقهم البدائية ، ليصنعوا من حديدته أدواتهم المنزلية
والزراعية وغيرها ، ولا تزال آثار المصانع بقرية السودة موجودة
لليوم^٢ . ويسمى جبل تهلل عن أهلها ، عشرين كيلومتراً ، إلى الغرب
منها ، وفيه ينابيع جارئة في الصيف والشتاء . وارتفاعه أحد عشر
ألف قدم^٣ .

ولم يُورد رشدي ملحق هذا المعدن في كتبه الموجز : « بحث
المعادن » .. لقد كان تأليفه له وطبعه قبل ظهور كتاب « في بلاد عسير »
لفؤاد حمزة ، وكتاب « في ربوع عسير » لعمر رفيع بنحو ربع قرن .
وهما اللذان قاما برحلتين إلى بلاد عسير وجابا مدنها وقراها
وجبالها وكتبتا عنها معلومات أوسع ، مبنية على المشاهدات والمسوحات .

وفي عسير مناجيم أخرى للحديد والرصاص والمركبات الكبريتية
والنحاس . ويوجد الملح الصخري في سفوح عسير الغربية . وفي فرسان
على سواحله مكان النفط ، ومعدن الاسمنت . وفي أطراف جازان
ممالح صخرية ثمينة . وفي رفيدة ، معدن للحديد يستخرجه الأهليون
بالقووس . وفي الصليف معدن الملح . ويوجد معدن للنحاس قرب
سوق الاثنين . وأكثر الجبل هناك يُرى وهو يلمع صفرة ، وتراه

١ تاريخ عسير ، ص ٦١ .

٢ تاريخ عسير في الماضي والحاضر . لهاشم بن سعيد التميمي ، ص ٦٦ و ٦٢ ط . مؤسسة الطباعة
والصحافة والنشر .

٣ في بلاد عسير : فؤاد حمزة ، ص ١١٣ و ١١٤ .

أصفر بَرّاق^١

• • •

هذا وللعسيريين لهجة خاصة بهم ، في نبراتها وبعض تعبيراتها . وفيهم طمطمانيّة وكشكشة وينطقون بأمر بدلاً من (أل) ، ولا ينطقون بالحيم . أنهم يبدلون بالياء . ويقولون : « كيف حالش » بدلاً من « كيف حالك » . و « إيش يش » بدلاً من « إيش بك » ، و « امكتّاب » بدلاً من « الكتاب » . والمعز في لهجتهم اسمه (زعابة) و (أريد) عندهم هي (ميدي) . ومن أناشيدهم البلدية :

يا عسير امهول ما هذي القضية وِدّنا نجران نهب له سرية

يريد : يا عسير الهول ما هذي القضية

ويقولون : « صليت في المسيد » أي في المسجد . ويقلبون النون راء : « محمد بر يعقوب » أي « ابن يعقوب » ، « فاطمة ايرة سالم » أي « ابنة سالم » . ويقلبون الظاء والضاء لأمّا : (فأت اللّهر) أي « الظهر » وهي لهجات عربية قديمة .

• • •

ونرى أن تاريخ عسير ينقسم إلى ثلاث صفحات : صفحة مجهولة إلا من أخبار ، بعضها خرافيّ إن لم يكن جليها وهو ما كان في عهد الجاهلية . و صفحة معروفة معرفة غير مستوفاة من جميع النواحي ، وهذه الصفحة تتمثل في صدر الإسلام وما بعده . فقد أسلم جماعة من العسيريين ، ودخلت عسير كلها في حظيرة الإسلام في زمن الرسالة ، وسار بعض رجالاتها في جيوش الفتوحات الإسلامية ،

١ بحث المائدن ، من انصفحة ٧٧ إلى ص ٨٠ .

وأهل عسير معروفون بالشجاعة ، وكان منهم العلماء والأدباء والشعراء .. ونأظم أول الأمر قسط من الاستقرار بعد ذهاب غيبة عصر الجاهلية والقبلية الطائشة ، ثم دخلوا في فوضى النزارية والبهائية ، واستنفدت - أخيراً - طاقتهم الحروب المتوالية الداخلية والخارجية ، وأكلتهم الفتن ، في عهود الفوضى بدول الإسلام ، بعد انقضاء العصر الذهبي ، وتفشي الجهل فيهم ، وانضمت بلادهم ، إلى الغزاة الفاتحين في شرق وفي غرب .. انضموا تارة إلى الحجاز ، وتارة إلى الأتراك ، وتارة إلى غيرهم ، على ما هو مفصل في كُتُب التاريخ .. وما حظوا بالاستقرار والأطمئنان إلا في عهد الحكومة العربية السعودية . فقد نظمت في عهدها شؤون الإدارة ورتبت : وأرسلت الهيئات لتأمين مشروعات الإصلاح في ديارهم . وعيّدت طرقهم الوعرة فتنفسوا الصعداء ، وأصبحت السيارات تشق عقباتهم المكاداة العائية بعد أن كانت الحمر والجمال تُرهقُ بصعودها وعبورها .

والآن عاصمة المنطقة هي (أبها) المدينة العروس الجميلة . وقد اتسع عمرانها ، وأدخلت إليها وسائل المعرفة والتقدم ، شأن المدن والقرى الأخرى بالمنطقة ... كما أنشئ مطار حديث في مدينة (خميس مشيط) مما سهل المواصلات برآً وجواً إلى ربوع عسير ، بعد أن كانت (شبه مغلقة) بسبب وعورة طرقها ووعورة مسالكها .. مما دعا بعض الباحثين إلى أن يقرن بين اسم (عسير) الذي يطلق عليها ، ومساها من هذه الناحية .

* * *

الأثار
شمال البلاد العربية السعودية

رحلة الشمال

بدء الرحلة

في الساعة الثالثة والربع من يوم الثلاثاء الموافق ٢٥-٥-١٣٨٢ هـ ، بدأت الرحلة ، من المدينة المنورة حتى نهاء .. وكان رائد الرحلة ، هو السيد حبيب محمود أحمد ، وكان الزملاء هم : السيد أديب صقر ، وأسعد خليل ، وأسعد شيرة ، وعبد العزيز خليل ، وحسين كاتب ، ومحمد أبو عيد الحيدري ، وعدنان حبيب وكاتب هذه السطور .

وكان السائقون هم : حمد بن حسن الدوسري ، وناجي حامد .

وكان الطاهي هو نعمة الله البخاري .

اثنا عشر شخصاً كانوا قوام الرحلة الشالية .

وقد قام رائد الرحلة بإعداد ما يلزم لهذه الرحلة وكانت السيارات ثلاثاً : صغيرتين ، وونيتا ، وقد أصليحت الصغيرتان وكُشِفَ عليهما مبدئياً حتى تقرر صلاحتهما للسفر البعيد المدى ، وملئتا باللفظ والماء . والونيتُ الذي يعتبر بحق (جَمَلْ أَحْمال الرحلة) قد أصليح هو الآخر ، وهْيَءَ لَهُ «عَجَلَةٌ جديدة» ومليء باللفظ في خزاناته الواسعة

الثلاثة التي تسع ما شاء الله أن تسع من النفط .. كما ملئني خزاناه
الكبيران اللذان يسعان ما يشاء الله أن يسعا - بالماء النير ، استعداداً
للرحلة الطويلة المدى .. كما أنه قد نُسَجِنَ بأصناف الزاد من أرز وسمن
وخبز ولحم وسكّر وشاي ونُقُل وفواكه وصابون .

ولم يكتف بذلك الوئيتُ ، بل حَمَلَتْ على ظهره جميع أفرشتنا ،
وجميع لوازم رحلتنا من أوانٍ وأباريق وقيربٍ وثلاجات وزمزميات .
كانت رحلةً مرتبةً ، مقدرًا فيها كل شيء تقديراً حسناً .

وكان الفنيون منا ذوي استعداد ومواهب حساسة لتلافي كل ما يحدث
من خراب هذه السيارات .

وكان الرفاق منسجمين فرحين مغتبطين في قرارات أنفسهم ، بهذه
الرحلة الموقفة ، في أصحابها وفي مكانها ، وفي زمانها ، وفي موضوعها .
فقد كان الوقت ملائماً مقبولاً .. فالصيف قد انسلخ إهابه ، وولت
وقدته ، وأدير سمومه ويحتمومه ، والبردُ لم يقدم بعدُ قارسه ،
ولم يركب فارسُه ، ولم ينتشر زمهريه في الآفاق . والمكان الذي نقصده
أثري هام .

ونسجلاً لعالم الرحلة .. أخذ أحدهنا - أسعد شيرة - آلة تصوير
معه .. لتصوير ما يحلو لنا أو يبدو لنا أن نصوره من معالم الرحلة ،
كما قد نشاهده في خيبر ، أو في نهباء ، أو قبلهما ، أو بينهما ، من
معالم وآثار ومناظر ..

وفي الوقت المحدد كان رَتَلٌ مؤلف من ثلاث سيارات : صغيرتين
وونيت .. مستعداً . وإحدى هذه السيارات الثلاث صغيره من نوع
(الأولدنزموبيل) وهي بيضاء موشحة باخضرار ، وهذه هي السيارة
«القائدة» .. ووراءها السيارة الصغيرة الأخرى الحمراء المطرزة بالسواد

وهي من نوع الفورد ، ومن ورائها سيارة الويت الحمراء اللون ، من نوع الفورد أيضاً ..

بدأ هنا الموكب الصغير سيره من المدينة صوب المشرق ، على الخط المسفلت الناحر مبدئياً لمنطقة المطار ، في « الخريفة » بشرقي المدينة . وقبيل المطار أشار رائد الرحلة بأن نوقف سياراتنا كما تنزود من (محطة رشوان) المائلة في الخط القائم قبيل المطار .. وقال : إن هذا جأرتنا ، فما علينا إلا أن نغلق أوعية سياراتنا من نفض عطته .. وكذلك وقفت السيارات الثلاث واحدة تلو الأخرى في نظام يوحي بالروعة والانسجام ، وعبث بمادة النفط ، حتى فاضت خزاناتها جميعاً .. وكان هذا الصنيع من باب « الاحتياط » وإلا فإن لدينا في خزانات سيارة الويت ما يكفي لإيصالنا إلى مشارف الشام ، على ما اعتقد ، بيسر وسهولة .

وبعد أن شربنا الماء ، امتطينا سياراتنا ، وسارت في ضيعتها « السيارة القائدة الرائدة » التي يمتطيها كل من : السيد حبيب وكاتب هذه السطور ، ومحمد عيد الحيدري والسيد عدنان حبيب ، مؤذنة ببدء الرحلة على بركة الله .

وسرعان ما التوى بنا الطريق ، من شرق إلى شمال .. بين جبال حُمْرٍ وُدُكُنٍ ، وبين طَلَعَاتٍ وَتَرَلَاتٍ ، ومرتفعات ومنخفضات ، وبين أودية وسهول .. وكانت سياراتنا تنساب انسياباً حبيباً سريعاً رشيقاً بين هذه التلال والوهاد ، وتمر بنا الأشجار والأعشاب والأنام مرَّ السحاب . وكان الإسفلت جديداً وقوياً مناسكاً ، وكان لا يخلو الطريق المقروش به من ضيق ، وكانت الأودية تنخللها أشجار السنثم وشجيرات الرمث ، إلى جسور من مادة الإسمنت شبدت فوق ممرات السيول الجارفة .

وبعد هنيهة رأينا أنفسنا نمن في السير إمعاناً ، ورأينا الجبال تضيق

علينا الآفاق ، حتى لكأنها تريد أن تمد أصابعها إلينا أو إلى هذا الخط الرقيق الممتد بينها كالأفعى .. وبعد أن سرنا نحو عشر دقائق أفضى بنا المسير إلى وادٍ فسيح جميل : « وَعَمِيرَةَ » تتناثر فيه شجيرات السلم ، ويشقّه الطريق من وسطه ، وقد تباعدت عنا بعض الشيء الجبالُ الدَكْنُ المتراسة من يمن ومن شمالك ، وشاهدنا في هذا الوادي الجميل ، الجمالَةَ الصُّفْرَ ترعى شجر السلم مادة بأعناقها المدينة اليه فكأنها أشجار ترعى أشجاراً .

وشاهدنا تلالاً مرتفعاً جداً ، أمامنا ، يعلوه الطريق المسفلت ، بهندسة محكمة .. وكدنا نعتقد أن امتداده عمودي وليس أفقياً من شدة ارتفاعه . وسرعان ما علته سيارتنا بسهولة فإذا بها تعدو فوق متنه ، ثم إذا بها تهبط منه إلى وادٍ عميق ، بسهولة ويسر .

في الصلصلة ١

وما زالت سيارتنا الثلاث مُهْطِعة بنا في نشوة واضحة ، وفرجة غامرة ، ونظام بديع في السير ، يتخلله حديث متواصل ، ونُكَّت وأخبار ، ومذاكرات ومباحثات ، حتى قال القائل لنا : إننا الآن في منطقة الصلصلة .

وبعد هنيهة لاحظتُ أننا دخلنا في سهل أحمر اللون ، متسع الجوانب وتناهدت عنا الجبال قليلاً ، وصغرت أحجامها عن ذي قبل وتكاثرت أجسامُ السلم والظَّلْحِ أمامنا وحولنا .

١ الصلصلة هذه غير الصلصل التي بالعقين والتي أنشأ فيها عروة بن الزبير بستاناً معروفًا له في سابق الحقب ، في جنوب المدينة المنورة .

وفي الساعة الخامسة والربع تماماً .. كان رتلُ سيارتنا يقف بنا في مَحْطَةً أَوْ قَرْيَةً « الصَّلْصَلَة » .. ودلفنا إلى مقهى كان يقوم على يسار الطريق ، بعد أن تبينا أنه أنظف مقاهي المحطة ، ووقفت عنده السيارات ونزلنا منها ، فإذا صاحب المقهى بماني وكان يستمع إلى مدياع يذيع أخبار اليمن وغيرها وهذا « المقهى » أرضي لا أثر فيه للكراسي ، وإنما هنالك في داخله خسف مفروش مستدير ، فجلسنا عليه ، في شيء من مضمض ، فهذه حالة لم نألّفها من قبل في المقاهي ، وطلبنا الماء والشاي وشربناهما على عجل .

وهذه الصلصلة لم أجد لها ذكراً في التاريخ .. وإنما هناك (الصلصل) والصلاصل وهي (على ما يبدو بما ذكره صاحب « وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى ») من الأودية أو الأماكن التي تقع جنوب المدينة المنورة لاشتمالها .. كما هو حال « الصلصلة » موضع الحديث .

وعلى ذكر الصلصلة فهي قرية صغيرة ناشئة^١ ولها أمير اسمه علي ابن نهود من قبيلة « العُقَيْدَة » أهل هذه المنطقة من قديم ، وأخوه هو مطوّع القرية وإمامها ، وقد بدئ في زراعة النخيل والبقول بالصلصلة ، وفيها حدائق ناشئة . وبالصلصلة بضعة مَقَاهٍ ، وبضعة منازل ، بعضها مَبْنِيٌّ بِاللَّبْنِ النَّيِّ ، وبعضها بالإسمنت ، وأفضل عماراتها مَبْنِيٌّ أَمِيرها .. فهو أبيض ناصع البياض ، واسع الأرجاء ، وقد بني بالإسمنت وهو من دَوْرٍ واحد .

وماءُ الصلصلة عذب فرات ، قريب من سطح الأرض جداً . . حتى لكأنه من « الاحساء » . وقيل لنا إنه هاضم للطعام ، وإنه صحي ، حسب ما قرره طبيب جاء إلى هذه الناحية قبل مدة من الزمن .

♦ ♦

١ تتبع إمارة الصلصلة إمارة المدينة المنورة الآن .

وقد أقبل علينا أمير الصلصلة ، محيياً ، وأقبل معه أخوه الأكبر منه سناً ، وهو مطوع القرية ذو اللحية الكبيرة المصبوغة بالحناء ، وذو الوقار والهدوء .. وقد هم الأمير بأن يستضيفنا ، ولكننا اعتذرنا له بشئ الأعذار ، فقبلها بعد لأي .

وستصبح الصلصلة - إن سارت الأمور على هذه الوتيرة - إحدى متزهات المدينة المفضلة ، لطيب مناخها ورقة هوائها ، وعذوبة مائها .. ولقربها من المدينة الآن بهذا الخط المسفلت وبالسيارات التي تترادها بسهولة ويسر .. وقال لنا أميرها فيما قال : إنها كان بينها وبين المدينة قبل مدّ الاسفلت ، خمسة أيام ذهاباً ، ومثلها إياباً ، وربما كان ذلك على الجمال .. أما اليوم فكل ما بينها وبين المدينة هو (١١٠) كيلومتر ، تجتازها السيارة الصغيرة في نحو ساعة ونصف ساعة من الزمان .. وقال لنا أيضاً : إنه فيما قبل العهد السعودي كان البادية يغفرون عليهم في الصلصلة وتحصل مذايبح بينهم .

والصلصلة واد فسيح مستطيل ، تمتد من الشمال إلى الجنوب ، وتتحفّ به حرتان ، من شرقه ومن غربه .. ومثله في هذا ، قرية خبير ، وفي الوسط منه في مكان مرتفع ، تقع قرية الصلصلة الصغيرة الناشئة .. ومثله في كل ذلك قرية الصويدرة الناشئة ، فان وادها تحفّ به الحرة من غربه ، والقرية في مكان مرتفع .

وبالصلصلة ، كما قيل لنا - (١١٠) آبار ، كلها قريبة الماء من سطح الأرض ، ولا ينضب ماؤها في صيف ولا في شتاء ، مهما يُنَزَحُ منه .. وبها مضخات ماء زراعية .. وشجر السلم والطلع متناثر فيها بكثرة كساثر أجزاء هذه المنطقة الشمالية حتى مبتدأ منطقة تيماء ... وبالصلصلة ، يوجد إلى جانب بيوت اللّبن والاسمنت ، بيوت الشعر يسكنها البادية .

إلى خيبر^١

وبعد أن استعدنا نشاطنا في الصلصلة ، امتطينا سيارتنا ، وسارت «السيارة القائدة الرائدة» أمامهن ، تتبخّر على الطريق المسفلت وتدلّكُ بسرعة فائقة ..

- إلى أين أيها الركب المسرعون ؟

- إلى خيبر !!

وخيبر بلد أثري^٢ له تاريخه القديم في جاهلية وفي إسلام .. ويقول «معجم البلدان» : إنها سميت ، بـخيبر بن قانية بن مهلائيل بن إرم ابن عييل ، وعبيل أخو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وهو عم الربذة وزرود والشقرة^٣ بنات يثرب ، وكان خيبر المذكور أول من نزلها .. على قول ياقوت الحموي . وبلدة خيبر موصوفة بالحمى ، بسبب المستنقعات المنتشرة فيها قال شاعر :

كَأَنَّ بِهِ إِذْ جِيئَتْهُ خَيْبَرِيَّةٌ

يَعُودُ عَلَيْهَا وَرَدُّهَا وَمَلَاهَا

ويلاحظ أن الشاعر وصف الحمى بقوله : (خيبرية) من غير أن يسميها لأنها معروفة في أوساط العرب .

وتقول دائرة معارف بطرس البستاني : إنَّ حِبر - ست في الزمان القديم للمخالقة ، ثم صارت لبني غرة بن أسد بن ربيعة ، وهي الآن

١ تتبع إمارة خيبر إمارة حائل ، منذ أسست الحكومة السعودية حتى الآن . وكانت تتبعها من قبل .

راجع قلب جزيرة العرب لغزاد حمزة ص ٦٨ .

٢ الربذة ، وزرود والشقرة أسماء مواضع حول المدينة لما ذكر في تاريخها وقد شاعت بعضها في إحدى رحلاني .

لبعض البادية من عَنَزَةَ ، وأهلها أمشاج من الناس . وهي على ثمانية بُرْدٍ من المدينة لمن يريد الشام ، وتشتمل على سبعة حصون ومزارع وتخلُّ كثير . وأسماؤها حصونها : حِصْنُ نَاعِم ، والقموص حصن أبي الحقيق اليهودي ، وحصن الشق ، وحصن النظاة ، وحصن الوطيع ، وحصن الكتبية ، وحصن السَلَالِم . وقد غزاها النبي صلى الله عليه وسلم سنة سبع أو ثمان للهجرة في ١٤١٠ رجل ، معهم ٢١٠ فارس ، وافتتحها ، وأقر اليهود على قيامهم بالنخيل ، وعاملهم على الشطر من التمر والحَبِّ ، فلما كانت خلافة عمر رضي الله عنه ظهرت منهم الفاحشة وعيبتوا بالمسلمين ، فأجلأهم عُمَرُ إلى الشام . . وقد فعل ذلك لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب » .

وقد كان حصنُ السلامِ آخِرَ حصنٍ فتحه الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوته لخِبر ، وقد خرج منه مرحب اليهودي وهو يقول :
 قد عَلِمْتُ خِبرَ أبي مَرْحَبٍ أَطعنَ أحياناً وحيناً أضرب
 شاكي السلاح بطلٌ مُجَرَّبٌ إذا اللبثُ أقبلتَ تلتهبُ
 كان حِمَايَ كالحِمْيَ لا يُقَرَّبُ

ويبدو لي أن حصن السلام المعروف بحصن مرحب إنما دُعي بهذا الاسم لوجود هذه السلام الحجرية والتي لا تزال به ويصعد إليه منها ويتزل منه بها وهي كثيرة لأن الحصن يقع على قمة الجبل .

وسارت بنا السيارات في هذا الطريق اللاحب المسفلت صوب خيبر ، تبعد عنا ومن ورائنا اثنتان من سياراتنا ، تارة ، وتقربان تارة . تبعدان إذا أعذدنا السير ، وتقربان إذا خففناه .. وقد اجتزنا وهاداً وأنجاداً ،

١ بينها وبين المدينة على خط الأسفلت ١٦٠ كيلومتراً .

وتباعدت عنا الجبال ، وكانت منطقة الطريق منسجمة في طبيعتها مع طبيعة منطقة الصلصلة ، حتى إذا قربنا من وادي الدوم ، شاهدنا تغيراً في معالم الأرض ، فهذه منطقة حِرَارٍ محترقة .. إذن لقد دخلنا مشارف خيبر . وخبير كما نعلم تقع بين حِرَارٍ .

في وادي الدوم .

دخلنا وادي الدوم أو أودية الدوم ، فهي أودية وليست وادياً واحداً .. والدوم هو نخيل هذه الأودية .. والدوم شجر من فصيلة النخيل ، يشبه النخيل في الشكل العام ، ويختلف عنه في الثمار ، فثمار الدوم كثمار ، ونواها أكبر من ثمارها . والثمار عبارة عن الحام داخلياً تقع بين النواة الكبيرة والقشرة الخارجية .. وهو أبيض مائل إلى الصفرة وهي حمراء دكناء عليها شيء من البريق إذا نضجت .

أما ثمار النخيل فبالعكس من ذلك .. وقال لنا السيد أديب صقر : إن جذوع الدوم لا تكاد تبلى ، ولا يلحقها السوس بأذى ، مها يتطّل عليها الأمد .. وقال السيد حبيب : الآن فهمتُ لماذا أوقفَ بعضهم شجر الدوم على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في وادي الصويدرة - وادي الترعَة - وذلك لتبني سقوفه من جذوع الدوم . فلا يلحقها سوس أو خراب أطول أمد ممكن .

ولوادي الدوم هذا ، ذكر في التاريخ .

(هـ) وجدنا كذلك بعض شجر الدوم هذا في الصويدرة ، سنة ١٣٥٤ هـ ، وجدناه متناقساً في كتلتين أو ثلاث قرب مجرى سيل وادي الصويدرة صغيراً . وفي سنة ١٣٨٧ هـ وجدناه قد كبر كما هو مشروع في فصل (الصويدرة : حرد على يده) من هذا الكتاب .

ولقد رأينا ثمر الدوم متدلياً ككُرات كبيرة ، فقررتنا أن نأخذ
معنا شيئاً منه من باب التذكُّر لهذه الرحلة في طريق عودتنا .. ولكنه
لم يكن نضج .

في خيبر

ومضينا في طريقنا واكتفتنا الحيرارُ وضيقَت علينا خط سيرنا .
وفي الساعة السادسة والربع ظهر اليوم نفسه ، وصلنا مشارف خيبر ،
وأشرفنا عليها من علٍّ ، وشاهدنا أبنيتها المتداعية المتهاككة . ورأينا
أطلالها القديمة الشبيهة بالأطلال المائلة ، في حرة المدينة الشرقية ..
وهنا جرت على الألسنة من الأفكار ذكرياتُ جهاد الرسول عليه الصلاة
والسلام : ليهُودِ خيبر ، وفتحها لحصونها المنيعه عنوة وصلحاً .
ودخلنا خيبر ، فإذا منازلها حَجَرِيَّةٌ وطِينِيَّةٌ صغيرة ، وفي مدخل
خيبر الوحيد توجد محطة نفط ، لصاحبها : عبيد القُريَّان ، وهي محطة
لضخ النفط بالآلة الأوتوماتيكية ، على النحو المستعمل في كبريات مدن
المملكة ..

وقرية خيبر واطئة جيداً عما يحيط بها .. تحيط بها حرتان : شرقية
وغربية ، وفي داخلها جبل عليه الحصن القديم الذي يُدعى « حِصْن
مرحب » وهو مقر الإمارة ، وهو أحد حصون خيبر القديمة .. وهو
مبنى بحجارة منحوتة بدون ملاط ، كماثر أبنية المنطقة الشمالية الأثرية ،
ولعل ذلك من عوامل بقائها إلى اليوم .. فالملاط يتفتت . فتسقط الحجارة
التي كانت متماسكة به ، أما إذا لم يوجد ، فالحجارة باقية على بعضها
طيلة الدهور لا تزول ولا تحول .. ولا تسقط ولا تتحرك عن مواضعها

ما لم يحدث لها أو فيها ارتجاج كبير يؤثر عليها بالذات ...

وبجنوب خيبر جبل أحمر ، وبشاهها كذلك .. ومدخلها من ناحية الجنوب ، تتكون من أراضي طمي واسعة الأرجاء .. وحراتها : الشرقية والغربية تذكيرانا بحرمتي المدينة : الشرقية والغربية .. وجبلها الجنوبي والشامي يذكيرانا بجبلي أحد وعسير . ومخرج خيبر من ناحية الشمال واطى كذلك .

وقد أوقفنا سيارتنا على جانب الطريق العام المسفلت الذي يخترق قرية خيبر من طرفها الشرقي في الطريق إلى تياء ، ودخلنا القرية مشياً على الأقدام ، لنشاهد معالمها من كتب ، ولنتفهم واقعها عن مشاهدة وعيان .. وكان أول ما أثار انتباهنا هو ما يدعى بحصن مرحب .. وقد انجھنا إليه سالكين طريقاً أو زقاقاً كريهاً في منظره ومخبره ، متعرجاً ضيقاً ، تجري ببعض جوانبه أفنية ماء متعفن آسن ، من عين غير غدقة ، لهم ، هناك ، تقع في الناحية الجنوبية الشرقية من البلد ، وقد سددنا أنوفنا ، ونحن نجتاز بعض الأماكن ، مما نلاقيه من رائحة المستنقعات : وضيق الأزقة وغبارها .. وسرنا حتى وصلنا مقبرة الشهداء وكانت مهملة في مرتفع ضئيل من الأرض قبل حصن مرحب ، وتبدو عليها حجارة الشواهد متناثرة غارقة في الطين اليابس وبدون أية عناية ، وليس عليها سور ، إنها معرضة للمرور ، ولكل شيء .. ومما يبرجى العناية به تسوير هذه المقبرة الكريمة حفظاً لها من الأذى .. كما صنيع في غيرها من مقابر الشهداء في مكة والمدينة ..

ومن هناك توجهنا إلى المسجد الذي قيل لنا انه مبني على أرض المعركة - المعركة التي جرت بين الرسول عليه السلام ، واليهود في خيبر - وقد دخلناه وأخذنا له رسماً من الداخل .



حصن مرحب بخيبر مأخوذ من ناحية جنوب غربي الحصن ،
(يشير السهم إلى مدخل الحصن)

وهو مسجد مبني بطين ولتين (بفتح اللام وكسر الباء) مستطيل الشكل ، وفيه محراب لا أثر فيه للزخرف ، وهو غير مبيّض ، وليس له مئذنة .

وتأملنا قصر مرحب من تحته .. فإذا به مُشيدٌ على جبل عال في وسط خيبر ، وهو مقر الإمارة اليوم كما قدمنا ، وبناء حصن مرحب - أو حصن السلام - كما هو اسمه التاريخي - بالحجارة المطابقة التي لا أثر فيها للملاط . ويبدو لي من شكله أن البناء الأصلي هو ما كان أسفل من ناحية الأساس . أما ما فوقه من بناء فهو مستجد ، كما أن اللتين الذي هو فوق هذه الحجارة هو جديد بطبيعة الحال .. والحصن متآكل يبدو عليه أثر القيد ، وهو من دَوْر واحد ، ويُشرف على

خيبر ، كما تشرف قلعة سلّع على المدينة المنورة ، وحِصْنُ السموأل على تيماء . ولحسن الحظ أخذنا رسماً لأمير خيبر الشيخ عبد الرحمن الحمدان ورجاله وهم هابطون من القصر أو الحصن لصلاة الظهر في المسجد الذي سبق ذكره .

وقد تجولنا في أنحاء خيبر ، في أزقتها الضيقة الشديدة الضيق ، فهي من الناحية الأخيرة تشبه حالة منطقة القطيف حين زُرْتُهَا سنة ١٣٧٥ هـ ..

والناس في خيبر ضامرون واهنو القوى الجسمانية ، ولعل ذلك راجع إلى ما ينتابهم من حمى الملاريا : (البرداء) وهم بطبيعة اختلال صحتهم كَسَالَى ، يمشون المَهِوَيْتَى ، متناقلين ، ولا يَبْدُونَ في الأزقة إلا فرادى .. لعلم يفضلون النوم أو الاسترخاء في منازلهم ، في الفترات التي تعقب أو تسبق نوبات الحمى المعتادة لديهم .. حتى الموظفون الذين يقيمون بطرف خيبر الجنوبي الأعلى ، في منازل معدة لهم هي خيبرٌ بكثير من الأخرى — حتى هؤلاء تبدو عليهم مسحة من عسدم انتظام الصحة .. حسب ما يترامى على سحناتهم وحتى النخيل تراه ضامراً هزياً متلاصقاً ، يبدو عليه أثر الضمور والهزال ..

وفي خيبر مدرسة حكومية ابتدائية لتعليم الصغار كانت منزل أحد المستشرقين ، على ما رواه فيلبي في كتابه : (أرض الأنبياء) ، وتتبع المدرسة وزارة المعارف .

وأبواب المنازل في خيبر لا بدّ من الحديث عنها .. لأنها أشبه بأبواب الخزائن ، وهي تُصنَعُ محلياً من جذوع النخيل ، بأن يَشَدَّ بعضُ



أحد بيوت خيبر القديمة

هذه الحذوع إلى بعض ، وقد لا تتجاوز المتر والنصف طولاً ، والمتر عرضاً ، وهي 'تَقْمَلُ' بشكل عجيب ، فلها ضَبَاتٌ خشبية ، وفوق الضَبَةِ حبل من سعف مشدود به الباب أفقياً ، وفي وسط هذا الحبل عقدة مربوطة في خشبة عمودية .. عقدة لانفهما .. ولا ندرك مغزاها .. ولا أساسها ..

ودلفنا إلى منبع عين خيبر ، وتقع في مكان بناحيها الجنوبية يشبه الفضساء . والمنبع مسور بسور من حجر الدبش الأسود .. غير المنتظم في البناء .. والبناء في جملته وتفصيله متداع ، وهو مربع الشكل أوشبه مربعه .. وترى الناس من حوله يغسلون ملابسهم وأنفسهم وارثقيننا إلى طرف من سور المنبع لنشاهد العين من كتب .. فإذا بالماء يسيل منه واهناً آتياً من ناحية الحبل الذي يقع بالجنوب .. وقد وضع بعض الناس على المنبع (حصيراً) لتصفيته كما

يبدو .. الحَصِيرُ في حد ذاته بالكِ ومتمسِّخ وقَدْر ، فَيَا عَجَباً من قَدَرٍ
يُصَفِّي قَدَرًا ...

* * *

ومما مررنا به سوقُ خَيْرِ القَدِيمَةِ في داخلِ البلدِ ، وهي مغلقة
مهجورة الآن .. وعليها أقفالٌ من حديدٍ ، وأقفالٌ من خشبٍ :
(صَبَاتٌ) .

* * *

وقُصُورُ خَيْرٍ أو دُورُهَا القَرِيبَةُ من هذه السوقِ إلى ناحيتها الغربية
الشَّالِيَةِ صغارٌ أشبه بالأوكار .

* * *

وقال لنا مرافقنا الخَيْرِيُّ : انه توجد سوقٌ جديدةٌ غيرُ هذه ..
وسار معنا ، وسرنا معه حتَّى بَلَغَ بنا أو بَلَغْنَا به إلى طرفِ خَيْرِ
الجنوبي المرتفع عن وهدتها .. ووصلنا هذا المكانَ ، والترابُ يعفرنا ،
والغبارُ يغطينا ، ولم نر شيئاً صحيحاً سَمِيناً في خَيْرِ سوى الحميرِ
والبقرِ .. فلا بُدَّ أن هُذَيْنِ الحيوانينِ حِصَانَةً طَبَّعِيَّةً من الخُمَى الخَيْرِيَّةِ
المشهورة .. لا بُدَّ أن لهما وقايةٌ جسميةٌ أو نفسيةٌ جسيمةٌ ، تحميهما
من سريانِ سمومِ بعوضِ (الأنوفيل) ولسعانه الفتاكة^١ .

١ الأنوفيل : البعوض الذي يولد لسهه حتى البرداء (الملاريا) ويمتاز بأنه مخطط البدن .. بلونين
أبيض وأسود .

والسوق الحديدية عبارة عن سطرين مضطربين يتكونان من خرائب متناثرة ، وفتحات مسدودة بأبواب جذوع النخل المُضَيَّبَة .. ورأينا من كتب ، واحداً من هذه (الدكاكين الحديدية) وبدخله أشباح من الناس يلغهم الظلام الدامس في باطنها لفساً ، فلا يتبين إلا برهيق عيونهم وملابسهم البيض ، وبعض حاجيات متناثرة بغير ضابط في أرض الجحر أو الكهف أو الدكان الحديد ..

ونأمل أن تلقى خبير من العناية الصحية ما تستأمله كبلد زراعي خصيب ذي مياه ثرة ، فتطمر المستنقعات وتُنظِّف العيون في منابعها وقنواتها ، وتقاوم حمى الملاريا بالوسائل الطبية الحديثة من علاجية ووقائية .. بصفة مستديمة وعميقة وجدية .

ونأمل مع ذلك أن تلقى من العناية الزراعية ما تستحقه في إنتاجها وحقوقها ومياهها وأشجارها ونخيلها .

ونأمل أن تتال من وزارة الشؤون الاجتماعية ومن مجلس التخطيط الأعلى الرعاية الكافية لعمالها ومزارعيها ، ولشوارعها وأزقتها ودورها ، تنظيمياً وتخطيطياً ، وتوسعة وتبليطاً ..

نأمل أن تتناك خبير كل ذلك لتتحول حالها من حسن إلى أحسن ، في كل شيء .. ولتتضخم وتتسع وتصبح مواردُها الزراعية الغنية ذات أثر حميد في أنحاء المملكة .. فالماء الذي هو عماد الحياة متوافر فيها بشكل كبير ، والأرض خصبة ، والأمن وارف الظلال والناس إذا صحوا نشطوا للعمل المجدي ، وعندئذ تجود الأرضون بالخيرات والثمار

١ صار اسم هذا المجلس فيما بعد : الهيئة المركزية العليا للتخطيط .

والإنجاج الحافل .

بعد أن عدنا أدراجنا من جولتنا في خير رأينا على جانبي الطريق المسفلت مقهى فيه أناس جالسون يشربون الشاي والقهوة وقد تجاوزناه في الطريق إلى سيارتنا اللائي كانت بانتظارنا آنذاك .

وكنا قد أوعزنا إلى سيارة (الويت) التي تقل أوزاننا وماعنا وأمتعتنا بأن تسبقنا وأن تتكبيح السير قُدماً حتى تبلغ الساعة الثامنة ، وعندها تقف ، ورأيناها وهي تحترق طريقها إلى الشال .. في نشوة وقوة وتصميم ..

في الطريق الى تباء

وقد بلغت الساعة - ونحن على أبواب سيارتنا - الساعة والرُبْع من النهار ، وقد اشتد حميم الشمس ويسبت شفاهُ بعضنا من الظمأ .. وكان كاتبُ هذه السطور من هؤلاء الظمائم .

وامنطينا السيارات الصغيرة وسارت بنا تنهادى في سيرها الخيث .. وحوالي الساعة السابعة والنصف تعطل قلب سيارتنا : سيارة القيادة .. فقد انبعث من قلبها دخان ورائحة .. فمَجَزَعَ السائق حَمَدَ الدوسري من هذه الحركة .. وأوقف السيارة على مهلٍ ، وحينما كشف عليها بدقة وإمعان ، قال لنا : إن قلب مولد الكهرباء قد احترق فحَالَجَتْنَا نوعٌ من الاضطراب .. فقد كنا زابلنا خير ، وتركنا

سيارة الماء والطعام والأمتعة ، وهي - حسب الخطة المرسومة لها - لن تقف إلا بعد أن تصل إلى المدى المحدود لها .. كالأقمار الصناعية التي تطلقها دول العصر الكبرى لأغراض سلمية وحرية خفية فلا تتوقف إلا في المدى المحدد لها .. والشمس من فوقنا محرقة ، والجبال من حولنا ملتهبة ، والظلمة مُتَفَشِّشٌ في بقية الركاب ، ولا ماء لدينا في سياراتنا ولا في هذه التَّنُوقَةِ الجرداء .. وكان السائق حكيماً ولبقاً ، فقد فصل البطارية عن المولد ، فصارت البطارية هي التي تتحمل عبء تحريك السيارة وتسييرها وحدها .. بما اختزنته من كهرباء .. وسيرنا على بركة الله سيراً حثيثاً إلى الشالك على شيء من القلق وشيء من الأمل . وسارت خلفنا السيارة الصغرى الأخرى ومررنا بعمال « شركة المشاريع العامة » القائمين بسفلة هذا الطريق من المدينة حتى تبوك .. مررنا بهم وهم منهكون في نشاط وحفاة في رش مادة مائعة من الأسفلت على الأسفلت الخاف ، لتشكلا الطبقة التي تغطي وجه الطريق ، وتكسبها النعومة والبريق . ونال عجلات سياراتنا رشاش من هذه المادة التي تشبه القطران في الميوعة والسواد والبريق .. إن هؤلاء العمال أو مهندسهم لم يحسبوا للسيارات الذاهبة والقادمة ، أي حساب ... وهكذا رشوا الطريق المسفلت كله بهذه المادة الخبيثة الطيبة في وقت واحد .. والمعمران الأرضيان من حول الخط المسفلت ضيقان لا يكفيان لمرور عجلات السيارات كلها .. فلا بد إذن من أن يفحص جانب منها في بعض هذا السائل الذي يلوثها ويلوث ما فوقها أي تلوث ..

جرعة ماء

بعد أن اجتزنا منطقة القطران مررنا على مُعَسِّكِرٍ : (كَتْمَب)

الشركة ، ورأينا الزمزميات معلقة ، بأطراف الخيام ، فتشبهنا أن نطلب منهم جرعة ماء نيل بها الريق ، ولكن سير السيارات كان أعجل من الانتظار أو النزول .. ثم مررنا على مُخَيَّم أمير خيبر ، وقصد اختار الأمير أن تكون اقامته في هذه المنطقة الصحية .. وهي منطقة فيحاء جميلة نقية الهواء ذات بطحاء حمراء مغرية .. وتَصَبَّ خيامسه بها ، وحفر له فيها بئراً للسقيا ، ونصب أعمدة اللاسلكي فيها .. فهو يقضي بياض نهاره في خيبر يحكمُ فيها بين الناس وَيُصَرِّفُ شؤون الإمارة ، فإذا انتهى من عمله الرسمي اتجه إلى منطلقاته المفضلة يقضي فيها أوقات فراغه وطعامه وشرابه ونومه ولوازمه الخاصة ..

وتابَعْنَا المير صوب الشمال ، وصرنا ننظر ملياً في ساعاتنا ، فإذا بها قد بلغت الثامنة والرَّبع ، وَقَدَّرْنَا مدى بُعْدِ السيارة الوئيت عنا وخِمْتًا أنها لا تزال تجري إلى الأمام ، كأحد الأقمار الصناعية المصوِّبة إلى هدف معين ، كما قدرنا أننا لن نبلغها حتى تدق الساعة ، التاسعة والنصف على أقل تقدير .. وهذا وقت طويل ، والظلم يحرق حلوقتنا ، ويجفف ريقنا ، ولكننا صبرنا وتلثمنا حتى لا يَدْخُلَ الهواء الحار إلى أفواهنا وأجوافنا فيزيدنا ظمأً على ظمأ ، فَعَمَلَ ذلك أول من فعله ، محمد عيد الحيدري ، وتابَعْتُهُ .. وبعد هنيهة رأينا سيارة من نوع اللوري ، واقفة على حافة الطريق ، وما إن لمحناها حتى تصابحنا : لنقف هنا ، ولنطلب من سائق هذه السيارة جرعة ماء .. وقد خاب أملنا حينما وقفنا إزاءها ، فإذا بها معطلة وليس بها أحد ، فتركناها وراءنا ، ثم عارضتنا سيارة كبيرة أخرى قادمة من ناحية تباء .. فاستوقفتها وطلبنا من سائقها (جرعة ماء) .. وقد

أجاب طلبنا بساحة نفس ، وارتوتينا من ماء زمزميته الزلال .. ثم سألناه عما إذا كان قد شاهد في الطريق سيارة ونيت حمراء ؟ فأجابنا بأنها واقفة ومعطلة على مسرة نحو عشرة كيلومترات منا ، فتأثرنا من جهة وحمدنا الله من جهة أخرى ، إذ قد اقتربنا من سيارة الماء والزاد ، وعقب مسيرة نحو عشر دقائق رأينا سيارة الويت ، واقفة إلى الجانب الأيمن من الطريق ، وسائقها ومن معه منهمكون في البحث عن شيء لا نعلمه.. وبعد أن وصلنا اليهم أدركنا أن (ضبة) أو (طبة) السيلندر قد سقطت ، والسيارة تسير ، فنزل جميع ما في (التدير) من ماء يسرد المكينّة إلى الأرض ، وبذلك اضطر السائق «ناجي حامد» إلى التوقف عن المسير ، وحدث نساؤل منا .. (والحاجة أم الاختراع) و (لكل نازلة فاصلة) .. وقد أجمع رأي الإخوان أخيراً على أن نبحث عن عود أو خشبة ، وننحتها أو ننحتها ونجعلها على مقياس من محل الضبة أو الطبة ، ثم نحشوه به أو بها ، فإذا امتلأ فراغ المحل امتلاءً محكماً فقد حصل المقصود وزال المحذور .

وبعد المداولة في كل هذا وإقراره رأينا أن الوقت قد مضى كثيراً وأكثر مما يلزم .. فالساعة الآن تشير إلى الثامنة والنصف ، ونحن لم نذق طعاماً من الصباح .. وعلى ذلك قررنا التزول في هذا الوادي ذي الأشجار المظلة . برغم ما ينتشر فيه من أشواك حادة مسنونة .. وبالفعل نزلنا ونزلنا ..

وتحت شجرة طلح شائكة كبيرة بسطنا أفرشتنا ، وكان الطاهي قد أوقد النار تحت القدر الكبيرة ، وبدأ في إعداد وجبة الغداء الدسمة .. وقد تركنا المختصين منا يبحثون عن عود للضبة ، وسرعان ما رأوا أن يقطعوا عوداً من شجرة طلح في حجم معين قدروه ، وشذبوه تشديداً محكماً ، ثم وضعوه في محل الضبة الساقطة فاستوى به كقطعة

من حديد موزونة ، وملاؤوا (اللدِير) بالماء وجربوا السيارة جيئة
 وذهاباً ، فإذا كل شيء على ما يُرام ، وعندما علمنا بهذه النتيجة
 السارة دأخَلْنَا الاطمئنان وزال الغم ، وطاب لنا المَقَامُ والطَعَامُ . فأُتينا
 بسيارتينا الصغيرتين ، ووضعناهما أمام بعض ، وفتحنا بينهما مكاناً
 سويّاً كَتَسَنَاهُ من الشوك ، وفرشناه ، وبسطنا (حنبلاً) كبيراً ،
 فوق السيارتين المتقابلتين لنستظل به ، ومن ثم قُدِّمَ لنا الغداء ..
 فتناولناه بشهية .

وفي أثناء جلوسنا ، عَنَ لِأَحَدِنَا أن يفتح (المِذْبَاحَ) لتصل
 من طريقه بالعالم في هذه البرية المقفرة ، وقد راعنا أن سمعنا منه فجاءة
 بأحداث (كُوبَا) المزعجة ، فأرهننا الأسباع ، وخطر ببالنا أن
 شرارة الحرب العالمية الثالثة قد اندلعت ، وعمّا قريب يلقي العالم أسوأ
 مصير ... ونحن في برية هوجاء .. ولكننا لم نضطرب ، ولم نقرر
 العودة للمدينة ، قلنا : لِيَكُنْ ما يكون ، فنحن في طريقنا إلى
 تيماء ... برغم أن الإنذارات الأمريكية المصممة بالقضاء على صواريخ
 الهجوم السوفيتية المنصوبة في قواعد لها بِكُوبَا ، تنذر بخطر عالمي
 جسيم وشيك الوقوع بين لحظة وأخرى .. ولا نعلم مدى مفعول هذه
 الإنذارات في الجانب المقابل .. والأمر جد - كما يبدو - وليس
 بمنورة .. فأمريكا قد أدركت أن أمن نصف الكرة الغربية معرض
 لخطر بالغ ، ولا بدّ من القضاء على هذا الخطر بأيّ ثمن ... وإذن
 فهي تُدْرُ الحرب العامة الثالثة تلوح في الأفق من كتب ... وترقبنا
 (رد الفعل) في الجانب السوفيتي ، فعليه ، يتوقف الأمر سلباً أو إيجاباً ..
 وبعد الخزيع الأول من الليل أتخَّنا رَكائبنا ، أو ترجلنا عن سيارتنا وفتحنا
 المذيع مرة أخرى ، فإذا بروسيا تديع بياناً رسمياً مطولاً عن الحادث
 الكبير الخطير ، وإذا بالبيان يحمل في طياته الانحناء للعاصفة الأمريكية لكي
 تمر بسلام ... إنه يدعو ضمناً وأخيراً ، إلى عرض الموضوع على مجلس

الأمن .. وعندئذ أدركنا أن احتمال نشوب الحرب العالمية الثالثة الآن قد زال
أكثر ضبابه المشؤوم .. كما أدركنا مدى قوة أمريكا ، العالمية والحربية
والإرادية ، من هذه الحادثة بالنسبة لخصمها السوفيتي الذي استعرض
عضلاته ثم طواها بلباقة .

هذا وفي الساعة الحادية عشرة والنصف حزمنا أمتعتنا ووضعناها في
سياراتنا ، واتجهنا بها ، أو اتجهت بنا ، صوب الشمال .. وقد أعجبنا
منظر الشمس في الصحراء ، وهي تكاد ترتعي بين أحضان قِمَمِ الجبال
التي تحيط بهذه الأودية المتعاقبة من قديم .. كمسافر أنهكه السير بياض
النهار ، فأوى إلى قرار مكين .. ليأخذ قسطاً من الراحة يستأنف بعده
المسير صبيحة اليوم التالي إلى حيث يريد .

والهدف بعيد مجهول المكان والمدى .. ألا ما أجمل السيارات البيض
والخمر الصغرى ، وهي تتهاذى فوق بساط الطريق الأسود الناعم في
خفة ورشاقة كالعرائس !! وما أجملها وهي تصعد في خفة ورشاقة ،
الأنجاد ، وتهبط الأودية !! وما أروع ألوان الجبال من حولنا ، من
أنحضر إلى أبيض إلى أصفر وداكن ، مما ينبو لنا بتشبعها بأنواع المعادن
التي تتطلب رجالاً علماء عاملين ، ليفيدوا البلاد من معادنها المستقرة
في أجواف هذه الكتل من الحجارة ..

في السهل الأفيح

وبعد هنيهة من سيرنا ، وقبيل أن نتواري (ذكاء) عن
الأنظار وتستقر في غيبتها العجيب البعيد ، انفتح أمامنا سهل رملي

أفصحُ لا نرى له حدوداً ، وتخلفت الجبال والأودية من ورائنا .. حقاً
لقد خرجنا الآن من طبيعة أرضٍ ، إلى طبيعة أرضٍ أخرى ..
فهل يا ترى خرجنا من منطقة خيبر ودخلنا منطقة تيماء .. منطقة الفراغ
اللانهايي تقريباً في أنظارنا وشعورنا ساعتئذٍ؟ .. وقد اندفعت السيارات
في سيرها اندفاعاً ضرب الرقم القياسي في السرعة نحو ذلك الأفق البعيد
البعيد ، الذي يربط كرة الأرض السوداء ، بقبة السماء الزرقاء في الآفاق
البعيدة الجرد .. وقد شعرنا عندها بنوع من القلق يساورنا .. وبجو
من الخوف يحيم فوق رؤوسنا ، وربما كان سبب ذلك جهلنا بمدى
المسافة التي سنجتازها إلى تيماء ، خاصة ونحن الآن في قفر واسع
الأرجاء .. لعله طرف من النفود الكبير ..

وبعدُ ، فما أخرج كثيراً من مناطق بلادنا الواسعة كهذه المنطقة إلى
أناس صالحين مصلحين كثيرين يعمرونها ..

• • •

وما زلنا نسير ونسير في اندفاع شبه مجنون وسط هذا السهل الأفيح
الذي يبدو ، كأن لا نهاية له ، وكلما أوغلت غيلانُ الظلام في
الالتفاف من حولنا ازداد قلقنا ، وازدادت سياراتنا إمعاناً في الاندفاع
إلى الأمام .. تتراد ذلك المجهول البعيد المنشود .. كأن لها إحساساً مثل
إحساسنا ، وبها قلقاً مثل قلقنا ، ولها أهدافاً مثل أهدافنا .. وكانت
عداداتُ سياراتنا تشير إلى : (٨٠ ، ١٠٠ ، ١٢٠ ، ١٤٠ ،
١٥٠) ... وأخيراً أطبق علينا الظلام من كل جانب ، ونحن في وسط
السهل الممتد من كل جانب ، وقد نال منا التعب والاعياء ، وحدث
أن تأخرت عنا بعض سياراتنا في هذه التوقف القفراء بسبب إمعان
« السيارة القائدة الرائدة » في السير الخثيث .. فاضطررنا لانتظارهم ،

وأزمننا أن نوذي صلاة المغرب والعشاء جمعاً وقصراً ، ولكن التعب الذي فَتَّ في أعضادنا وحلَّ من قوانا ، حال بيننا وبين ذلك مرغمين . فأجمعنا أمرنا على تأخيرهما إلى فرصة أخرى من الليل .. وأخيراً تسمرت عيوننا على خط السير الذي اجتزناه .. وبعد نحو ساعة لمحنا بصيص نور يلوح في الأفق من بعيد ، وإنه ليبدو ويحتفي ، ومن ورائه أقبلت السيارات ورائ بعضهما تزجران ، وقد حمدنا الله على جمع الشمل في هذه الصحراء الموحشة المجهولة .. وفي وسط هذا الظلام المطبق .

ولما أنيسنا بشيء من الراحة استأنفنا السير نحو ذلك المجهول المنشود .. وسيرنا في ظلام شديد السواد تشقه أضواء سياراتنا ، وتلألأ من فوقه النجوم التي ترصع كبد السماء وجوانبها ، ولم يكن هناك أثر للقمر .. إنه في دور استجمامه أو عحاقه ، فهذه الليلة هي السادسة والعشرون من الشهر .

وبعد أن سرنا نحو ساعتين لمحنا بصيص أنوار من بعيد ، وسمعنا نائمة أناس ، ونباح كلاب ، ونداء شاء ، فقدرتنا أننا قد اقتربنا من المجهول البعيد المنشود : (تياء) . ولكن صدمنا بالواقع الأليم .. فما ذلك إلا بعض مضارب البادية الذين يقطنون متنقلين في هذه التنوفة الجرداء ..

وفي تمام الساعة الثالثة ليلاً بالتوقيت العربي المحلي ، بدأنا نبحث عن مكان صالح للبيات بجانب الطريق ، على أن يكون خالياً من الحُجُور التي قد تكون مأوى للحشرات والآفات .. وطال بحثنا على أضواء السيارات .. وأخيراً وصلنا إلى مكان اتفقنا على صلاحه للمهمة المنشودة .. فحططنا رحالنا ، إن صح هذا التعبير ، وفرشنا بسطنا وأفرشنا وأوقدنا مصابيحنا المتوهجة : (اللوكسات) ورفعناها في مكان

عَلَيْهِ ، وأشعل الطاهي النار للطعام ، وللشاي ، وبعد أن تناولنا العشاء
الدهم ، وشربنا أكواب الشاي المنعنع ، أسَلَمْنَا أجبانا لنوم عميق
حتى الصباح أو قبيل الصباح .. على التعبير الدقيق .

أما كتاب هذه السطور فكان في غاية الرهق والقلق والإعياء ولذلك
اضطر أن يستسلم لنوم غير عميق ولا مريح .

وكانت مهمة المصاييح مزدوجة في هذا المكان .. فيها نستنبر في
أداء لوازمننا وقضاء حاجتنا ، وبهانتقي عدوان الحيوان .

وقد تهتضت من فراشي في ساعة متأخرة من الليل ، وصوبت
بصري إلى السماء .. فإذا هي في مهرجان حافل ومواكب رائعة من
سواطع النجوم في أشكال سدسة ومخمسة ومربعة ومتناثرة .. يا لله !
ما أجمل هذه القبة الزرقاء في هذه الليلة الصحراوية المجولة السوداء ..

وقد رأيت الثريا في موكبها الخاص تلالاً في المشرق البعيد فكأنها
حلقة مترابطة من كواكب بيض أتراب رواقص ، أو كأنها عنقود
فضي متألئء يتدلى من السماء كما تتدلى الثريا البلورية من سقف أبهاء
القصور الرائعة العظيمة في احتفال سامر راقص ..

وجاء (أبرد الحُصْبَيْنِ) يتحسس في آخر الليل ، وأنا في يقظتي
وتأملاتي وتجوالاتي الفكرية .. إنه جاء يتطلب وجبة عشاء شهية من
الفضلات الملقاة في هذا الجزء من الصحراء الخاوية .. جاء بخطوخطواته
الخفيفة السريعة متسلحاً بإحساسه المرهف ، وحذره اللماح .. وأضأت في وجهه
الكشاف (مصباح الحجارة النفاذ المُركّز الضوء) فما تحرك .. إنه
كان في تلك اللحظة منهمكاً في تناول (أكلة) لذيدة من بقايا الطعام ..
يظهر أن صاحبنا كان في منتهى المسغبة .. فركته وشأنه .. ومساذا
يفعل الثعلب المسكين هنا ؟ .. وليس لدينا دجاج ولا دواجن نخشى

عليها من سطوة ذراعيه ، وهو أضعف شأناً وأهون قوة من أن يخطر
بباله أن يهاجم أحداً منا أو يفترسه مهما يسند به الجوع !

ووضعتُ أذني على سطح الأرض ، وأرهفت سمعي لأية نبأ تأتي
من بعيد .. فالهدوء هنا تام ، والسكون نجيم .. ولا بد أن أي صوت
مهما يبعُدُ أو يصولُ - إذا كان في إحدى نواحيها - سيصلني شيء
منه بهذه الطريقة .. وقد اتصل بسمعي خيط رقيق واهن متقطع من
زجاج كلاب وأصوات مضخات ماء .. فأدركتُ أن صاحبنا الراعي ،
راكباً السيارة الكبيرة الذي استبنأناه عن مدى قربنا من تيماء ، فقال
لنا : إننا منها على مسافة كيلوين - كان صادق الحديث ودقيق المعرفة
والبيان .. وكان قد سبق لغيره من السائقين والراكبين أن زودونا
بمعلومات متناقضة عن مدى بُعد تيماء عنا .. قال لنا بعضهم : إن بينكم
وبينها نحو مائة كيلومتر .. في الوقت الذي يُقَصِّرُ آخر هذه المسافة
على (٦٥) كيلومتراً .. معلوماتٌ مضطربة لا تهدي إلى شيء .. لعل
من أسبابها عدمُ نصبِ علامات الكيلوات في هذا الطريق الذي لم
يستَمِ انشاؤه بعدُ ، وجهلُ أكثر السائقين والراكبين معهم ، للتقدير الصحيح
لمسافات هذه التنوفة الجرداء الملساء المتشابهة المناظر القاتمة الأعماق ..
الخواوية المخترق .. كما وصف شاعر أعرابي قديم ما يمثّلها من مهامه .

وطلع الفجر الكاذب ثم الصادق ، وكنتُ يقظان مرهف الإحساس
والشعور .. وتوضأنا وصلينا الصبح جماعة في تودة وخشوع . كان
إمامنا السيد أديب صقر ، وقد أذن لصلاة الصبح أذاناً مرّتماً بشيخ
في النفوس المسرة والخشوع والأمل ، بصوت مشج رقيق .. وذلك
ديدنه في كل صلاة .. وقام بعض الرفاق ، وأرخى بعضهم جفنيه للنوم
اللذيد .. وقام الطاهي ليهيي لنا وجبة الإفطار المكونة من بيض
(مُطَجَّن) وفول مُدْمَس ، وشاي ممزوج بالحليب ، وخبز طري

وشابورة ، وبقسماط إلى « دُقَّة » السيد أديب صقر الشهية الذكناه
اللون من كثرة الفلفل الأسود الذي يمتزج بملحها ..

وما كادت الشمس تشرق حتى مُدَّت سُفْرَةَ الطعام ، فأكلنا
هنيئاً ، وشربنا مريئاً .. وفي ذلك الوقت أحسنا بديب النشاط يسري
في أعضائنا .. كما شَعَرْنَا بديب الأمل يسري في قلوبنا .. فلقد أقرنا
من الهدف المنشود .. وقد أَطْلَقَتِ النَّكَاتُ ، وارتفعت الضحكات ،
وشاعت الفرحة والبسات على الثغور والوجوه ..

وفي الساعة الواحدة والنصف صباحاً بالتوقيت العربي المحلي للمدينة
المنورة ، نَحَرْنَا بسياراتنا ، الشِّمَال ، وأمامهنَّ « السيارةُ القائدةُ »
الرائدةُ » .

وكان السهل الأفيح قد تحلف عنا ، مُودِعاً لنا إلى رجعة ،
ومُسْلِماً لنا إلى حزن من الأرض أدكن ، يشبه الحِرَار . وبدت إلى
جانبنا الأيمن سلسلة جبال مختلفة الأحجام والأشكال قدرنا أنْ بها الكثير
من آثار التُموديين ، وأَيَّدَتْنَا في ذلك الدليلُ فيما بعد وقد رأينا الرعاة
وبعض الأعراب ، فتأكدنا أننا على مقربة من « الهدف المنشود » وأنه
الآن ليس ببعيد عنا كما أراد بعض السائقين أن يدخلوه إلى أفكارنا ، وأن
يملأوا به أدمغتنا فيسدوا باب أملنا .

وحينما ارتقت بنا السيارة ، تَلَّامٌ مُنْبَسَطاً شاهدنا أمامنا في وهدة
مستطيلة من الأرض (حَيِّفًا) كبيراً ملتفَّ النخيل والحدائق .. وكان
ذلك الحيف هو حقيقة الهدف المنشود ، هو « تِهَاء » بالذات . ومررنا
بسور البلد القديم المتهالك من طول ما مر عليه من سنين وفتن ، وما
سطع عليه من شمس وقمر ، وما نزل عليه من مطر وحرٍّ وقترٍ ،
وعواصف ، وما حل به من مختلف الكوارث .. وكانت سلسلة الجبال
عن يميننا يشبه بعضها الخيام ، ويشبه بعضها البيوت ، ويشبه بعضها

المربعات ، ويشبه بعضها الأبراج الحربية .. وشاهدنا الشواخص التي طالما شاهدناها في هذا الطريق على التلال والجبال .. وكان يخيل إلينا أنها تماثيل منصوبة لآدميين ، فإذا اقتربنا منها تبدت لنا شواخص بدائية ، لعلها نصبت لتبيان معالم الطريق ، وكأن هؤلاء (الشماليين) تأثروا بأسلافهم الأقدمين من ثمود وغيرهم ، في نصب التماثيل البشرية في كل مكان يمررون به أو ينزلون فيه .. بخلاف (الجنوبيين) فليس بهم من هذا القبيل شيء ..

في تيماء

ها نحن أولاء الآن لقد بلغنا (الهدف البعيد المنشود) وحققنا الحلم الغالي إننا الآن في قلب واحدة تيماء ، الرابضة في وسط صحراء مخوفة فيحاء .. وها هي ذي نخيلها وآطامها المتداعية التي يقول عنها أمير شعراء الجاهلية : امرؤ القيس الكندي في معلقته :

وَتَيْمَاءَ تَمْ بِتَرْكُهَا جِذَعًا تَحْتَلَّةً
وَلَا أَطْمَأْأ إِلَّا مَشِيدًا يَجْتَدَلِ

ولقد قطعنا في طريقنا إليها السهل والوعر ، والجبل والوادي ، وأجبات السلم والطلح ومنابت العشب وبعض الفيافي الجرد .

هذه تيماء يا رفاق ! بلد العاقلة ، هذه شرطتها .. وهذا لاسلكيها ، وهذه محكمتها ، وهذه مدرستها ، وهذه بيوتها ونخيلها ، وهذا جوها

١ يبدو أن ثمة علاقة خاصة بين الآطام والبهوات الشمالية من جزيرة العرب .. من المدينة المنورة وما في شأها .

الباسم الحميل ، وهؤلاء هم أهلها الذين تبدو عندهم أمارات الصحة والنشاط بعد بوؤس كارب وفقر مدقع ، مر بهم ، أيام كانت في عزلة عن العالم ، بالموقف الذي وضعها فيه حاكمها الأسبق (عبد الكريم ابن رمان) .. وشتان ما بين حالها في ذلك العهد الماضي ، وحالها في عهدها الحالي . فقد أصبحت في نعيم وتقدم وتطور مشهود .

° ° °

ودخلنا البلد بسياراتنا من غير دليل .. إلا أننا ألقينا سؤالاً على بعض من شاهدناهم عرضاً في الطريق عن بئر هَدَاج ، وأبتهجتنا أن شوارع البلدة نظيفة على خلاف ما كان أورده عنها عبد الله فيليب في كتابه (أرض الأنبياء) . ولا بد أنها تغيرت في هذا الظرف .

وشوارع تيماء ضيقة متعرجة ، ولكنك لا تشعر فيها بتقزز ولا بانكماش ، بل تشعر بغبطة غامرة من هذا الجو الشمالي اللطيف الساحر .

وما زلنا نسير بسياراتنا وتبدأ في داخل البلد ، مستطعين ، وقد مررنا بقصر شامخ في وسط المدينة فقررنا أنه (قصر ابن رمان) الذي له نحو نصف قرن من الزمان .. وهو قصر قرّوي شامخ ، شيد باللبن النسيبي ومن طينة أرض تيماء القوية التي تشبه الأسمنت في قوتها .. حسب ما بدا لنا حين زرنا عاصمة (نيونايديس) البابلي .. وشاهدنا طلل أحد قصورها فإذا به مئاسك برغم مضي عشرات القرون عليه هنا . وقد أمسكت بين أصبعي ببعض هذا الملاط الذي يربط بين حجارة القصر المصقولة ، فإذا به من طينة البلد ، وبعض حجارة البلد أصفر اللون ، وبعضها أدكن قاتم .

والأمر الذي جعلنا نقرر أن القصر هو قصر ابن رمان ، يتمثل في هذه الشخرات التي تحيط بجداره الخارجي من كل ناحية .. وهي معدة

لإطلاق الرصاص على المهاجمين له من الخارج ، وبجانبه القصر (دكات) بجلوس رجال الأمير ومن يقصدونه من عامة الناس وخاصتهم وقد اضطرت سياراتنا إلى أن تقف على مسافة نائية من بئر هداج ... فالتفتوا المائبة المفتوحة التي تعرض الطريق عاقبتها عن المضي إلى قرب البئر .. وإن كنا لاحظنا أن بجانب البئر رأساً (وَيْتاً) واقفاً لأحد أهل تيهام ..

ومشينا على أقدامنا إلى بئر هداج ذات السمعة المدوية في عالم آبار هذه المملكة الغزيرة القدمية .. وقد وجدها فيلبي قبل اثني عشر عاماً ، وهي حفرة مستديرة الشكل دون انتظام وجدرانها مبنية بحجارة مصقولة وقال : إنها تحتاج إلى إصلاح .. أما نحن فشاهدناها على غير ما وصف فيلبي .. إنها الآن مربعة الشكل وقد أصلحت .

ويقول فيلبي : إن عمقها ست قاعات تبدأ من سُفْلِ البئر ، وإنها كانت مورداً لكثير من قوافل الجمال وقطعان الماشية التي تقصدها للورود ، كما أن الواحات المجاورة تزوي منها ، ويقول : إنها تستطيع أن تسقي (٩٩) جملاً دفعة واحدة في فصل الصيف الفائض . وقد علم فيلبي أن عدد الجمال التي ترد هداجاً في الدفعة الواحدة أيام زار تيهام هو (٧٧) جملاً .. كما أن مثل هذا العدد من الجمال ضروري لتزح الماء من البئر .

وتمنى فيلبي أن توجد مضخة ماء واحدة لإراحة الحيوانات من ذلك العبث الثقيل . وقد حصل ما تمناه فعلاً ، فإن على هداج اليوم عدة مضخات تنزح الماء الوفير منها نزحاً ، ليليل نهار . وقد ارتاحت الجمال دفعة واحدة من عناء رفع الماء منها إلى سطح الأرض .

وبئر هداج عذبة الماء جداً ، وإن كان يعكر هذه العذوبة ما بها من جرثومة (البلهارسيا) على حدّثنا به عبد الله الشنفي أمير تيهام



المؤلف : على بئر هداج بنباء ومعه جعلني الاعرابي

وغيره .. وقد أفادنا بأن الحكومة بدأت في مقارمة هذه الحثومة بإلقاء المطهرات على البئر .. ويبدو أن الأمر يتطلب إصلاحاً جذرياً في نفس بناء البئر التي نمت فيها الأعشاب ، واستطالت حتى كادت تبلغ حافتها .. كما يتطلب تنظيفها وطلاءها بالإسمنت ومعاودة تطهيرها بصورة مستدامة حتى تزول منها الجراثيم إلى غير رجعة .. وذلك وقاية لصحة سكان هذه المنطقة والمارين بها ، الذين يكثر اعتمادهم على ماء هذه البئر الثرة ، العذبة : الزلال وهذا ما قررت الحكومة القيام به .

ومضخات بئر هداج ست ، واحدة أو اثنتان منها معطلة ، وهي لا تقف ليل نهار ... وهذا مما يؤكد غزارة ماء هذه البئر ، ومطابقة واقعها لشهرتها .. وحدثني فهد العبد العزيز الطلق التياوي أن هذه المضخات قد أمرت الحكومة بوضعها على هذه البئر وتشغيلها .. وبئر

هداج تسمي الآن حدائق الواحة المنتشرة ذات اليمين وذات الشمال ، وقد لاحظنا أن قنوات مياهها يعلو بعضها بعضاً بنظام ، حتى يأخذ كل نصيبه المقرر له من الماء .

وقد عدّ فيلبي (٢٧) قناة ، في تيماء ، صالحة للعمل ، ووصف القنوات بالضيق ، وبأنها مصنوعة من الحجارة غير المصقولة ، وقال : إن المياه مقسمة إلى ٣٠ سهماً . وعد أشجار النخيل في واحة تيماء التي كان يملكها «رُمان» في الأصل (٨٠٠) نخلة ، وقدر سكان تيماء بألف نسمة ، ونعتمد أنهما الآن أكثر ، ونمضى أن يعاد حفر بشر «الرجاج»^١ لتعود تيماء غنية بالماء كما كانت قبل ٢٥١١ سنة .

وكانت تيماء قد تقلبت في خضم السياسة والحروب ، خلال الدهور الغابرة . كانت في الزمن القديم عاصمة صيفية للملك البابلي «نبونابندس» (٥٥٦-٥٣٩ ق.م .) وقد جعل منها قاعدة لِحَمَلَاتِهِ على العَرَبِ حسب ما قاله كارل بروكلمان في كتابه : «تاريخ الشعوب الإسلامية» .. ثم كانت منزلاً لليهود الذين أجلاهم ضغط الفتوح البابلية والأشورية عن فلسطين ، فقد خربت هذه الديار ، فاضطروا للهجرة منها ، فنزلت قبائل منهم تيماء .. و (تيماء) بالفتح والمد - كما في «معجم البلدان» لياقوت الحموي - بلد في أطراف الشام ، بين الشام ووادي القري ، على طريق حاج الشام ودمشق .. وكانت تيماء - كما في دائرة المعارف لبطرس البستاني - حصناً أعمر من تبوك وحاضرة طيء ، وإلى الشمال الشرقي منها الثعلبية^٢ ، وإلى الجنوب الشرقي : فيد ..

» * »

وفي منطقة تيماء آثار ثمودية وافرة رآها فيلبي ونقل الكثير منها إلى

١ ص ١١٦ : وقد تكون صيغة «الرجاج» هذه تحريفاً من المترجم للكتاب: عمر البراوي .. وأصلها إذن «هداج» .. كما يفهم من سياق الكلام عن بشر هداج .

متحف 'جدة' ، كما رآها غيره من سبقه إلى هذه المنطقة من المشرقين ، وهي إما نقوش من خط الثموديين ، قوم صالح ، وإما هياكل ومعابد ، وإما أسماء المسافرين الثموديين^١ ، وإما صوراً أناس وخيل وجمال وحيوان ، وإما قلاع وحصون وقنوات وصخور ، وقد شاهدنا بعض هذه الآثار في رحلتنا إلى تيماء ورسمنا بعضها .

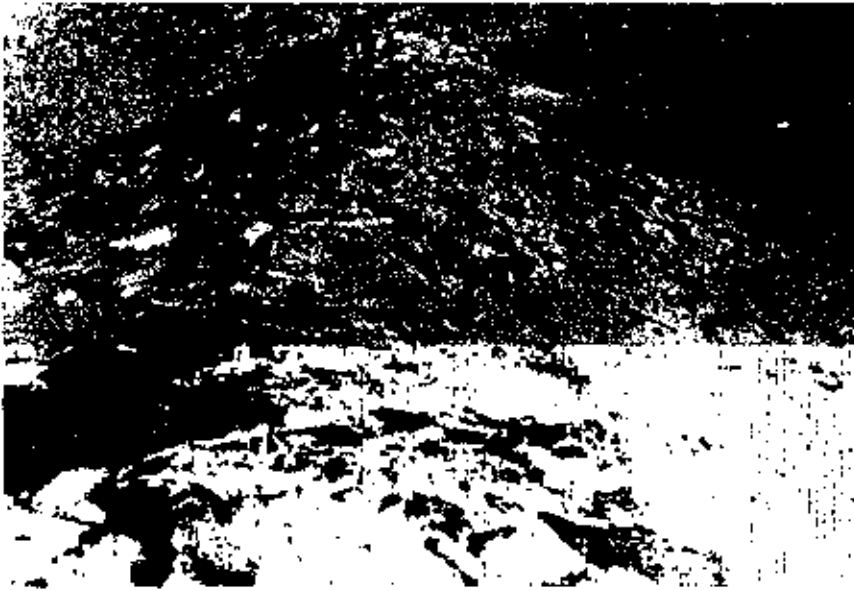
وعلى قمة برج المراقبة عشرات من الأسماء الثمودية حفرها أصحابها هناك في قديم الزمان ليبدلوا على مرورهم بالمنطقة .

وتيماء في طرفها الغربي حصن السمؤال ، وهو يهودي أصله من خيبر ، على ما في دائرة المعارف لبطرس البستاني ، حسب ما سبق أن أوردناه في الحديث عن خيبر ، وأصل صيغة (السمؤال) : صموئيل .

وفي الجبل الأبلق الفرد يقول السمؤال من قصيدة له :

لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ مَنْ نُجَيْرُهُ
مَنْبَعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلُ
رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى وَسَابِغُهُ
إِلَى النُّجْمِ قَرَعٌ لَا يُنَالُ طَوِيلُ
هُوَ الْأَبْلَقُ الْفَرْدُ الَّذِي شَاعَ ذِكْرُهُ
يَعَزُّ عَلَى مَنْ رَامَهُ وَيَطُولُ

١ وردت هذه الأسماء الأعلام في نقوش تيماء وجوارها : فاجر ، نمر ، سالم ، عفيف ، حنا ، طابع ، مرة ، كميعة أو : كاملة ، فنانان ، طريف ، رفيق ، راجع كتاب : « من الساميين إلى العرب » لنسيب وهيبة الحازن ، طبع بيروت ١٩٦٢ م ، « وهذه الأسماء يستفاد من دراستها وتأملها ارتبطت عرب الجاهلية القريبة من الإسلام ، بعرب الجاهلية القدامى كشمود وغيرهم » .



يشاهد فوق ، طلكلُ قصر السموأل في تباء ، ويبلغ عرض جداره
حوالى مترين ونصف المتر إلى ثلاثة أمتار

وهذا من مبالغات الشعراء .. إن صحَّ أنّ هذا القول للسموأل ،
وقد لا يكون صحيحاً ، فإننا قد شاهدنا « أبلقتهُ الثرَدَ » هذا من
كثب .. فإذا هو جبل أسود صغير ، لا يُرهق الصعود اليه أيّ إنسان ، كما
أن الحصن الذي يعلوه أسود ، أو إن بقاياها هي السود الآن ، وقد
يكون فيما مضى أبيض وألق وذهب بياضه مع الأيام أو بحوادث ، إلا أن
الجبل على كل حال ليس كما وصّفه : له فرع لا بُنالك طويل .. ومن

مبالغات شعراء العرب المائلة قول عمرو بن كلثوم التغلبي :

مَلَأْنَا الْبَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا

وَتَحَنُّنُ الْبَحْرِ تَمَلُّوهُ سَفِينَا

ويقول فيلبي : إن قصر الأبلق أو قصر السمائل ، الذي هو قلعة يوجد في الناحية الغربية من النقطة التي تقوم فيها المدينة الرئيسية ، وعلى مقربة من طريق السيارات المؤدية إلى المدينة ، وتحدثت (بأن السمائل تسمى قصاصه العادل في هذا المكان بسبب موالاته لأعداء العرب ، مقابل ضمان هؤلاء الأعداء ما يملكه من أسلحة وأشياء أخرى ، إذا ما حاول الهرب من ذلك القصر) (ص ١١٢ من كتاب أرض الأنبياء ، تعريب عمر الديراوي) .

وقد انعكس الموضوع على فيلبي أو المترجم ، فالقصة الأسطورية العربية تقول : إن السمائل كان متحصناً بقصره الأبلق .. حينما وافاه خصوم امرئ القيس الكندي الذي كان أودع لديه دروعاً وسلاحاً له ، فأرادوا من السمائل أن يعطيهم إياها فامتنع فهددوه وسلم منهم السمائل في حصنه المنيع ، ومن ثم هددوه بقتل ابن له كان خارج القصر ، فما بالى .. فنفذوا تهديدهم ، وسلمت الدروع ، ومن ثم ضرب به المثل في الوفاء ...

وَزُرْنَا قصر « الرَضْمِ » ، وهو من القصور الأثرية التي لم تتداع في تباه .. به نقوش عربية قديمة وثمودية ورسوم جِمال وفي وسطه بئر أثرية محفورة في الصخر الأصم ، وهي الآن مطمورة .. وقال لنا الدليل : إنها كانت ثرة بالماء .. ولم يذكر عبد الله فيلبي هذا القصر فيما ذكر ، وهو الآن ملك لعبد الله القين .

وإذا كان فيلبي وجد بين خرائب تباه القديمة ، الكثير من الأشياء الأثرية ، ومن ذلك قطع الحجارة المنقوشة وبقايا أواني الخزف فلاني قد وجدت من ذلك شيئاً أيضاً .

وقد اكتشف فيلبي في هضاب « غُنَيْمِ » التي يبلغ ارتفاع قمة جبلها ٤٠٠٠ قدم عن سطح البحر ، الأوتان الثمودية الكثيرة ، ومن

بينها صَتَمٌ (سلم) الذي هو على صخرة ناعمة يبلغ ارتفاعها ٢٠ قدماً في عدة صور منحوتة تمثل رأس ذلك الصم . وكان رأسه بيضاوي الشكل لا ذقن له ، وجبهته واسعة مستقيمة يبرز من طرفيها قرنان فوق الأذنين الواسعتين .

من تاريخ تيماء

يذكر فؤاد حمزة في «كَلْبِ جزيرة العرب» : أنّ واحة تيماء على حافة النفود الكبير الغربية وأنها من الواحات الواسعة الحصبة التربة ، وأن تيماء ، وخيبر ، تقعان في المنطقة المرتفعة الممتدة من شمال مدين إلى حدود اليمن .. ويقطن السَّعَادَاتَ من قبيلة الصَّلْبَةِ ، وعددهم (٩٠) بيتاً ، مُقَرَّباً تيماء .. وأهلُ تيماء الأوائل من العالقة ، وكان معاوية رضي الله عنه وَجْهَ سرية إلى جهات تيماء لاحتلالها ، بعد قضية الحكميم ، وقد أنشأت سليح التي كانت تعرف باسم الضجاعمة في الشام ، ومنها كَلْبٌ — دولةٌ مستقلة في دومة الجندل حتى تبوك وتيماء .. والضجاعمة كما في المعاجم : بطن من قضاة ينتسب إلى ضجعم بن سعد ابن عمرو الملقب بسليح بن حلوان بن عمران بن الحلاف بن قضاعة ، وكانوا عُمَمَالاً لِلرُّومِ ، فلما نزلت غَسَّانُ من مأرب إلى الشام ، كان الضجاعمة يأخذون من كل رجل ديناراً ، فأبى العامل رجلاً اسمه جذع الغساني وطالبه بدينار ، فاستمهله : ثم قتله .. فثارت الحرب بين غَسَّانَ والضجاعمة .

وفي العهد الحديث كانت تيماء تابعة لإمارة حائل منذ عهد آل الرشيد واستمر ذلك حتى العهد السعودي ، وقد تتابع على إمارتها أمراء

رَشِيدِيُونِ حَتَّى اسْتَقْبَلَهَا رُمَانُ بْنُ حَظِيمٍ ، وَتَسْلَسِلُ حَكْمَهَا ، فِي
أَبْنَائِهِ ، حَتَّى كَانَ آخِرَهُمْ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ رِمَانَ ، وَقَدْ زَارَهَا « غُورْمَانِي »
سَنَةَ ١٨٦٤ م مُؤَقَّدًا مِنْ قَبِيلِ الْحَاكِمِ التُّرْكِيِّ ، لِيَشْتَرِيَ لَهُ مِنْهَا عَدَدًا
مِنَ الْخَيْلِ فَوَجَدَهَا مُسْتَقْلَةً تَحْتَ إِمْرَةِ رِمَانَ الْمَذْكُورِ ، وَقَدْ ظَلَّ حَكْمَهَا
فِي نَسْلِهِ إِلَى مَا قَبْلَ قَدُومِ قَيْلَبِيِّ إِلَيْهَا ، بِقَلِيلٍ ، قَبْلَ نَحْوِ اثْنَيْ عَشَرَ
عَامًا ، مِنْ تَأْلِيفِهِ لِكِتَابِ « أَرْضِ الْأَنْبِيَاءِ » .

وَوَادِي تَبَاءٍ مَخْلُوقٌ مِنْ نَاحِيَّتَيْهِ : الْغَرْبِيَّةُ وَالشَّمَالِيَّةُ بِسَلْسَلَتَيْنِ مَسْنُورَتَيْنِ
الصَّخُورِ الْوَاطِئَةِ ، وَتَمْتَعُ بِسَاتِنِ التَّخْيِيلِ عَلَى طُولِ الطَّرْفِ الْخَنُوبِيِّ مِنْ
تِلْكَ الصَّخُورِ ، وَحَقُولِ الْخَيْبِ وَبُيُوتِ السُّكَنِ الْحَدِيثَةِ الَّتِي أُنشِئَتْ
حَوْلَ الْوَادِي ، فِي حِينِ تَمَعِ خَرَائِبِ تَبَاءٍ الْقَدِيمَةِ بَيْنَ الْحُدُودِ
وَالصَّخُورِ ، وَمَا زَالَ قَائِمًا قِسْمًا مِنَ السُّورِ الدَّائِرِيَّةِ الَّتِي يُسَمَّى حَوْلَ
تَبَاءٍ .

وَفِي تَبَاءٍ أَوْدِيَّةٌ تَعْتَمِدُ فِي مَبَاهِجِهَا عَلَى مَا يَرِدُ مِنْهَا .. وَمِنْ هَذِهِ
الْأَوْدِيَّةِ وَادِي « الْحَمَلِ » بِشَرْقِيَّةِ تَبَاءٍ ، وَوَادِي « حَسِينِيَّةِ » وَوَادِي
« خُوَيْلِدِ » ، وَوَادِي « صَيْفِيَّةِ » الَّتِي يَأْتِي مِنْ سَلْسَلَةِ هَضَابِ جَبَلِ
« غُنَيْمِ » الْعَالِيَةِ ، وَيَجْرُ بِالنَّحْرَائِبِ الْأَثْرِيَّةِ وَيَدُورُ حَوْلَهَا .

وَيَذْكَرُ قَيْلَبِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَبَ خِيَامَ مُعَسَّكِرٍ
فِي الْأَرْضِ الصَّخْرِيَّةِ الَّتِي تَعْرِفُ بِاسْمِ « الْمَحْجَةِ » بِتَبَاءٍ . وَيَقُولُ : إِنَّ هَذَا
الْإِسْمَ أَقْدَمُ مِنْ هَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ .. عَرَفَ ذَلِكَ مِنَ النَّقُوشِ الْأَثْرِيَّةِ الَّتِي عَثَرَ
عَلَيْهَا فِي الْمُنَاطِقَةِ .

وَكَانَتْ تَبَاءُ نَائِبَةً لِلْحِجَازِ فِي عَهْدِ الْمَلِكِ حُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ، ثُمَّ
ضَمَّهَا هِيَ وَخَيْبَرَ السُّلْطَانُ عَبْدِ الْعَزِيزِ آلِ سَعُودٍ إِلَى أَمْلَاكِهِ فِي يُولْيُو
سَنَةِ ١٩٢٢ م .

هَذَا وَقَدْ جَاءَ إِلَيْنَا شَابَانٌ مِنْ أُسْرَةِ الطَّلُوقِ ، إِحْدَى الْأُسْرِ الثَّلَاثِ

المعروفة في تيماء ، والثانية هي آل سَلَامَة ، والثالثة آل رُمَان ..
وهما أخوان اساهما فهد وعبد اللطيف العبد العزيز الطلق .. وأريانا
بُسْتَانًا لما آثرنا أن نَقِيلَ به ، لأنه كان جميلاً وفينان وتندلي ثمار
الليمون الكبيرة من شجرة ليمون باسقة في وسطه ، فرأينا أن ننزل
تحتها بظلها الوارف .. والأخوان موظفان في الحكومة ، وأحدهما وهو
عبد اللطيف موظف في دائرة الجوازات والجنسية ، بتيماء .. وقد أنسنا
بلقائهما ، فهما بشوشان وديعان ، وكانا يفضيان لنا بما لديهما مسن
معلومات عن بلدهما في لُطْفٍ وغبطة . وقد راقمنا فهد في تجوالنا
بجرائب العاصمة القديمة ، ودلّنا على أشياء مهمة كثيرة .

وقد سرني مرآى طلاب مدرسة تيماء الصغار في الصباح ، وهم ذاهبون
إلى مدرستهم الابتدائية ، حاملين مَحَافِظَهُم المدرسية ، ومرتين
ملايسهم البيض النظيفة ، وعلامات الصحة والانشراح تلوح على
وجوههم ..

وبعد أن ارتحنا هنيهة في حديقة آل الطلق ، قال لنا السيد حبيب :
ألا ترون أن نزور الأمير عبد الله الشينفي أمير تيماء ؟ .. فارتحنا
للفكرة وارتدينا مشاحنا وذهبنا لقصر الإمارة الذي يقوم على مقربة من
مقيلنا .. وسألنا فهداً الطلق عن جلوس الأمير .. فافادنا بأنه يجالس ..
وذهبنا اليه وسلمنا عليه فحيانا ببشاشة ساحرة ، وجرت أحاديث معه
عن تيماء وماضيها وحاضرها من النواحي السياسية والثقافية والعمرائية
والاجتماعية والزراعية ، وقد فهمنا أن بها مدرسة ابتدائية تحوي ٣٠٠
طالب ، ومدرسة ليلية لتعليم الكبار فيها نحو ٨٠ طالباً .. كما أرانا فهد
الطلق المسجد الذي هو في قصر الإمارة والذي اغتيل فيه عبد الكريم
ابن رمان آخر أمراء آل رُمَان ، وأرانا محل اغتياله بالذات .

واستأذنا من الامير في أن نتجول في آثار تيماء .. وقد دعانا إلى أن

تغدّى عنده فوافقنا ، وامتنينا سيارتنا ومعنا الدليل فهدد الطلق وذهبتنا إلى غرب المدينة ووقفنا على السور الدائري الخاص الذي يحيط بخرائب تيماء الأثرية ، ووقفنا على السور الدائري العام الذي يحيط بتيماء في عمائرها الحالية وخرائبها القديمة المتداعية ، وقصدنا أحد القصور الأثرية المتداعية التي بقي منها جدار ضخم متآكل ، لعله برج أو كتف جدار فوقنا تحته وكان فوق ربوة عمالية وأخذنا لنا رسماً ونحن وقوف تحته في الظل .

وتحت هذا القصر في داخل السور الدائري الخاص بشرّ منجوتة في صخر صلد ، وهي مربعة الفصحة ، واسعة ، وقد طميرت قديماً ، وقام أحد أهل تيماء بمحاولة حفرها وإعادة جريان المياه فيها . وفي حفائرها وجدت كوزاً خزفياً أو زهرية نكاد تكون متكاملة ولتوحاً رقيقاً من معدن نحاس أصفر صديء لا أدري حتى الآن ماهيته إذ لم أجعل الصدى عنه بعد .

وأرانا الدليل قصرأ متداعياً يقوم على جبل صغير غربي موقفنا مسافة ليست بعيدة عنه .. وقال لنا : إنه قصر السؤال وجبله .. فاكفينا بمشاهدته عن كذب .. إذ لا شيء فيه مهيماً على ما روى لنا الدليل ..

وقد تأملت بالمنظار الذي أحضره معه عدنان حبيب - وهو منظر المائي - في السهل الناعم الذي يحيط به السور الدائري الخاص والذي وقفنا تحت أحد أبراجه أو أكتافه .. فبدأ لي أن هذا السهل كان مزارعاً وحدائق مدينة «نيونايثس» البابلي .. فلما تداعت مدينته أو

١ هذه القطعة أرسلتها بواسطة شركة الزيت العربية - الأميركية إل أميركا لتكشف عليها وإيضاح تاريخها علمياً .. فورد جواب المسر كارل برنت من الظهران بما ملخصه : انه لدى الكشف على القطعة ظهر انها كانت تمحراث قديم صنع باليد من مادة النحاس الأصفر ، ويرجع تاريخها إلى ما بين عام ٢٠٠ و ٤٠٠ م .

عاصمته الصيفية هذه ، وانتقل الناس إلى المدينة الخالية بشمالها الشرقي ،
جفت المياه ، وصوحت الحداق بحكم الإهمال ، واهتم السكان باستصلاح
أرض تياء الحالية وزراعتها - عرضتُ هذا الرأي على الدليل التياوي ،
فأبده وقال لي : إنه توجدُ أطلالُ سَوَاقٍ وقنواتٍ قديمةٍ جداً في
هذا السهل بذاته مما يدل على صحة ما ذكرتُ ..

وفي طريق عودتنا إلى المدينة عند الظهر وبعدما خرجنا من الرمل
الناعم كانت السيارة تسير على مهلٍ فإذا بها بجانب حُفْرَةٍ عميقة
انفتحت حديثاً .. فَتَسَرَّلْنَا وتَأَمَّلْنَاها ، فإذا هي نَقْفٌ واسعٌ مسقفٌ
بالحجارة المصقولة المطابقة . وكان النفق آتياً من مدينة الخرائب ، ومن
ناحية حصنِ السموأل بالذات متجهاً إلى الناحية الشرقية التي هي خلاء .
فقلنا : لعله أحد الأنفاق التي كان ذوو الأمر والنهي القدامى
يستعملونها في قصورهم احتياطاً للحوادث المفاجئة من حصار أو هياج
أو شغب أو فتن ، لينجوا من طريقها بدون أن يستطيع أحد أن يتعقبهم
أو يتعرف على طريق نجاتهم .

وعدنا إلى منزلنا مترقبين قدوم رسول الأمير .. وبعد هنيهة جاء
ودعانا فلبينا الدعرة .. واستقبلنا الأمير الهاديّ البشوش الذي قضى في
خدمة الدولة ٣٠ عاماً ، بعضها أميراً على رِمَاحٍ ، وبعضها أميراً على
الدوادمي ، حيث نُقِلَ بأمر الملك المرحوم عبد العزيز آل سعود إلى
إمارة تياء هذه منذ اثنتي عشرة سنة ؛ ولا يزال بها إلى عام رحلتنا إلى
تياء .. عام ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م .

وأحضيرتُ مائدة الطعام ، وكانت جفنةً معدنيةً فضية اللون ،

١ تقدم الطعام في مثل هذه الجفنت من تقاليد العرب القديمة منذ جاهليتهم . قال حسان بن ثابت في
الجمالية :

لنا الجفنت الغر يلمن في الفضي وأسافنا يقطنن من نجدة دما
وكان ذلك إلى اليوم رمز التكريم لديهم .

ضخمة عالية ، تحمل كبشين سمينين مطهوين على كومة كالأكمة من الأرز المطهور على الطريقة العربية ، وتحت الحفنة مدت المفررة وصفت فوقها صحون الصيغ : « الإدام » من البامية والملوخية والباذنجان الأسود والبطاطس والخبز والفواكه وزهور تياء الضخم الحلو الحميل . وكان الأمير قد دعا قاضي البلد الشيخ محمداً الختلف .

وبعد شربنا للشاي ذهبنا مع الأمير بالسيارات إلى دار القاضي ، فتناولنا بها الفواكه والشاي ، وهي دار رحبة .. وكنا زرنا القاضي هذا ضحى ، في طريقنا إلى الخرائب الأثرية وهو يقضي بين الناس في المحكمة ، فرحب بنا وأبدى رغبته في تكرارنا الزيارة له في داره ، وكانت منا الاستجابة له في المساء .

وفي تياء محطة نفض بدائية ، ودكاكين أدوات السيارات خفيفة البضائع ، ودكاكين غير منظمة للحاجيات . وأغلب بيوتها من طينة البلد القوية . وقد بدئ في إنشاء بيوت فيها بالإسمنت المسلح على الضراز الحديث . ولعل أول ما أنشي في ذلك هذا المركز الحكومي القائم على الطريق المسفلت إلى تبوك .

وقد شاهدنا في قصر الإمارة حجرتين كبيرتين مستطيلتين منقوشين نقشاً عربياً قديماً .. قال فيلسفي إنه لم يستطع تبيين محتوياتهما .. ولكنني قرأت الكثير مما فيهما فإذا هو عبارة عن كلمة التوحيد وكلمات تسبيحية وتذكارية ولعلمهما مما كتبت في القرن الهجري الثالث .

هذا وقد أعرب لي الشاب عبد اللطيف العبد العزيز الطلق الموظف بالحوازات والجنسية بتياء عن مطالب أهل هذا البلد من الحكومة وهي ثلاث : مدرسة إعدادية يدخلها المتخرجون من المدرسة الابتدائية ، وبلدية تنظم وتنظف البلد ، ووحدة زراعية تُنهض وتُنشئ زراعتها

فهائنذا أضحَ هذه المطالب الثلاثة الضرورية لرفع مستوى تيماء بين يدي الجهات المختصة وهي جديرة بالاستجابة إن شاء الله .

الحجر^١ أو مدائن صالح

الحِجْرُ في القرآن المجيد :

يقول المراغي في تفسيره للآيات الكريمة التي خوطب بها ثمود ، قوم صالح ، عليه السلام : « واذكروا إذ جعلكم خلقتاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً » - يقول : أي تذكروا نعم الله عليكم ، وإحسانه اليكم ، إذ جعلكم خلفاء لعاد ، في الخضارة والعمران والقوة والبأس ، وأنزلكم في منازلهم تتخذون من سهولها قصوراً زاهية ودوراً عالية ، بما أهداكم من حذق في الصناعة (الطوب المحرق) وتستعملون النجص ، وتُجيدون هندسة البناء ودقة النجارة ، وتنحتون من الجبال بيوتاً ، إذ علمكم صناعة النحت وآتاكم القوة والنجند .. روي أنهم كانوا يسكنون الجبال في الشتاء ، لما في البيوت المنحوتة من القوة ، فلا تؤثر فيها الأمطار والعواصف . ويسكنون في السهول بقية الفصول ، للزراعة والعمل^٢ .

١ في تفسير الألوسي أن اسم مدينة الحجر هذه ، هو « قرح » . وفي شرح قصيدة نشوان الحميري « ان مدينة الحجر كانت تسمى في عهد ثمود : « مدينة قرح » ص ٢١ ، ر ص ٢٥ طبع المطبعة السلفية بمصر ١٣٨٧ هـ .

٢ تفسير المراغي ، ص ١٩٩ ، ج ٨ ، طبع بمصر .

وتؤيد الدلائل التاريخية والأثرية ما ورد في الذكر الحكيم من أن
ثموداً خلقت عَاداً في الحضارة والقوة .

وتمثل مظاهر حضارة (عاد) أسلاف (ثمود) ، في قوله تعالى :
« أَتَيْتُمُونَنَا بِكُلِّ رَيْعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ
لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ » .. فإن ثموداً عليه السلام لما فرغ من دعاء
قومه (عاد) إلى الإيمان ، أتبعه بإنكار بعض ما هم عليه .. أنكر
عليهم بناء القصور المشيدة لمجرد التفاخر والدلالة على الغنى في كل
مكان مرتفع ، وأنكر عليهم بناء الحصون الضخمة كأنهم يخلدون في
الدنيا .. ثم وصل العظة بما يوجب قبولها بأن ذكروهم بنعم الله التي
غمرتهم .. ذكروهم بها أولاً بجملة ، ثم مفصلة ، ليكون ذلك أوقع في
نفوسهم : (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ
بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ) .

وهذا المشهد نفسه قد تمثل في (ثمود) مع نبهم صالح ، عليه
السلام ، فقد شادوا القصور في السهول ، ونحتوا من الجبال بيوتاً في
الأعالي ، كأنما هم مخلدون ، وقد أنكر عليهم صالح ذلك ، ثم وصل
العظة بما يستدعي قبولها بأن ذكروهم نعمة الله عليهم إذ جعلهم خلفاء
عاد وبوأهم الأرض بعدهم .

وبجدير بالذكر أن هذه الحضارة الزاهرة الشاحنة وصل صولجانها
لثمود بعد هزيمتها لعاد فقد دحرت عاد ، نتيجة عتوها .. لقد صرعها
بغيبها - ولكل باغ مصرع - وكانت دولتها تتخذ جنوب المملكة
العربية السعودية ، مستقراً لها ، ولم يتطرب القرار لثمود في تلك الربوع ،
لذا لم تر فيها البقعة الملائمة لأحلامها ، فهاجرت إلى ناحية الشمال ..
وألقت بها عصا الترحال في وادي القرى الواقع في منطقة الجبال ،
ذي التربة الخصبية والآبار المترعة والجبال المشرقة .. وهناك أنشأت ثمود

حضارتها الخاصة بها ، فبنت في سهول الأرض ، القصور العالية ، ونحتت جبال الحجر بيوتاً ، فضاهتات بهذا الصنيع عاداً في الجنوب وتفوقت عليها ، وبُنَاة الأهرام في مصر .. وقد يكون مما ألَّهم إلى نحت البيوت من الجبال الحجرية ضيق رقعة دولتهم أو رغبتهم في حصرها في مكان معين يحافظون عليه بسهولة من غارات الأعراب المجاورين وغير المجاورين الذين من دأبهم الطمع في المال المجمع الوفير ..

وقد رأينا عبيد بن شربة الحرهمي يفسر معاوية بن أبي سفيان ، الآية الكرمة : (فَتَلَّكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) - وقد نزلت في ثمود وديارهم - يفسرها بقوله : (ساقطة خربة)^١ والسقوط والخراب هما المظهران اللذان يجللنها حتى اليوم .

على أن سياق الآية يدل على أنها نزلت - بقصد الاعتبار - تعبيراً عن حال واقعة ومُشَاهِدَة في عصر الرسول (محمد) صلى الله عليه وسلم .. وهذا التأويل يُسَاعِدُ مباشرة على الدلالة بأن المقصود بصيغة (البُيُوتِ) هنا ، هو هذه المنحوتات الحجرية المائلة للعبان في زمنه عليه السلام ، وحتى زمننا الحاضر بعد نحو أربعة عشر قرناً من الزمان .

والمراعي يسير في تفسيره على هذا الرأي فيقول : إن ثمود ، إمعاناً منها في الأخذ بأسباب العظمة والحضارة بنت لنفسها مدينتين في الحجر لتكون إحداهما المنحوتة في الجبال (مشني) أميناً لها ، تنزله رداءً لها وأماناً في موسم الشتاء وفيضانات الأمطار وقصف العواصف ، ولتكون الأخرى ذات القصور الشامخة الواسعة في السهول (مصطفاً) لها يتلاءم مع جو الصيف وجسني الثمار وجمع المحصولات والعمل .

١ النيجان في ملوك حير ، طبعة حيدر آباد دكن بالهند سنة ١٣٤٧ هـ .

الحِجْرُ فِي اللُّغَةِ :

وَكثيرَ بَطْنِ المَاضِي السَّحيقِ بِحَاضِرِ الحِجْرِ عَامَةً ، وَخَاصَّةً فِيمَا يَتَعَلَقُ بِبُيُوتِ الحِلبِيَّةِ ، نَعُودُ إِلَى مَن اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ .. لِتُحَلِّيلِ وَتَفْهَامِ ، كَمَا نَصَلُ إِلَى النَتِيجَةِ العَلَمِيَّةِ المُنشُودَةِ فِي هَذَا المَجَالِ .. فَتَقُولُ : إِنْ صِيفَةُ (المَبَيْتِ) هِيَ مِنَ الصِّيفِ المَشْرُوكَةِ ، ذَوَاتِ المَعَانِي المَخْتَلِفَةِ المَتَقَارِبَةِ المَتَأَلِّفَةِ الوَفِيرَةِ . وَجَمَعَهُ : بُيُوتٌ وَأَبْيَاتٌ ، وَجَمَعَ الجَمْعَ مِنْهُ : أَبْيَاتٌ وَبُيُوتَاتٌ وَأَبْيَاوَاتٌ .. فَالْبَيْتُ يَطْلُقُ عَلَى المَنْزِلِ المَكُونِ مِنَ الشَّعْرِ (بِفَتْحِ الشَّيْنِ وَالعَيْنِ) وَالمَكُونِ مِنَ المَدَرِ وَالحِجْرِ وَالصِّيفِ وَالنَّيْشِ وَالتَّجَاجِجِ وَالحَدِيدِ الخ ... كَمَا تُطْلَقُ صِيفَةُ (البَيْتِ) عَلَى مَعْنَى الشَّرِيفِ ، وَمَعْنَى التَّرْوِيجِ ، وَمَعْنَى القَصْرِ ، وَمَعْنَى عِيَالِ الرَّجُلِ ، وَعَلَى الكَعْبَةِ المَقْدَسَةِ ، وَعَلَى القَبْرِ ، وَعَلَى فُرْشِ البَيْتِ ، وَعَلَى البَيْتِ مِنَ القَصِيدَةِ — وَهُوَ مَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ صَاحِبُ (القَامُوسِ المَحِيطِ) وَصَفَ (بَيْتِ الشَّاعِرِ)^١ ، وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْرِكَ مِنْ هَذَا إِمْكَانَ تَأْوِيلِ وَصْفِهِ تَعَالَى لِمَنْحُوتَاتِ ثَمُودَ فِي الحِجْرِ ، بِأَنَّهَا (بِيُوتٌ) لِكُونِهَا (مَسَاكِنُ) لِأَوَّلِئِكَ القَوْمِ ، يَعِيشُ فِيهَا أَحْيَاؤُهُمْ .. وَيُؤَكِّدُ لَنَا ذَلِكَ رِوَايَةُ رِحَالَةِ عَرَبِيٍّ مَشَاهِدٍ ، شَاهَدَ آثَارَ الحِجْرِ وَتَأَمَّلَهَا مِنْ كِتَابٍ قَبْلَ اِرْتِحَالِ المَسْتَشْرِقِينَ إِلَيْهَا بِمَا يَقَارِبُ أَلْفَ عَامٍ .. أَلَا وَهُوَ الإِصْطِخْرِيُّ الَّذِي صَرَحَ لَنَا بِقَوْلِهِ : « وَرَأَيْتُهَا — أَيُّ بِيُوتِ الحِجْرِ المَنْحُوتَةِ فِيهَا — بِيُوتًا مِثْلَ بِيُوتِنَا فِي أَضْعَافِ جِبَالِ ، وَتَسْمَى تِلْكَ الحِجَالِ الأَثَالِبِ . وَبِرَأْيِ لِي ، أَنَا كَاتِبٌ هَذِهِ السُّطُورِ — أَنَّ صِيفَةَ « الأَثَالِبِ » ، خَطَأً مَطْبَعِي صَحْتَهُ (الأَثَالِثُ) — وَهِيَ جِبَالٌ إِذَا رَأَاهَا الرَّائِي مِنَ بُعْدٍ ، فَظَنَّهَا مُتَّصِلَةً ، فَإِذَا تَوَسَّطَهَا رَأَى كُلَّ قِطْعَةٍ مِنْهَا مُتَفَرِّدَةً بِنَفْسِهَا ، يَطُوفُ بِكُلِّ قِطْعَةٍ فِيهَا الطَّائِفُ .. وَحِوَالِيهَا الرَّمْلُ ، لَا تَكَادُ تُتَرْتَقَى .. كُلُّ قِطْعَةٍ مِنْهَا

١ القَامُوسِ المَحِيطُ ، ج ١ ، طَبْعَةُ مِصْطَفَى البَابِي المِصْرِيَّةِ ، سَنَةِ ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .

قائمة بنفسها لا يصعد لها أحد إلا بمشقة شديدة .. وبها بئر عمود السني
قال الله تعالى فيها وفي الناقة : «لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ
مَعْلُومٍ»^١ .

كما يمكن من الجهة الأخرى أن تُحتمل لفظة (بيوت) الواردة
في القرآن ، على أن تلك المنحوتات هي (قبور) للقوم ... لأن
«البيت» في اللغة العربية التي نزل بها القرآن المجيد يطلق أيضاً على
(القبر) كما يطلق على مسكن الأحياء ..

وهذا الرأي لم يأخذ به ما اطلعنا عليه من التفسير- وكتب التاريخ
والجغرافية العربية الإسلامية القديمة .. وإنما مصدره الأول والأخير هو
جماعة المستشرقين ، ومن سار على دربهم من مؤلفي العرب بعدهم ،
في العصر الحديث .. وقد اعتنق هذا المذهب بعض من كتبوا في
المصحف المحلية عن (رحلة نادي البحر الأحمر بجدة) إلى مدائن
صالح ، وتحدث به إليّ ، بعضهم ، جازماً بأن المنحوتات ليست
إلا قبوراً لقوم صالح .. ولا يمكن أن تكون منازلهم ، لضيقها الشديد ،
ولأنها عبارة عن كهوف ومساوير ، ولوجود عظام موميّ بها ...
وقلت له : إن ضيق البيوت لا يدل دائماً على عدم صلاح البيوت
السكنى .. وها نحن أولاً نرى في البلاد المكتظة بالسكان اليوم كيف
أن أشخاصاً عديدين يسكنون غرفة واحدة .. لكل منهم ما هو على
قدر نومه وجسمه منها ، وإذا ثبت علمياً أنها قبور من قراءة النقوش
التي عليها .. فالحق أحق أن يتبع ... وهذا رهن باكتشاف
جميعها ..

ولأن أصل هذه النظرية وارد ووافد من المستشرقين ، كما أوردناه

١ المسالك والممالك ، ص ٢٤ ، طبعة مصر .

آنفاً فأرى أن علينا أن نأخذ دائماً معلومات المستشرقين بحذر ، خاصة فيما يتصل بديننا ولغتنا وآثارنا وبلادنا .. وذلك من جهتين لا من جهة واحدة .. وأولاهما : أن افهامهم بعض الأحيان مُلْتَوِيَةً تغلب عليها طبيعة بيناتهم فتشد وتند عن الصواب الواضح بحكم طبيعتها إلى خطأ قاضح ... وثانيتها : الفرض الدفين طَبَعِيّاً وتقليدياً بين جوانح الكثيرين منهم . وواجبٌ علينا اليوم - وقد نهضنا من إغفاءتنا الطويلة - أن لا نكتل على مجهوداتهم العلمية وحدها .. بل نسعى بأنفسنا لكشف كنوز حضارتنا علمياً وعملياً وفكرياً وقولياً وأثرياً وخبرياً .

جاء في كتاب فؤاد حمزة قوله : « وقد زار كثير من المستشرقين بلاد ثمود هذه ووصفوا ما شاهدوه فيها من الآثار والمنازل المنقورة في الجبال الصخرية .. ووضع الرحالة (دوتي) رسماً تقريبياً يعين به المواقع الأثرية في مدائن صالح ، ووصف المغاور المنقورة في الصخور بأنها «رموس» ، ونقل صور بعضها ونشرها في كتابه ، منها : قصر البنت والبرج ومربط الحصان وبيت الشيخ .. وعابن المستشرق (موزيل) أماكن أخرى تُنسبُ إلى ثمود في جهات الغوافة ، بين تبوك والبحر^١ .

وهذا «جرجي زيدان» يخالف في أن أطلال الحِجْر ونُقُوشه ، هي «ثمودية» . إنه يقول ما نصه : «وأما اللابت من قراءة الآثار (فهو) أن مدائن صالح : (الحِجْر) دخلت قبيل تاريخ الميلاد في حوزة النبطيين سكان «بطرا» الآتي ذكرهم ، بدليل ما على أطلال هذه المدن من الكتابة النبطية» . ثم يعطف على ذلك بقوله : «والأطلال المشار إليها زارها غير واحد من المستشرقين ، كما ذكرنا في مقدمة هذا الكتاب ودرسوا بقاياها ، وهي منقوشة في الصخر ، أهمها نقوش

١ قلب جزيرة العرب ، ص ٢١٣ ، المطبعة المدفعية بمصر ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م .

تعرف بقصر البنت وقبر الباشا والقلعة والبرج ، وقرأوا ما عليها من النقوش النبطية فإذا أكثرها أو كلها تبركات منقوشة على القبور) ... ثم نقل نقش القبر الذي « بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكليبة ابنتها »^١ ، ويؤيده في ذلك جواد علي في كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » .

وبالرأي نفسه يقول صاحب كتاب (الجزيرة العربية) فيقول : « وفي مدائن صالح وأطرافها تقوم مقابر أثرية قديمة ولا بد أنها ستكون موضع اهتمام علماء الآثار الدقيق ، ففي منطقة مدائن صالح توجد مقادير (مقابر) كثيرة منحوتة في الصخر ، حُلِّبَتُ واجهتها بالرسوم . وكثيراً ما نرى رسوم التَّسْرِ على واجهتها ، فوق المدخل أحياناً ، وعلى جانبيه أحياناً أخرى .. كما نرى فوق داخل المقابر ، البقايا المهشمة لروؤس إنسانية ، على كل من جانبيها رسم حية . وما من شك في أن بعض هذه المقابر ما زال مدفوناً تحت الرمل ، والمنطقة كلها في انتظار من يقوم بالبحث فيها »^٢ ..

الحِجْرُ في كتب البلدانيات :

في (صفة جزيرة العرب) ما نصه : « فَرَّاجِعاً ، إلى وادي القرى ، إلى الحِجْرِ ، موضع ثمود ، والناقة مرحلة ، وفيه آثار عظيمة »^٣ .

ومحل الشاهد هو قوله : « وفيه آثار عظيمة » .

١ العرب قبل الإسلام ، ص ٧٨ ، طبع مصر .

٢ ص ١٣١ ، ج ١ ، طبعة دار الطليعة في بيروت .

٣ ص ١٣١ ، طبع مصر .

وفي كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد) : « الحِجْرُ ، ديار ثمود
بوادي القرى ، بين المدينة والشام ^١ . »

وفي (وفاة الوفا بأخبار دار المصطفى) للسهودي ما لا يخرج عما
سبق ذكره ^٢ .

وفي (جغرافية شبه جزيرة العرب) لعمر رضا كحالة : « الحجر
قرية صغيرة قليلة السكان وهي من وادي القرى على يوم بين جبالها .
وبها كانت ديار ثمود الذين قال الله فيهم : « وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا
الصَّخْرَ بِالتَّوَادِ » .. ونقل ما قاله الإصطخري عن مشاهدته لها : (بيوتاً
مثل بيوتنا) .

وقال البشاري : إن الحجر ناحية صغيرة وحصينة .

وبحدثنا فؤاد حمزة بقوله : « ورد في الكتب العربية أن ثمود كانت
تقيم في الجهات الجنوبية من المملكة بين عسير واليمن وحضرموت ثم
انتقلت بدواعٍ غير معلومة بعد حروبها مع عاد ، وافئتها إياهم - من
بلادها الأصلية في الجنوب ، إلى شمال الحجاز في وادي القرى ،
وأنشأت في العلا مدائن صالح والحِجْرَ ، منشآت ، بقيت لنا آثارها
حتى الآن ^٣ . أما من ناحية سكانها الحاليين فإن فؤاد حمزة يفيدنا
بأن « إمارة العُلا ، مركزها بلدة العلا ، على خط السكة الحجازية
الحديدية أيضاً ، ويتبعها من العربان هتيم وولد علي وبعض حرب ^٤ . »

١ ص ٩١ ، طبعة بيروت ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .

٢ ص ١١٨٤ ج ٤ ، طبعة مصر ، نشر محمد النمنكاني بالمدينة .

٣ ص ٢١٢ من كتاب « قلب جزيرة العرب » . وربما كانت كلمة « إفئتها » في الأصل
« أجلائها » .

٤ المصدر نفسه ، ص ٧٢ .

ويحدد لنا صاحب كتاب « الجزيرة العربية » موقع مدائن صالح بأنها « تقع للشمال الشرقي من العُلا ، وعلى بُعد ثلاثين كيلومتراً منها . وكانت محطة من محطات الخط الحديدي الحجازي ، على بعد ٩٥٥ كيلومتراً من دمشق .. وترتفع عن سطح البحر ٧٨١ متراً .. وهي في البلاد المعروفة في العصور السابقة باسم « الحِجْر » (بالكسر ثم السكون) من وادي القرى ، بطريق الحج الشامي إلى مكة^١ .

كما يعطينا فكرة عن تاريخ الحِجْر القديم إذ يقول : « والمشهور أن قبيلة ثمود الوارد ذكرها في القرآن الكريم مع النبي صالح ، كان مقامها في (الحجر) وكانت عشاثرها تمتد غرباً إلى البحر الأحمر ، وشرقاً إلى جيلي أجباً وسلمى ، وذكرت في جملة الشعوب التي تغلب عليها سرجون الثاني الآشوري في القرن الثامن قبل الميلاد . وآخر ذكر عثرنا عليه للثموديين هو التحاق خيالة منهم بجيش البيزنطيين في القرن الخامس للميلاد . ومنذ القرن الخامس حتى القرن الثالث قبل الميلاد ، كان يملك (الحِجْر) وجميع المنطقة المجاورة ، اللحيانيون ، فكانت مدينتهم الرئيسية تعرف باسم (هجرا) .. وعلى رأي بعضهم إن مدائن صالح اليوم هي مدينة الحِجْر القديمة^٢ . وقد أورد هنا الرأي أيضاً جواد علي ودَعَسَهُ ، في كتابه : (تاريخ العرب قبل الإسلام) .

١ الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الإسلام : لمصطفى مراد الدباغ ، ج ١ ، ص ١٢١ ، طبع بيروت .

٢ الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الإسلام : لمصطفى مراد الدباغ ، ص ١٢١ ، ج ١ .. على أن تحديده لامتداد عشاثر ثمود غرباً إلى البحر الأحمر تعطف عليه قولنا : وجنوباً عن البحر الأحمر أيضاً . وقد اكتشف في وادي بويب شرق جدة نقوش لهم .. وتحديده امتدادهم إلى جيلي ايجا وسلمى شرقاً يبدو صحته ، بما دلت آثارهم بالصويدرة في طريق القصيم على حلوقهم بها .

الحِجْرُ في البحوث الاقتصادية الحديثة :

في عام ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٣ م أوفدت الحكومة العربية السعودية بعثة أمريكية زراعية جابت كثيراً من بقاع المملكة شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، ووصلت إلى مدائن صالح وكتبت عنها نبذة طيبة في تقريرها العام الذي قدمته إلى الحكومة وطُبع التقرير باللغتين : العربية والإنكليزية .. وجاء فيه : « على الرغم من أن الخرائب الفسيحة الموجودة بمدائن صالح تُبيِّنُ بجلاء أن عدداً من السكان أكبر نسبياً في الأزمان الغابرة يزرع هذه المنطقة بإروائها من الآبار ، فإنه لا توجد هناك في الوقت الحاضر غير مغروسات تمرٍ قليلة .. وهذه المغروسات تُروى من بئر ، سطح الماء فيها على عمق ١٣ متراً من سطح الأرض ، وقد اتصل بنا ان سحب الماء بواسطة جملين لم يخفض مستوى رفع الماء عنها .. ويعتقد مالك البئر أن في استطاعتها أن تتحمل بسهولة سحب الماء منها بأربع قيرب أو أكثر . وتوجد في هذه المنطقة عدة مئات من الأفدنة جيدة التربة . أما الماء الذي يمكن الحصول عليه فلا يمكن تقدير كميته إلا بإجراء تجارب فيه بالمضخات »^١ .

ومعلوم أن هذا التقرير كُتب عن مدائن صالح قبل عشرين عاماً . ولا بد أن حالتها الزراعية قد تحسنت كثيراً أو قليلاً عن ذي قبل ..

الحِجْرُ في الشعر الجاهلي :

ورد اسم (الحجر) في قصيدة الشاعر الجاهلي الحجازي (العجلاني)

١ ص ١٥٧ ، طبع انقارة .

التي استسقى بها المطر لجميع مواطني بلاده الدانية والقاصية : وقد سردها فيها .. من شالها إلى جنوبها ، ومن غربها إلى شرقها . وقد دعا الله تعالى في مطلع قصيدته دعاءً حاراً أن يُرَوِّيَ ظمأً بلاده بالغيث شاملاً كاملاً . وقبيل اختتام قصيدته بثّ لنا ذكرياته الممتعة عن سني الأمطار الغزار التي سبق أن نعم بها الحجاز ، وبهذه المناسبة سمي أيضاً الديار التي هطلت عليها تلك الغيوث ، وعدّ لنا منها (الحِجْر) قال :

رَوَيْتُ مِنْ بَعَائِمِهَا الْعَيْصُ فَالَرَّ
 سَ سِئُولًا ، فَالْمَرَّةُ الْبَيْضَاءُ
 وَأَرَبْتُ أَنْ تَنْصَبَ فِي (الْحِجْرِ) وَالْو
 دَرِّ كَمَا صَبَّ فِي الْحِيَاضِ الدَّلَامُ

جبال الحِجْر :

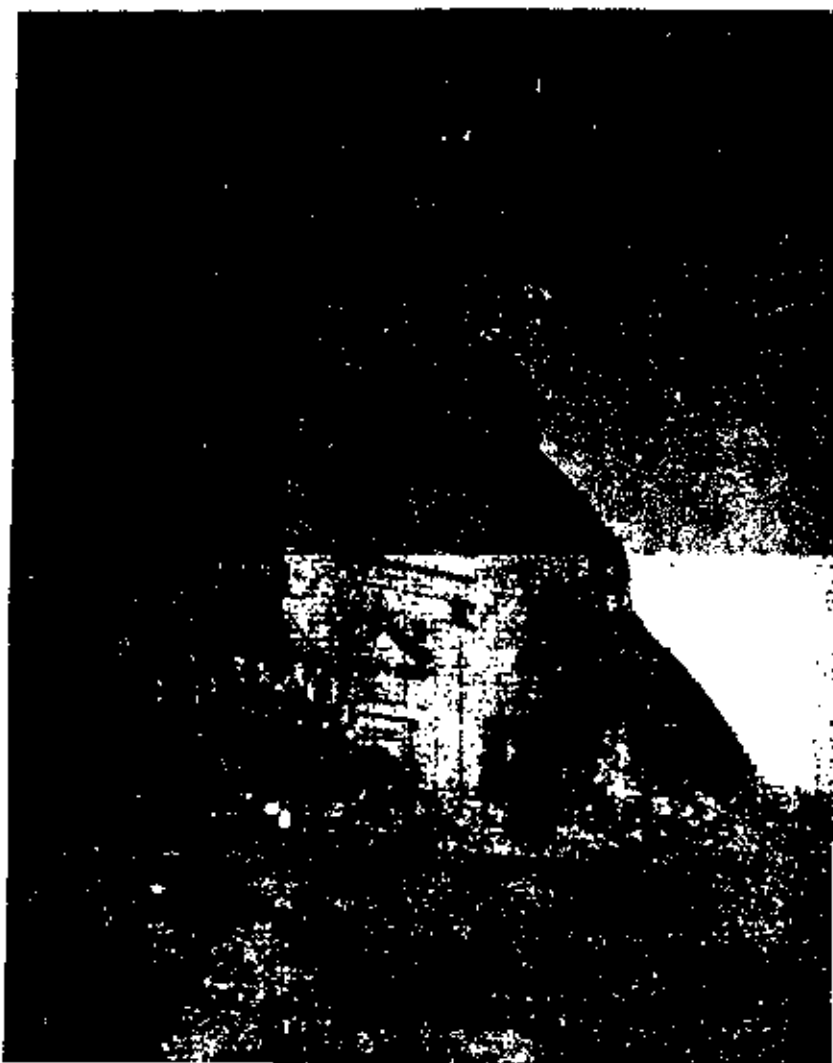
وإن تعجب فعجب من التصحيف الذي يعتري أعلام الأمكنة في المراجع العربية ، فيضيع حقائقها ويجعلها مضطربة لا يتقر لها قرار .. فقد ورد في كتاب (جغرافية شبه جزيرة العرب) لعمر رضا كحالة المطبوع في دمشق الشام أن اسم هذه الجبال هو (الأشالب) بشين معجمة بعد الهمزة .

وورد في كتاب (تقوم البلدان) لأبي الفداء صاحب حماة (طبعة باريس ١٨٤٠ م) ما نصه : « وَتُسَمَّى تِلْكَ الْجِبَالُ الْأَثَالِبُ »^٢ بناء

١ أريت : بمعنى أقامت ومكثت ، والتفسير يرجع إلى الأمطار الغزيرة . وهذا (الحجر) هو مدائن صالح بدليل ذكره العيص قرب وادي القرى : صفة جزيرة العرب ، ص ١٣١ : طبعة مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٥ م .

٢ ص ٨٩ ، ج ١ .

مثلة بعدها ألف فلام فباء تحتية موحدة .
وجاء في (معجم البلدان) لياقوت الحموي (طبعة بيروت) أنها



بعض البيوت الأثرية في مدائن صالح

(الأثالث) ^١ بثانين مثلثتين .

ويبدو لي أن ما جاء في معجم ياقوت هو الصواب ، حسب ما كنتُ
أشرتُ إليه فيما سبق .

وهكذا تضيع معالم الحقيقة في الأسماء غالباً .. من جراء تحريف
الطابعين وقد سبقهم إلى ذلك الناسخون .. ولا يزال الاثنان كذلك .

الخط الثمودي :

يصف الدكتور جواد علي ، الكتابات الثمودية بأنها قصيرة ومجرد
أسماء في كثير من الأحوال 'دَوْنَتْ' للذكرى ، فتراها على هذا النحو :
« لوهب بن رقد » أو « لشهري بن رقد » أو « لغصن بن اسله » . وهي
تفيدنا من ناحية الإحاطة بأسماء الجاهليين ، ولكنها لا تفيدنا من ناحية
قواعد اللغة . فنصوص كهذه ليس في وسع أحد استخراج قواعد
مُفَصَّلة منها . ولهذا كانت معارفنا بنحو هذه اللهجة وصرافها ضيقة
محدودة . ويقول جواد علي : إن الخط الثمودي كالخط المسند ،
والخط اللحياني ، خالٍ من الشكل ومن التشديد ومن الإشباع وعلامات
الحركات ^٢ و ^٣ .

وهذا الذي يقوله الدكتور جواد علي هو حقيقة واقعة . فإن
الخط العربي الذي نكتبه الآن كان في أيام نشأته في الجاهلية القريبة
من الإسلام ، وفي عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه خالياً
من النقط والشكل والتشديد وبعض علامات المد .. وقد زِيدت فيه هذه

١ ص ٨٩ ج ١ .

٢ ص ٨٩ ج ١ .

٣ ص ٨٩ ج ١ .

الأشياء في العصر الإسلامي حينما أصبح خطأً علمياً عالمياً واسع المدى .
وأما ما يقوله من جهلنا بقواعد لغة ثمود فالذي يبدو لي أن هذا من آثار
أوهام المستشرقين وتوهماتهم الداخلة على علماء العرب وإلا فالثمودية
هي العربية نفسها وقواعدها هي قواعدها بدليل أن أسماءها هي أسماؤها ،
على أنه لا بد من وجود اختلافات في اللهجة بين العربيين كما نراه حتى
اليوم ، من وجود بعض الاختلافات في لهجة أهل اليمن وحضرموت
من جهة ، ولهجة الحجاز ونجد من جهة ، خاصة وأن الثموديين هم في
الأصل يمانون ، نزحوا من جنوب الجزيرة إلى شالها كما يفعل الحنويون
إلى اليوم .

ويميل جواد عليّ إلى أن أصل الخط الثمودي هو المسند اليمني .
فيقول : « وقد مر القلم للثمودي في أدوار ، تحرر فيها شيئاً فشيئاً من
أشكال حروف المسند ، فكان كلما مرّ دورٌ ، خرجت بعض حروفه
بمميزات وبعلامات فارقة ، ولكنها مع ذلك لم تتمكن من أن تباعد بين
المسند وحروف القلم الثمودي بوجه عام ، بُعداً كبيراً . والقارئ
إذا ما أبصر الكلمتين فسرعان ما يدرك وجه الشبه وتوحدة الأصل
بين القاميين ، فيحكم بأن القلم الثمودي من ذلك القلم العربي القديم . »

وهذا الذي يقوله جواد عليّ ، يدعم لنا بطريقة حديثة أن أصل ديار
ثمود تقع في جنوب المملكة ، وأنها كانت تُعاش وتُساكن عاداً ،
وأن حرباً بينهما طاحنة نشبت ، هزمت فيها عادٌ ، ثمودٌ ، واستولت
عاد على زمام الزعامة في الجنوب عنوة ، ومن ثم اضطرت ثمود إلى
الهجرة إلى الشمال من أرض المملكة حيث اختارت لإقامة دولتها الصناعية
والزراعية الحديثة ، منطقة مدائن صالح ، ونالها غضب الرب لما استهانت

١ المصدر السابق .

بأوامره وظفت وبعثت على نبيه صالح عليه السلام .. فأصبحت ديارها
 نخالية تنمي من بناها إلى يوم الناس هذا . فوحدة الخطن : الثمودي والمسد
 تدل على أن منشأهما واحد وهو الجنوب . ومن يُدْرِينَا فقد تكون القبيلتان
 عاد وثمود ابنتي عمّ ، تنافستا على الزعامة كما هو دأب قبائل العرب
 المتساكنة في جاهلية وفي إسلام ، فأدّى تنافسهما إلى اقتتالهما ، وإلى
 دحر إحداهما الأخرى ، فاستبدت القبيلة الغالبة بمقدرات المغلوبة واستولت على
 زمام الأمر والزعامة بدلها فاضطرت الملاحورة إلى أن تهجر إلى بلد بعيد
 عن الغالبة القاهرة لها .

ونذكر من هذا القبيل فيما قبل التاريخ حوادث طسم وجديس ،
 وفيما قبيل الإسلام حروب بعات بين الأوس والخزرج ، وحروب
 داحس والغبراء .. الخ ... ثم حروب بني حرب اليانين مع الربيعه التي
 اضطرت (حرباً) إلى الحلاء عن صعلة في سنة ١٣١ هـ إلى الحجاز
 واستقرارهم فيه حتى اليوم .

وتدلنا البحوث وما عثر عليه من خطوط ثمودية في أنحاء الجزيرة ،
 على أن هذه القبيلة العربية أو الدولة العربية (ثمود) قد انتشرت في أنحاء
 كثيرة من بلاد العرب في الحجاز ونجد واليمن ، غير الحبيجر ومدائن
 صالح ... وحقيقة أحوالها وانتشارها إنما تُستكشفُ بإجراء التنقيبات
 الأثرية العلمية في ميطان وجودها مُستمدّاً ذلك من كتب التاريخ ،
 ومن الأثرية المعثور عليها نفسها .. فالآثار تدل على بعضها .

أسماء الاشخاص الثموديين :

وأسماء الأشخاص الثموديين لا تخرج غالباً عن الأسماء العربية المألوفة

١ الإكليل الهمداني ، ج ١ ، ص ٣٠٧ و ص ٣١٧ ، طبعة مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة
 ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .

في الجاهلية القريبة من صدر الإسلام ، والمعروفة المستعملة في كثير من الأحيان في الإسلام : صبحه ، وظهره ، وحاضره . ومن تلك الأسماء الثمودية التي وصلت إلينا : (أوس) و (سعد) و (عقير) و (أسعد) و (إياس) و (قيس بن أبل) و (بارح) - و (مالك) .. وغيرها ... وهي أسماء لا يزال كثير منها مستعملاً ، وكذلك : (أحمد) و (صهيب) و (مهلهل) و (هلال) و (كعب) و (حزم) و (يعلى) و (علي) و (جلال) و (أمية) .

ونرى أن بقاء استعمال هذه الأسماء إلى الآن يدلنا على أن عريسة الثموديين لا تبعد كثيراً عن عربية الجاهلية القريبة من الإسلام كما يحاول المستشرقون أن يصوروه ويدعموه إن لم تكن هي بذاتها .

كما يدلنا تتبعها من مظانها على أن ذلك تم لها حينما تحورت في آخر الأمر من «تَبَعِيَّة» لهججة اليمن . فلا نرى فيها (ذو) ولا (أم) بل (ال) .. لقد عدلت لهجة ثمود بحكم المجاورة والامتزاج - إلى لهجة حجازية نجدية ثمودية ، ثم اندمجت الاندماج الأكبر في العربية القرشية وغيرها منذ فجر الإسلام .. وذابت مع مثيلاتها من اللهجات إلى حد ما ، في بوتقة هذا التراث القيم الراخر بالقوة والمعان .

أسماء الآلهة الثمودية :

وعدد لنا جواد علي ، أسماء الآلهة لدى ثمود .. (رضا) و (صلم) و (ود) و (جدهلد) و (شمس) و (عزيز) و (نعرجد) و (مناة) و (نهي) و (ايل) و (اللات) و (عترسم) و (عترسين) و (كاهل) و (ملك) و (مالك) وبعض هذه الأسماء تتفق مع أسماء الله جل وعلا وصفاته

في العربية الإسلامية .. فالثمة ملك ومالك وعزير^١ .. بيد أنهم كانوا قد أشركوا به تعالى غيره من الأوثان وسموها بهذه الأسماء .. وذلك شأن الجاهلية المتخبطة في أودية الجهالة والضلالة ...

الشهور الثمودية :

إن وجود التاريخ عند قوم أو أمة يدل على أنها ذات مدنية .. وقد أورد لنا التاريخ العربي أسماء الشهور الثمودية .. ومن كان ذا مدنية زاهرة باهرة مثلهم فلا بد أن يكون له تاريخ يستعمله في أعماله الخاصة والعامة ومعاملاته وأعمال ديانته وحكمه وإدارته ..

وهذه هي أسماء شهورهم الاثني عشر :

موجب ، وموَجِر ، ومورد ، وملزم ، ومصدر ، وهوبر ، وهويل ، وموها ، وذيمر ، ودابر ، وحيقل ، ومسيل .

وموجب هو المحرم ، وموَجِر هو صفر . ويبدأ تاريخهم السنوي في تقويمهم بذيمر الذي هو شهر رمضان ، فيكون أول شهور السنة عندهم^٢ .

وأنا حينما أتأمل صيغ هذه الشهور أجد فيها ريسيس لغة عربية صافية تمت أقلها إلى اليمن ، مما يدل على أن أسماء الشهور بقيت في الأقل على ما كانت عليه ، أيام كينونة ثمود في الجنوب ، وأغلبها شمالية

١ لعل معنى « كاهل » في الثمودية هو : « المتمد عليه » ، ولذلك وصفوا الآله به .. وفي العربية الجاهلية العربية من الإسلام ما يدل على هذا المعنى لهذه الصيغة . فقد ورد في ناسخ العروس شرح القاموس : « ومعنى قوله صل الله عليه وسلم : هل في أمك من كاهل ؟ » أي من تمتد له للقيام بشأن عيالك الصغار من يذمك قوله .

٢ المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٢٥ .

السِّمَات .. فموجب ، من كلمة (أوجب) ، و (موجر) من (أوجر) و (مورد) من صيغة (أورد) ، و (ملزم) من (ألزم) و (مصدر) من (أصدر) . أما (هوبر) و (هوبل) و (موها) و (حيقل) فهي على ما يبدو لي لم تُعَدَّل ولم تُصَفَّلُ بَعْدُ .. لقد بقيت على ما بعها الجنوبي القديم الذي طبعت عليه ، أيام استيطان التهوديين الجنوبي و (ذيمر) كذلك جنوبية الطابع على ما يظهر لي .. فإن علامة (ذي) موجودة فيها وهي جنوبية . و (دابِر) من أدبر ضد (أقبل) و (مسيل) من (سال) أو (أسال) .

حضارة ثمود :

هذا ولعدم استكشاف حضارة ثمود إلى اليوم ، فإن العالم لا يعلم عنها سوى نَتَفٍ .. وأهم ما لدينا عنها ما ورد في «الذكر الحكيم» الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .. وقد كان لجهود الرحالين المسلمين القدامى ، ومن جاء بعدهم من المستشرقين المغامرين أثرٌ في استكشاف مفردات وبعض تراتيب من حياتهم وظقوسهم ، ولكنها لا تتناول صميم تاريخ وجودهم كدولة لا في ابتداء ولا في انتهاء ، ولا تتناول النظم الدينية والسياسية والفضائية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والزراعية السائدة لديهم ، إذ لم تجر تنقيبات علمية واسعة النطاق في بلادهم بَعْدُ ، ولم يبحث العلماء عن الدفائن المظمورة في باطن أرضهم طبق ما اتبع في حفائر القراعنة في مصر والأشوريين في العراق وغيرهم من بوائد الأمم . وعسى أن تقوم المديرية العامة للأثار التابعة لوزارة المعارف وجامعة الرياض وجامعة الملك عبد العزيز الاهلية بجدة بالشيء الكثير من هذا القبيل ، فتستدأ هذه الثغرة الكبيرة ، وتطلعنا العالم على حضارة ضخمة سائفة مجهولة الحقائق من حضارات العرب في شأل المملكة العربية السعودية وشرقها وجنوبها وغربها إن شاء الله .

بيوت مدائن صالح

عقب قيام (نادي البحر الأحمر) في جدة برحلته إلى مدائن صالح في أواسط عام ١٣٨٤ هـ - الموافق لآخر عام ١٩٦٤ م - عاد أعضاء النادي إلى جدة ، وتحدث بعضهم عن نتائج الرحلة وما شاهدوه هناك من الآثار الخالدة . وكتب بعضهم ، في بعض الصحف المحلية آراءهم المبينة على المشاهدة والمطالعة ، فذكر أن منحوتات مدائن صالح لم تكن منازل للأحياء السكان ، وإنما كانت مساكن لأمواتهم : أي مقابر ومدافن وأضرحة .

واستند في إثبات هذه النظرية على ضيق البيوت المنحوتة ، وعلى ما أورده بعض المستشرقين الرحالين الذين شاهدوها فيما قبل ، وكتبوا عنها ما كتبوه إذ ذاك .

وعقب ذلك كتبتُ « افتتاحية » في مجلة (المنهل) لعددتها الصادر في شهر رمضان عام ١٣٨٤ هـ - يناير عام ١٩٦٥ م ، تحت عنوان : (الحجر أو مدائن صالح)^١ .. وقد رأيت من باب توسعة معلومات القراء عن هذا التراث الكبير ، أن أضمتَ مقالِي هذا ، نظريات مؤرخي الإسلام ورحالِهِ وعلمائِهِ عن هذه البيوت المنحوتة .. كما رأيتُ أن يشتمل على مُلخَص لآراء الرحالين الغربيين أيضاً ، جمعاً بين العلم القديم والعلم الحديث ، وعرضاً للنظريات جمعاء في هذا الميدان .

كان مؤرخو الإسلام ورحالوه وعلمائوه يرون أن البيوت التي نُقِرَتْ في جبال أو جبالِ مدائن صالح هي بيوت كانت معمورة بأحياء المشركين الذين نحتوها .. وبذلك فسروا قوله تعالى : « قَتَلِكْ بِيُوسُفُ »

١ هي الفصل الذي سبق هذا الفصل مباشرة في هذا الكتاب مع بعض تعديل .

خَاوِيَةَ بِمَا ظَلَمْتُمَا» .. وبذلك فسروا الآية الكريمة الأخرى :
 «وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ كُخْلَقَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي
 الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ
 بُيُوتًا» .. فخاؤها أي فراغها منهم بعد هلاكهم دليل صارخ على
 سكانها فيها في حياتهم .

بل إن الرحالة المؤرخ الإسلامي الإصطخري ، صرح بأن بيوت
 مدائن صالح هي مثل بيوتنا وذلك عقب مشاهدته لها ..

أما الرحالون والمستشرقون الغربيون فرأيهم كان خلاف ما ذكر ..
 إنهم يرون أنها كانت مقابر للأموات ، ولم تكن مساكن للأحياء ...
 وقد أخذ برأيهم من جاء بعدهم من مؤرخي العرب وكتّابهم ، معرضين
 عما أجمع عليه علماء ومؤرخو أسلافهم .

وكما قلتُ آنفاً : إن بعض أعضاء النادي البحري الذين شاهدوا
 البيوت من كتب وعادوا مقتنعين بأنها مقابر وأضرحة لا بيوت سكن ،
 يستندون في إثبات رأيهم هذا على الضيق الموجود في تلك
 البيوت ، ثم بما أورده الرحالون الغربيون في كتب رحلاتهم ،
 ومقالاتهم .

وكنْتُ قد ناقشتهم في هذا الرأي ، من ناحية الضيق ، ومن ناحية
 رأي من سبق هؤلاء الرحالين الغربيين من مؤرخي العرب وعلمائهم
 الذين هم أعرف بديارهم وبيئاتها وأسلافهم وأخبارها ، وألصق بهما
 وأقرب رُحماً ، وقلتُ لهم فيما قلتُ : إن ضيق المنزل لا يقتضي بطبيعته
 أن لا يكون منزل أحياء . ففي المدن المكتظة بالسكان وغير المكتظة ،
 اليوم ، نرى مثل هذا الضيق . وفي المدينة المنورة ، في بناياتها القديمة
 التي لا يزال بعضها قائماً في حي «الأغوات» مثلاً ، وفي «زقاق
 الحمزاوي» شيء من ضيق العُرف يتبرم به الساكن . وفي أنقاض مدينة

الفسطاط بمصر ، ما يثبت هذه النظرية ، فإن الانقراض الباقية تدل على ضيق شديد في العُرف . والمسألة إذن مسألة اقتصاد ، وفن ، وذوق ، ومقتضى حال وعصر : ولنا خير مثال في بعض شقوق العبارات السكنية اليوم بالعالم الحديث .

وقد كنتُ ، زيادة في تنوير الموضوع من جميع جوانبه ، قد أبدتُ لمحدثي أنني إنما أحدثه بما قرأته . والافتناع بحقيقة كونها بيوتَ أحياءٍ أو أمواتٍ هو رهن بقراءة جميع العبارات التي دُوِّنتُ فيها وعنها ، ثم بحفر الخفاثر في السهل المجاور لها .. وذلك لأنَّ (البيت) في اللغة العربية يشملُ بيئتَ الحيِّ والميئتَ معاً ، ولأنَّ جورجِي زيدان ينصُّ على أنَّ العبارات المنقوشة لم تُقَرَأْ كلَّها في المدائن ، حسب النص الذي في كتابه .. ذلك ما كان إذ ذاك .. ثمَّ أراد الله أن يقع في يدي كتابُ (آثار الأردن) تأليف (لانكستر هاردنج) مدير دائرة الآثار الأردنيَّة لمدة عشرين عاماً ، إلى عام ١٩٥٦ م . ولانكستر هاردنج هو أحد خبراء الآثار العالميين ، فقد عمل في الأحافير أولاً مع (السير فلندرز بيري) سنة ١٩٢٦ م ، وظل يعمل حتى سنة ١٩٣٢ م ، في منطقة غزة من فلسطين . ثم عمل مدة أربع سنوات مساعداً لمدير بعثة (ول كم) للتنقيب عن الآثار في الشرق الأدنى . وقد عملت هذه البعثةُ في (تل الدوير) حتى عام ١٩٣٦ م وفي العام نفسه عينَ مفتشاً للآثار في إمارة شرقي الأردن (المملكة الأردنيَّة الهاشمية) الآن ، وعندما استقلت الأردن عام ١٩٤٦ م ، وأصبحت تُعرف باسم المملكة الأردنيَّة الهاشمية أُبدِلَ اسمُ وظيفة (هاردنج) فأصبح (مُدِيرَ الآثار) . وفي عام ١٩٤٨ م ، بعد نكبة

١ الشقة في اللغة لعربية (بضم الشين) ومن معانيها انقطعه المشققة من أي شيء كان .. وروى عن هذا تسمية جانب من البيت والبهارة السكنية باسم الشقة على ما عليه عرف الناس اليوم .

فلسطين ، أضيفت آثار الصَّفَةِ الغريبة إلى المنطقة التي تشملها مسؤوليات (هاردنج) . ومن جملتها : خرائب (قمران) ، والكهوف السني اكتشفت فيها (مخطوطات البحر الميت) . ولا يزال هاردنج يعيش في لبنان قريباً من منطقة تجاربه وإدارته فيما سبق . وقد أخذنا هذه المعلومات عنه — من الكتاب الذي أَلَفَهُ هو نفسه والذي ترجمه إلى اللغة العربية سليمان موسى ، ونشرته اللجئنةُ الأردنيةُ للتعريب والترجمة والنشر ، وتولت إخراجته مجلةُ (رسالة المعلم) بالأردن وهو كتاب (آثار الأردن) . وقد طالعت الكتاب من أوله إلى آخره ، فإذا هو دسم مشحون بالمعلومات القيمة التي تهيم معرفتها العالم الأثري العربي ، ولا سيما إذا كان من أهل هذه البلاد . لأنه يستشق من خلافاً رواعع التاريخ العريق للجزيرة في شهاها المتصل ، طَبَعِيّاً ، بغيرها وشرقها وجنوبها قديماً وحديثاً ، بما يلتمسه في ثنايا فصول الكتاب عن آثار شرق المملكة الأردنية الهاشمية من وجودٍ مماثل لما في شمال المملكة العربية السعودية من آثار وأعمال وحياة ومجتمع عريق .

وقد أَلَفَتُ في الكتاب ما أكد لي صحة ما ذهب إليه قدامى مؤرخي الإسلام وعلماء العرب من أن بيوت مدائن صالح هي بيوت سَكَنَ لأحياء الثموديين الشماليين ، خَلَفَاءَ العاديين ؛ الجنوبيين الذين هم (عاد) وجيران النبطيين الذين يقطنون بشهاهم أيضاً .

ولقد تحدث المسر (هاردنج) مرتين في كتابه المذكور عن بعض البيوت المنحوتة في (النبطية) بجبال الأردن ومدائنه . وكانت أولى المرتين في الصفحة (١٠٧) أثناء حديثه عن (خربة التنور) النبطية ، ووصف لنا (التل العالي) الذي يوجد على قمته هيكل نبطي يُدعى اليوم باسم (خربة التنور) . وصخور هذه المنطقة من النوع الجيري ، الذي يشبه صخور مدائن صالح تماماً .

أما قوله : « وينساب تحت الخربة جداولُ الماء على مدار السنة وترصع جنباته أشجار الدفل » فهو تماماً كما ينساب الماء في جداول تحت صخور مدائن صالح في ذلك السهل المملوء اليوم ، بأشجار النخيل ، والذي لا ندري بماذا كان يمثل ، أيام عمارة الثموديين ، من الأشجار . . وإن كنا نرجح أنه النخيل ذاته مضافاً إليه مزارع القمح والفواكه والأزهار وغيرها مما يطعمون ويستنشقون ويعصرون . ويقول : « ويعود الهيكل - هيكل خربة التنور - إلى القرنين الأول ق. م . ، والأول ب. م . » . وكذلك تعود مباني مدائن صالح إلى وقت لا يبعد كثيراً عن ذلك التاريخ . فكان بُرجي زيدان في كتابه (العرب قبل الإسلام) يقول : « إن مدائن صالح (الحِجْر) دخلت قبيل تاريخ الميلاد في حوزة التبطين سكان (بطرا) بدليل ما في أطلال هذه المدن من الكتابة النبطية »^١ .

ويقول هاردنج - وهو محل الشاهد - : « تنبسط أمامه ساحة خارجية مبلطة يقوم في زاويتها الشمالية الشرقية مذبح كبير ، وإلى الشمال والجنوب عدد من الحجرات الصغيرة يُعتَقَدُ بأنها كانت منازل لكهنة الهيكل » .

وإذن فالحجرات الصغيرة التي عمَدائن صالح لا يستحيل أن تكون منازل لثمود . فقد كانت الحجرات الصغيرة قرب البتراء منازل لكهنة الهيكل . إن ضيق المساحة يجمع بين هذه الكهوف المنحوتة والمدائن و (سلع) . ثم يفيدنا (هاردنج) بأنه يقوم على الجناحين عدد من الأضرحة يُسمَّى أكثرها بعلامة (خطوة الغراب) : شعار الأنباط التقليدي . ولكن يجب أن لا يسود الاعتقاد بأن كل كهف نُقِرَ في

١ العرب قبل الإسلام ، ص ٧٨ ، طبعة مصر . ونرى برجى زيدان يقول : « بطرا » وإنما هي « البتراء » بالفاء .

الصخر هو ضريح ، فكثير من هذه الكهوف كان يستعمل مساكن ومساكن . حتى إن بعضها يتألف من طابقين أو ثلاثة طوابق . ص ١٢٨ .

وهذا النص من هذا العالم الأثري المعاصر الواقف على آثار الأنباط وقوف المدارس الفاحص لها من كتب زهاء ربع قرن ، هو دليل واضح كفييل يهدم النظرية القائلة : (إن بيوت مدائن صالح مقابر) . استناداً إلى ضيق مساحتها ، كما أن فيه إشارةً ببنائها من حيث البناء الطبقي مع مساكن مدائن صالح . فبعض كهوف سَلْع أو البراء على طابقين ، وبعضها على ثلاثة ، كما هو الشأن في كهوف مدائن صالح على ما بَلَّغْنَا .

وأياً ما كان نوع صخور جبال البراء ولونها ، فلا بد أنها هشة من النوع القابل للتكليف والنحت كما هو الشأن في صخور مدائن صالح . فكلها في شمال الجزيرة متجاورة ، والمنطقة تكاد تكون واحدة إن لم تكن واحدة فعلاً . وقد شاهدنا جبال تياء وما قبلها من الجبال في الشمال فاذا هي كلها من هذا النوع الجيري الهش ، وكذلك نلاحظ هنا أن الأنباط قد بسطوا سلطانهم على مدائن صالح قبل تاريخ الميلاد كما رواه جرجي زيدان في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) ، كما نلاحظ تشابه النحتين ، في وضع شعار الأنباط التقليدي على منحوتات كهوفهم في (سَلْع) ، تماماً ، كما وضع الثموديون والأنباط من بعدهم : الشعارات على منحوتات كهوف مدائن صالح . وكما تسرب الوهم العلمي إلى أن منحوتات مدائن صالح ، مقابرٌ كذلك تطرق الوهم

١ قد لا يكون من باب التعميم الأجوف أن وراء الأكمة الظاهرة للعيان المنفورة في الصخور بمدائن صالح أماكن أخرى لم تستكشف بعد ، والأحاديث العلمية كفيلاً باظهار الخفايا المجهولة الورد .

إلى كهوف سلع . وقد رفع غيظاً هذا الوهم عنا (هاردنج) وأوضح لنا أن كهوف سلع ، هي مساكن لقوم أحياء ، وما الذي يمنع أن تكون كهوف مدائن صالح كذلك ؟ ..

و (البراء) في اللغة اليونانية بمعنى (سلع) في لغة الأنباط ، وكلماتها بمعنى (الصخرة) أو الشق في الصخرة ، في اللغة العربية . وهو اسم ينطبق على المسمى تماماً . وهي من هذه الناحية شبيهة بمدائن صالح . وهكذا نتوصل من هذا النص الأثري الذي عثرنا عليه أخيراً - لخبير أثري معاصر - إلى دعم النظرية الإسلامية القائلة إن بيوت مدائن صالح هي مساكن أحيائهم .

وأضيف إلى ذلك ، من عندي - من باب التوفيق بين النظريتين : الإسلامية العربية ، والغربية - أن هذه الكهوف بمدائن صالح ، ربما تكون قد عادت بعد أمد وبالتدريج ، إلى مساكن أمواتهم ، الذين كانوا يقطنون فيها وهم أحياء ، ومن ثمّ نُفِيسَتْ عليها العبارات والشعارات الباقية إلى اليوم التي تدل على أنها مقابر لهم . وهذه نظرية أعتقد أن فيها كثيراً من التوفيق العلمي بين الرأيين القديم والحديث في هذه المسألة إن شاء الله .

موطن شعيب عليه السلام

شعيب في القرآن المجيد :

كلمة «شُعَيْبٌ» : تصغير واضح لكلمة «شُعَيْبٍ» بفتح الشين أو كسرهما ، أو أشعب . ولشُعَيْبٍ - مفتوحة الشين - معانٍ نورد بعضها فيما بعد . ولشُعَيْبٍ - مكسورة الشين - معانٍ أخرى سيأتي بعضها في محله .

ومشتقات مادة : «شعب» كثيرة . وقد دونت في «معاجم» اللغة ومنها «الشُعَيْبُ» بمكة معروف - وسمى العرب «شعبة» : المغرة ابن شعبة ، و (أشعب) . وفي اليمن قبيلة اسمها من هذه الصيغة . ولشعيب قصة رائعة من قصص بسالة الأنبياء المرسلين في تبليغ رسالات ربهم . وكانت قصته ، مع قومه «مَدْيَنَ» . وفي هذه القصة التي كورها القرآن ليتمكن الاعتبار بها في نفوس المشركين من العرب وغيرهم ورد اسم «شعيب» عشر مرات : في سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة الشعراء .. وينبغي أن نلاحظ أن هذه السور كلها «مكية النزول» .. وفي كل مرة يذكر اسمه مجرداً عن ذكر أي شيء من نسبه اتلهم إلا أنه كان أنحاً مدين . و «مَدْيَنُ» تعني في أكثر الآي القرآنية : القبيلة التي بعث الله شعيباً إليها .. وهناك آية بسورة «التوبة» يبدو من سياقها أنها تعني بمدين : المدينة التي كانت تقيم فيها قبيلة مدين - من باب المجاز المرسل - إذ في هذا ؛ إطلاق اسم الخال على المحل . ومثلها اسم «يثرب» الذي كان عتقاً على المدينة المنورة قبل الإسلام . و «مَدْيَنُ» في رأي بعض علماء الآثار . وقد ورد اسم «مدين» عشر مرات في القرآن ، تماماً ، كما ورد اسم «شعيب» فيه عشر مرات . وينص القرآن على حمل شعيب لرسالة ربه إلى قومه .. فأمن به فريق فنجوا ، وكذب به قوم فأهلكوا بعداب

من الله جل وعز .

والآي القرآنية الكريمة التي تحدثت عن قصة شعيب وقوميه هي خمس وثلاثون آية .. منها تسع آيات في سورة «الأعراف» وقد بدأت بقوله تعالى :

«وَأَلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ آلِهٍ غَيْرُهُ» ..

واثنا عشرة آية في سورة (هود) وقد بدأت بقوله تعالى أيضاً :

«وَأَلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ آلِهٍ غَيْرُهُ» ..

وأربع عشرة آية في سورة «الشعراء» وقد افتتحت بقوله تعالى :

«كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ؟» ..؟

مَدْيَنُ فِي الْقُرْآنِ :

في ست سور كريمة ورد اسم مدين .. هي سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة التوبة ، وسورة طه ، وسورة الحج ، وسورة الشعراء . وكلمة : «مدين» في كل هذه السور – ما عدا سورة التوبة – تعني – على ما نرى – قبيلة مدين .. بدليل قوله تعالى : «وَأَلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا» أي : وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم شعيباً .

أما مدين «في سورة التوبة» فيبدو من سياقها ، كما أسلفنا ، أنها تعني (مدينة قبيلة مدين) ونص الآية : «الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِن قَبْلِهِمْ» : قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ « الآية (٧٠) .

ومن رأيي أن مؤلف كتاب «تاريخ العرب قبل الإسلام» جواد علي ، لم يحسن التأمل في هذه الآية الكريمة حينما قال : «إنه ورد اسمهم - أي قبيلة مدين - في سورة التوبة^١» . ففيها يبدو جلياً إن المراد بمدين في هذه الآية بالذات هو «المدينة» أو الماء . على ما ذكره ابن الجوزي في تفسيره ، لا «القبيلة» . وبدليل إضافة صيغة (أصحاب) إلى (مدين) فيها . وكلمة (أصحاب) هذه إذا أُضيفت إلى اسم فهي غيره^٢ .. فإذا كان ، مكاناً ، كانت إضافتها إلى ذلك المكان ، وإذا كان اسماً أو علماً على شخص كَمَوْسَى كانت تؤدي معنى الانتساب إليه وهي غير المضاف إليه على كل حال .. (ومدين) القبيلة ليست علماً على شخص في عهد رسالة شعيب ، فتتعيّن أن تكون وهي بعد كلمة (أصحاب) اسماً للمدينة أو الماء ، ولا يصح أن نؤولها بمعنى القبيلة .. إذ أن لاختلّ المعنى .. وصار هكذا : (أصحاب القبيلة) وأصحاب القبيلة شيء آخر غير القبيلة .. وليس هذا هو المراد طبعاً ... وإنما المراد - والله أعلم - بالأصحاب ، هم قبيلة مدين ذاتها . ونسبة (أصحاب) الذين يُعنى بهم القبيلة إلى (مدين) يجعل (مدين) لا محالة اسماً للمدينة التي هم أصحابها أي أهلها وسكانها ، أو اسماً لماثم . قال تعالى في مثل هذا المعنى : «وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ» .. «كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ» .. «وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ» .. «وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ» .. «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ أَصْحَابَ الْكُفْهِفِ وَالرَّقِيمِ» .. «فَذَانُجِينَاهُ وَأَصْحَابَ السَّقِينَةِ» «وَأَصْرِبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ» .

١ ص ٣١٦ ، المجلد الأول .

٢ هذا التحليل من عند مؤلف هذا الكتاب .

شعيب .. ومدين .. في تفاسير القرآن :

في تفسير «ابن كثير» أن (قوم شعيب وشعياً هم من سلالة «مدين» بن ابراهيم ، وان مدين تطلق على القبيلة والمدينة ، وانها بقرب معان^١ من طريق الحجاز ، وقال عن (أصحاب الأيكة) في قوله تعالى عن رحلة موسى : «وَأَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْتَأْذِنُونَ» : قال : إنهم هم أصحاب الأيكة والأيكة - لغة - الغيضة .

وفي تفسير «البغوي» أن (شعياً كان أخاهم في النسب لا في الدين) وساق نسبه هكذا : « شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم وأم ميكائيل بنت لوط » .

ومن رأي الدكتور جواد علي في كتابه : «تاريخ العرب قبل الإسلام» أن هذه النسبة أخذها العرب المسلمون عن غيرهم .

وفي تفسير «المراغي» عكس رأي «البغوي» ، فهو يقول : إن شعياً ليس من مدين في النسب . وهذا الرأي ربما كان يوصلنا إلى التوافق في بعض النقط مع رأي «الهمداني» في «الإكليل» الذي يجعل شعياً معاني الأصل .

شعيب ومدين .. في مراجع اللغة :

إذا رجعنا «شعياً» إلى «الشعْب» - بفتح الشين - فهو عربي فصيح وأصيل . وكذلك الأمر إذا أعدناه إلى «المشعْب» مكسور الشين . أو إلى «أشعب» . ومن معاني المشعْب - بفتح الشين - :

١ الحقيقة أنها بقرب للعقبة . ومعان بعيدة عنها .

أبو القبائل ، أو ما تشعب من القبائل قديماً ، والأمة المتكاملة حديثاً :
ومن معاني الشَّعْبِ - بالفتح - أيضاً : الإصلاح والتفريق^١ . ومن
معاني الشَّعْبِ - بكسر الشين - الطريقُ في الجبل .

ومعلوم أن «الشَّعْبَةَ» و «الشَّعْبِيَّةَ» موضعان معروفان في هذه
البلاد . وشعبيُّ عليه السلام وقومه ومدينتهم (مَدِينُ) أو ماؤهم
من أهل هذه البلاد . كما سيأتي بيانه .

ويقول صاحب «القاموس المحيط» : إن «شُعْبِيًّا ، من الأنبياء»^٢ .
ويقول «تاج العروس» في شرحه لما ذكره صاحب القاموس هنا :
إن شعبيًّا اسم عربيٌّ يمكن أن يكون تصغيرَ أشعب كما قالوا في تصغيرِ
«أسود» : سُوَيْدٌ . وهو تصغيرُ الترخيم .

ويقول صاحب «لسان العرب» : إن مدين اسم أعجميٌّ ، وإن
اشتقاقه من العربية فالياء زائدة .. ومَدِينٌ : اسم قرية «شعيب»^٣ .
وفي القاموس : (مَدِينٌ قرية شعيب) .

وفي «معجم متن اللغة» ان (مدين قرية شعيب^٤) .

شعيب ومدين .. في المراجع التاريخية :

في تاريخ (الطبري) : أن شميًّا بُعِثَ بعد النبيّ أيوب ، من
أحفاد إبراهيم عليه السلام . وساق نسبه هكذا : «شعيب بن صيفون

١ لسان العرب ، ص ٤٩٨ ، المجلد ١ ، طبعة بيروت .

٢ ص ٩٢ ، المجلد الأول ، مطبعة مصطفى الحلبي .

٣ لسان العرب ، ج ١٢ ، ص ٤٠٣ .

٤ ص ٢٦٤ ، مجلد ٥ ، وهذا المعجم هو تأليف أحمد رضا .

ابن عتقاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم . وأشار الطبري إلى الاختلاف الواقع في عمود نسب شعيب . ونعطف على ذلك القول بأنه اختلاف شديد وبارز السات ، جداً .. مما يدلنا على عدم الدقة في ضبط سلسلة هذا النسب .. فبعض المؤرخين يعيد نسبة إلى العرب ، ويسمي آباءه بأسماء عربية كالطبري والهمداني والزركلي .. وبعضهم يوصل هذا النسب إلى غير العرب ويسمي آباءه بأسماء عبرانية : يثرون ، ميكائيل .. والظاهرة الخلية في هذا كله هي عدم استقرار المؤرخين على حقيقة نسب شعيب إلى جذم واضح حتى من يسمون آباءه منهم بأسماء عربية هم شديدو الاختلاف في هذه الأسماء .. فهل شعيب النبي العربي غير شعيب : (يثرون) ؟

أما قول (الطبري) : إنه كان ضرير البصر أو ضعيفه على رواية ، استناداً إلى قوله تعالى عنه على لسان قومه : « وَإِنَّا لَنَرَاكَ فَيِّنَا ضَعِيفًا »^١ .. فنحن لا نرى هذا الرأي ، ونرى أن « ضعف شعيب » الذي يلزمه به قومه هو « ضعفُ حالة اجتماعية وقبليّة لا ضعفُ بَصَرٍ . والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، وقد جاء فيه في آية أخرى : « وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ » .

ومعنى هذا أنهم يرونه مستضعفاً فيهم بالنسبة لقوتهم الاجتماعية ، ولنفوذهم .

ويقول الهمداني صاحب « الإكليل » : إن شعيباً النبي ينتمي إلى أرومة اليمن .. فهو من قوم صاحب الإكليل نفسه . وعزا الهمداني إلى حسان بن ثابت رضي الله عنه أحياناً ، نسب فيها شعيباً إلى بني قحطان

١ تاريخ الطبري ، ص ٢٢٨ ، المجلد الأول ، مطبعة الاستقامة بمصر ، سنة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٩ م .

باليمن هي :

فنحن بنو قحطان والملك وانعلا
ومنا نبي الله هودُ الأخابر
وإدريس ما إن كان في الناس مثله
ولامثل ذي القرنين أبناء عابر
وصالح والمرحوم يونس بعدما
ألات به حوت بأخرب زاجر
«شعيب» والياس وذو الكفل كلهم
بِشَمَانُونَ^١ قد فازوا بطيب السرائر

ونلاحظ على هذه الأبيات أموراً . منها أن أسلوبها ليس قوياً .
ووردت فيها كلمة «المرحوم» والمفهوم أنها «مولودة» فإن كان هذا
الشعر ، شعر حسان بن ثابت حقاً ، فهو نص على أصالة الكلمة ،
رخصة التعبير بها .. وليست هذه الأبيات في ديوان حسان المطبوع
والموجود لدينا . ولا نتهم الهمداني بالتقول على حسان ؛ ولكن السهو
والانتحال موجودان في الرواة من قديم الزمان ... فقد تكون الأبيات
رُويَتْ عن حسان للمؤلف ؛ وهي منحولة ؛ ولم يحص الهمداني نصها
ولم يفحص روايتها لأنها وافقت مبدأً له .. والإنسان بِشَرِّ مَخْطِيٍّ ويصيب
على كل حال .

والهمداني ينسب «شعيباً» هكذا : «شعيب بن مهلم بن ذي مهلم
ابن المقدم بن حضور بن عدي بن مالك بن زيد بن يسد بن زرعة ،
وهو حمير الأصغر» .

١ اعتاد الكتاب حديثاً أن يكتبوا جمع «بماني» هكذا : «بمانيون» بالياء .. والفصيح في هذا
حذف الياء الأخيرة فيقال : «بمانون» . بمانين . الكتاب لسيبويه .

ويضيف الهمداني (لسانُ اليمين) إلى ما ذكر أن بخت نصر كان أخذ بثأر نبيّ الله شعيب من العرب في غزوه لبلادهم .. ولا ندري أيّ ثأر يقصد ؟ فهل قتل العرب شعيباً في مدين أو في مكان آخر من ديارهم ؟ ومن هو هذا النبيّ الذي قتله العرب ؟ وهل لبختنصر صلة ما بشعيب النبيّ ؟ أو بقومه ؟ ..

والوارد في القرآن المجيد أن شعيباً سلم مع من آمن به من هلاك يوم الظلّة وهلك الكافرون به وحدهم .. والمذكور في التاريخ انه توفي ودُفِنَ في قرية الخيارة أو خربة شعيب أو مغاير شعيب .

ويعود الهمداني فيؤكد لنا في الجزء الثاني من كتابه : (الأكليل) نسبة شعيب إلى اليمين فقبلته عنده : (الأوزاع) . وسلسل شجرة نسبه هنا - نازلاً - من أعلى حتى أبيه ، بعدما سلسلها فيما تقدم ، منه - صاعداً - إلى الحد الأعلى قال : « قال أبو نصر : وأولد المقدم بن حضور ، ذا مهدم بن المقدم . غره وخولان بن المقدم .. فولد خولان النسبيء والكبار والأجراد . وأولد ذو مهدم بن المقدم : مهدم بن ذي مهدم فأولد مهدم بن ذي مهدم : شعيباً النبي صلى الله عليه وسلم ابن مهدم بن ذي مهدم . ومسجده اليوم في رأس جبل حدة » .

ونظرية الهمداني هذه أو روايته تتفق من وجه مع رواية من يقول : إن شعيباً لم يكن من أحفاد إبراهيم ، لأنه بمقتضاها - قحطاني ، أي من العرب العاربة لا المستعربة التي جدّها إبراهيم عليه السلام .. على أن أولئك الذين يرون هذا الرأي يختلف معهم الهمداني في نقطة حساسة .. ذلك أنهم يرفعون نسب شعيب العربي من جهة أمّه إلى ابنة لوط .. ولهذه الحدة للأُم صلة قرابة مع إبراهيم عليه السلام . وهذا إضافة إلى نسبه العمومية إلى إبراهيم فهو إذن عنده : ابن إبراهيم من أبويه : الأب والأم .

وإذا أخذنا بوجهة نظر الهمداني ، وهو رجل حصيف ، وإن كنا نأخذ عليه في مولفه «العنصرية» البارزة التي منحتهُ أو منّحَ لأجلها لقب (لسان اليمن) .. فإنه بإمكاننا أن نجعل شعبياً أحياناً مدين : من مهاجرة اليمن .. أي من مهاجري الجنوب إلى الشمال من بلاد العرب .. وقد كان المُدْبِنِيُون أيام هجرتهم ، ذوي قلة وضعف مادّيّ أشار إليهما القرآن ، حيث كثّرهم الله وأغناهم ، فبخوا في الأرض فساداً ، وكفروا بالله وبأنعمه عليهم .. فأندرهم رسولهم وأخوهم شعيب بوخم مغبة كفرهم وفسادهم فلم يرتدعوا . فأُنزل الله عليهم صاعقة من ظلمة أخذتهم بها رجفة ، فدمرتهم تدميراً .. وبقي المؤمنون منهم بمنجاة من هذا العذاب العظيم ، وعلى رأسهم النبي المرسل إليهم شعيب صلى الله عليه وسلم . وقص الله علينا قصتهم للاعتبار والادكار .

و (عمانية شعيب ومديّن) لا يناقضها ما جاء في كتاب « تاريخ العرب قبل الإسلام » من أن التوراة لم تبين مناطق إقامتهم ، حيث غيروها مراراً ، وما يلفت نظر المؤرخ إلى أن المدينيين كان عدم الاستقرار يلازمهم ، ثم لما استقروا واستثمروا خيرات البلاد طغوا وبخوا ، فكان عليهم ما كان ...

ولخير الدين الزركلي في (الأعلام) رأيي في نسب (شعيب) وفي أصله فهو عنده عربي صميم ، من نسل إبراهيم عليه السلام .. ومعنى ذلك أنه من العرب المستعربة . ويتفق في رفع نسبه إلى إبراهيم مع رأي ابن كثير والبغوي وابن الجوزي في تفاسيرهم ، ومع الطبري في تاريخه ، ويختلف جيداً ، مع الهمداني ، الذي يرى أن شعيباً قحطالي^١ .

يقول خير الدين الزركلي : « إن شعيباً كان بعد هود وصالح وقبل

١ وربما لم تتعرض لهم التوراة أصلاً ، فما كل شيء تعرضت له .

أيام موسى . وكونه بعد هود وصالح قد دلت عليه نصوص هذه الآيات القرآنية الكريمة : « وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ، وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بِيَعِيدٍ » (سورة هود) .. وأما أنه كان قبل أيام موسى فلا يتفق مع تفاسير أغلب المفسرين ولا مع أقوال المؤرخين ، وإن كان قال به بعضهم .

هذا وقد وردت في (الأعلام) شجرة نسب جديدة لشعيب غير ما سبق وروده .. فهو (شعيب بن نوفل بن رعبيل بن مر بن عنقاء) . أسماء عربية صريحة .. ولكنها بمنأى عن أسماء آباء شعيب التي ساقها الهمداني في (الإكليل) .

وتتلاصق آراء (كلاسر) و (خير الدين الزركلي) و (الهمداني) في أن مدين قبيلة عربية ... ويختلفون في منشأها ، أو هكذا يبدو . فعند كلاسر ، هم (دوحه من الهكسوس) أو قبيلة من قبائل المعينيين . والمعينيون يمانون . وعند الهمداني أن شعيباً يمانياً أوزاعي . وعلى هذا يمكن أن نقول تبعاً لهذه النظرية : إن (مدين) عمانية إذا ثبت أنها قبيلة شعيب .. وهو ثابت بنص القرآن .. وعند الزركلي أن شعيباً عربي بدون تفصيل .. وهذا يحتمل أن يكون يمانياً وغير يمانى .. وقد يرجح كونه يمانياً هنا ما نعلمه من استمرار هجرة اليانين خاصة والجنوبيين عامة من العرب ، على وجه العموم ، إلى شمال الجزيرة خلال القرون حتى عصرنا الحاضر .. بأسباب ودواعٍ شتى ، ليس هذا محل الخوض فيها ...

وهناك (نقش لسرجون العراقي) يذكر فيه أسماء القبائل العربية ، بتخوم الشام التي غزاها فنال نصراً حاسماً عليها ، ومنها قبيلة تنزل

منطقة مدين على ما تخمنه الباحثون^١ .

هذا وقد زاد عبد الوهاب النجار شقّة الخلاف سعة في أصل شعيب وموطنه إذ أورد في آخر الفصل الذي عقده له من كتابه : « قصص الأنبياء » قوله : « وبقيت مسألة وهي أن حضر موت بها قبر يقول أهل البلاد إنه : قبر شعيب عليه الصلاة والسلام ، وهو يقع في شبام ، يبعد عنها ساعتين بعد أن يمر السائر إليه بوادي ابن علي ، ويخلص السائر إلى سهل بعد الوادي ، وليس بجانبه عمران . ولا يُقصد ذلك القبر إلا للزيارة . وشبام تقع في غربي مدينة ستينون) . ويعطف النجار على هذه الرواية بقوله : (وإني أشك في أن القبر لنبي الله شعيب)^٢ .

ويرى ابن خلدون أن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم عليهما السلام وزوج ابنة مدين بن إبراهيم فكان منهما أهل مدين الأمة المعروفة^٣ وولد مدين عيفا وعيفين الخ ... من زوجته قنطور ابنة لوط^٤ وقد غلب بنو عيصو بني مدين على بلادهم إلى أيلة^٥ .

وهكذا نجد شخصية (شعيب) عليه السلام ، وشخصية قبيلته (مدين) يكتنفهما اضطراب روايات المؤرخين في حقيقتهما وأصلتهما ونسبهما وموطنهما الأول .. فشعيب عند أكثر المفسرين ينتمي إلى قبيلة مدين ابن إبراهيم عليهما السلام . وعند بعض المؤرخين ينتمي إلى اليمن ، وعند الحضارمة حضرمي المدفن . ومدين عند بعضهم ، وهو (يوسفوس)

١ تاريخ الجنس العربي : محمد عزت دروزة ، ج ٥ ، ص ٣٢٤ ، المطبعة المصرية ببيروت .

٢ قصص الأنبياء ، ص ١٣٠٢ ، مطبعة مصر .

٣ تاريخ ابن خلدون ، المجلد الثاني ، ص ٦٨ ، طبعة بيروت .

٤ نفس المصدر ، ص ٧٠ .

٥ نفس المصدر ، ص ٧٩ .

إنما استقروا في منطقتهم المعروفة بعد ضعفهم ، وهم عند « كلاسرا »
دوحة من الهكسوس أو قبيلة من قبائل المعينيين (الجنوبيين) . ولم يختلف
أحد من المفسرين والمؤرخين في أن موطن قبيلة مدين هو بشبال المملكة
وفي داخل حدودها الحالية بالذات .

هل موطن شعيب في المملكة العربية السعودية ؟

ذكر ابن هشام في سيرته ، مدينة (مدين) في معرض حديثه عن
غزوة زيد بن حارثة بلحزام في حسمى^١ .

وكرر جواد علي ما أورده الهمداني والسهودي من أن مدينة مدين
كانت في صدر الإسلام من مناطق حُذام ، وأنها كانت أكبر من
تبوك ، وأن بها البئر التي استقى منها موسى ، وأنه كان بمدينة مدين
في عصر كثير عزة الشاعر ، جماعة من الرهبان يتعبدون ويكفون
من حذر العقاب^٢ .

ويرري جواد علي ، عن المؤرخ يوسفوس أن « موسى ذهب إلى
مدينة (MADIANA) . ومعنى هذا أن مدينة كانت موجودة
في القرن الأول للميلاد ، تعرف باسم مدين » . وهذه الرواية تنقض
ما جاء في كتاب (الأعلام) للزركلي من أن شعيباً كان قبل موسى عليها
السلام حسب ما نقلناه آنفاً .

ولنا ملاحظة منسوبة على تعليق المؤلف على قول يوسفوس : « بأن
مدينة مدين كانت موجودة في القرن الأول للميلاد » . وتعلقنا على

١ حسمى : موقع في تلك الجهة معروف الآن .

٢ تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٣١٧ و ٣١٨ ، المجلد الأول .

تعليقه هو : أن هذا ربما كان سهواً من جواد علي - فلا يمكن أن يكون موسى عليه السلام قد زار هذه المدينة في القرن الأول للميلاد . لليونان الشاسع بين زمن موسى وزمن عيسى عليهما السلام كما هو معروف في التاريخ ، فمعلوم أن موسى كان قبل ميلاد عيسى بقرون وبالتالي لا يدل ما ذكره يوسفوس على بقاء مدينة مدين إلى القرن الأول للميلاد .

ويقول ابن خلدون عن مدين القبيلة التي تنتسب إلى مدين بن إبراهيم : (فكان منهم - من أولاد مدين - أمة كبيرة ذات بطون وشعوب ، وكانوا من أكبر قبائل الشام وأكثرهم عدداً . وكانت مواطنهم تجاور أرض معان من أطراف الشام ، مما يلي الحجاز ، قريباً من بحيرة قوم لوط . وكان لهم تغلب بتلك الأرض فعتوا وبعوا وعبدوا الآلهة ، وكانوا يقطعون السبل : ويبخسون المكيال ، وبعث الله فيهم شعيباً ، نبياً ، منهم . وهو ابن نوبل بن رعويل بن عيا - عيفا - ابن مدين .. قال المسعودي : مدين هؤلاء من ولد المحضر بن جندل ابن يعصب بن مدين ، وان شعيباً أخوهم في النسب ، وكانوا ملوكاً عدة يسمون بكلمات أجد إلى آخرها . وفيه نظر . وقال ابن حبيب : في كتاب البدع : هو شعيب (بن نوبل) بن أحزم بن مدين . وقال السهيلي : شعيب بن عيفا ويقال ابن صيفون . وشعيب هذا هو شعيب موسى الذي هاجر إليه من مصر أيام القبط ، واستأجر موسى على إنكاح ابنته إياه على أن يخدمه ثماني سنين ، وقال الصيعمري : الذي استأجر موسى وزوجته هو بشر بن رعويل . ووقع في التوراة أن اسمه ييثر ، وأن رعويل أباه أو عمه هو الذي تولى عقد النكاح . وكان لمدين هؤلاء مع بني إسرائيل حروب بالشام ، ثم تغلب عليهم بنو إسرائيل وانقرضوا جميعاً^١ .

١ تاريخ ابن خلدون ، المجلد الأول ، ص ٨٠ و ٨١ ، طبعة بيروت ١٩٥٦ م .

وعرّفَ ياقوت الحمويّ في «معجم البلدان» - مَدِينَتَيْنِ - هكذا :
 (مدين - بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الياء المثناة من تحت آخره
 نون - قال أبو زيد : على بحر القلزم ، محاذيةً لتبوك ، على نحو من
 ست مراحل . وهي أكبر من تبوك . وبها البئر التي استقى منها موسى
 عليه السلام لسائمة شعيب . قال : رأيت هذه البئر مغطاة ، قد بُنيَ
 عليها بيت ، وماء أهلها من عين تجري . ومدين : اسم القبيلة ^١ .

هذا ولا نعلم شيئاً عن المكان الذي ولد به «شعيب» .. هل هو في
 أرض مدين أو في أرض اليمن ، كما يفهم من فحوى رواية الهمدانيّ ،
 أو في حضرموت كما يشم من رواية عبد الوهاب النجار .. أما عن وفاته
 فقال بعضهم - وهو ياقوت الحموي - إن قبره كان في «خيار» :
 قرية قرب طبرية ، من جهة عكا ، قرب حطين ^٢ .. وقد أورد
 جواد علي في كتابه : (تاريخ العرب قبل الإسلام) إشارة إلى هذا الرأي ..
 وهذا ربما يوميّ إلى أنه توفي بتلك القرية التي دفن بها .

كما أفادنا جواد علي ، بأن «بول» يرى أن المدفن المذكور لشعيب
 هو «خرية مدين» .. ولا نستبعد أن يكون مكان دفنه بقرية (خيار)
 التي اعتراها الحراب فيما بعد ، فدُعِيَتْ (خرية مدين) .. أو عرفت
 بهذا الوصف المنطبق على حالتها بعد خرابها ...

ونقتبس مما ذكره جواد علي عن «يوسفوس» من أن المدينيين إنما
 استقروا بعد ضمهم في المنطقة الموجود بها مدينتهم (MADIANE)
 أي في القرون الأخيرة قبل الميلاد نقتبس من ذلك اعتباراً ما : هذه
 النظرية التي قد تكون مبنية على أساس هجرة المدينيين من اليمن في عهد

١ المجلد الرابع ، ص ٤٥٦ ، طبعة طهران .

٢ معجم البلدان ، المجلد ٢ ، ص ٥٠٣ ، طبعة طهران .

ليس بعيداً عن عهد شعيب بعد انقراض أسلافهم اللحيانيين ، حيث نرى لشعيب سائمة ترعاها بَنَاتُهُ على عادة القبائل العربية الرَّحَّل إلى اليوم .. فوجود الماشية والرَّعاء .. كما نص عليه القرآن ، في (مدين) دليل قويٌّ على أنهم كانوا أعراباً أو ما زالوا شبه أعراب .. واسم (شعيب) واسم (مدين) كلاهما يدلان على عروبة المُسَمَّى بهما .. إذ إنَّ شعيباً من الشَّعْبِ بنمخ الشين أو الشَّعْبِ أو أشعْب : وكلها عربيّ فصيح ، كما قدَّمناه .

ومدين من (مدن) بمعنى أقالم .. في اللغة العربية الفصحى . ولعل بناءهم لمدينة (مدين) كان بعد فترة بداوتهم الأولى ، وبعد سأمهم من عيشة البداوة ، وركوبهم إلى رفاة الخضارة ، ثم بقيت بَنَاتُ منهم على حالة بداوتها .. وهم الذين استقى موسى من بشرهم الماشية شعيب .. أو أن شعيباً ومن كانوا يستفون من قومه مع بَنَاتِهِ : من بشر مدين كانوا حَصَصَرًا احتفظوا ببعض مظاهر حياتهم البدوية العريقة لهم لوجود ماشية لهم ، ورُعاة يرعونها وهم منهم . كما شاهدنا مثله في كثير من قرى الريف العربية التي لا تزال ظلال البداوة تنعكس على طبائع سكانها حتى في عصرنا الحاضر ، الذي هو امتداد طَبْعِيٍّ للعصور الخوالي^١ .

١ يستأنس لذلك بما ورد في كتاب « أسماء جبال تهامة وسكانها » لعرام بن الأصمغ السلمي من أن جهينة كان قسم منها بادية في نواحي جبل « رضوى وعزور » حالما يسكن القسم الثاني منهم في المدر بينبع . وكذلك الأمر في مزينة ، فمنهم قسم متبذ في جبل ورقان وجبال القديسين ونهبان ، وقسم منهم في الفرع ، ص ٥ إلى ص ٧ ، طبعة القاهرة . وكذلك يستأنس لما ذكرناه بما جاء في كتاب « انشعر عند البدر » لشفيق عبد الحبار الكيال من أنه : « ما زالت قبائل يدرية في عهدنا الحاضر على هذه الشاكلة ، بعضها من أهل الوبر كقبائل الضفير والمجيزان وعنزرة . وبعضها من أهل المدر : العميدات والعزرة والعبيد .. كما يوجد من القبائل قبيلة واحدة ، قسم منها في المدر كقبائل شعر ، وقسم من أهل الوبر .. سكنة الصحراء » ، ص ١٩ ، طبعة بغداد . -

وجما يدلنا على أنهم جنوبيون من اليمن ، أهلاً وجذماً ، ممارستهم
للتجارة ، وبراعتهم فيها ، تماماً كبراعة القبائل اليمنية وذوي الحضارات
اليمنية القديمة في فن التجارة .

وقد وصف محمد بن عبد الله الحسيني المدني المعروف بكبريت في
كتابه : (رحلة الشتاء والصيف) ، مَدِينَ وَحَفَائِرَ شَعِيبِ عَلَيْهِ
السَّلام ، وَصَفَ مَشَاهِدَهُ وَتَارِيخَهُ . قال : (ثم قمنا منه حتى أتينا
على مغاير شعيب عليه السلام ، وهي حفائر حلوة تحكي النيل فيما قيل ،
في وادٍ فيه نخل وأثل ومقل ، بين جبال متضاربة كثيرة المخاوف ، وفيه
دار ، دارسة ، وأبنية متهدمة ، ورسوم ، يقال إنها (مدين) .

ثم نقل عن صاحب « تقويم البلدان » قوله : « مدين » على شاطئ
بحر القلزم ، وهي خراب ، وأما البئر التي استقى منها موسى عليه
السَّلام ، فقد بُنِيَ على أفئتها بيت من صخر ، فيه كهف يسمى
كهف شعيب عليه السلام ، وكانت تأوي إليها غنمه ، وحولها قبور
منقورة في الصخر ، فيها عظام بالية كأمثال عظام الإبل ، ولا أثر لذلك
الآن غير تلك الساقية التي بيد بني عطية ، وحُفِّرَ الماء العذب . وفيها
يقول ابن أبي حجلة :

ولما وردنا ماء مدين بكرة ..

وجدت عليه الناس يسقون بالقرب

فأطرب حادي الراقصات مسامعي

كما أطرب التشيب من أعين القصب^١

١ - وفي كتابنا هذا : « بين الآثار والتاريخ » قد ذكرت في « فصل الصويدة » أن من قبيلة
السجبان من فادرا بتمبير بليدة تصويدة حديثاً واستوطنوا فيها وذلك بعد الحسيينات من هذا
القرن الهجري .

١ ص ١٨ و ١٩ ، حبة المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بدمشق .

ومحمد بن عبد الله «كبريت» هذا هو من أهل القرن الحادي عشر
الهجري (١٠١٢ - ١٠٧٠ هـ) .

وفي التعريف بالطريق المسلوك من القاهرة إلى مكة يحدد لنا محمد
كبريت ، تحديداً دقيقاً المسافة التي بين العقبة على ساحل البحر الأحمر
(بحر القلزم) ، وبئر مدين التي بها «مغاير شعيب» ويعرفنا بأنها
مرحلتان . يقول : «ثم يرحل (أي الحاج) إلى أيلة في خمس مراحل .
وبها العقبة العظمى ، فينزل منها حجز بحر القلزم ، ويمشي على حجزه
حتى يقطع من الجانب الشمالي إلى الجانب الجنوبي ، ويقم به أربعة أيام
وبه سوق عظيم ، ثم يرحل إلى بئر مدين ، وبه مغاير شعيب عليه
السلام ، وعلى ماثها سقى موسى عليه السلام غنم بنات شعيب»^١ .

وقد حدد لنا محمد صادق في كتاب رحلته الرسمية البرية حيث كان
أميناً لصرة المحمل المصري - حدد لنا في رحلته : «مشعل الحج» -
موقع (محطة مغاير شعيب) فقال ما ملخصه : إن ركب المحمل ارتحل
من العقبة في يوم الاثنين ٦ ذي القعدة ١٢٩٧ هـ - ٢٧ سبتمبر ١٨٨٠ م
في حجه البرية . وفي يوم الجمعة ١٠ منه وبعد خمس وعشرين دقيقة
من الساعة الأولى من النهار - ويبدو أنه يعني بذلك التوقيت العربي
الغروبي - وصل أي ركب المحمل إلى محطة مغاير شعيب^٢ .

وعلى هذا فيبدو أن مغاير شعيب تبعد بثلاث مراحل بسير المحمل
الذي كان يرافقه أركان حرب الأميرالاي محمد صادق بك عن العقبة.

وقد زادنا المؤلف علماً بصفة أرض هذه المغاير فقال في رحلته :

١ نفس المصدر والطبعة ، ص ٦٧ .
٢ كتاب مشعل المحمل ، ص ١٠ و ص ١٤ ، مطبعة وادي النيل ١٩٢٨ هـ والنسخة توجد بمكتبة
السيد عبيد مدني بالمدينة المنورة .

(وهو - أي مغاير شعيب - محل بين تلال يحدق به نخيل وعبل به حشائش ولا مساكن مبنية إلا زريبات^١ من جريد لسكنى العربان . ويتوصل إلى البحر من وادي مدين ، ولا يباع بهذه المحطة شيء سوى حشيش البهائم .. وبلغت الحرارة عند الزوال - أي في منطقة مغاير شعيب - ٣١ درجة^٢) .

وقد رسم لنا محمد صادق في كتابه ، خريطة سير المحمل برّاً من القاهرة إلى مكة وإلى المدينة فالقاهرة ، وبها بيان البلدان والمحطات والمحلات الشهيرة بالطريق ، ومن هذه الأماكن (مغاير شعيب) . وقد جعلها في منتصف الطريق بين قلعة العقبة وقلعة الملبايح .

وإذا قارنا رحلة محمد صادق إلى الحج برحلة سلفه محمد كبريت المدني فإننا نخرج بالنتائج التالية :

أولاً - إن محمد كبريت بدأ رحلته البرية مع الركب المصري من المدينة المنورة في ١٧ المحرم سنة ١٠٣٩ هـ قاصداً الديار المصرية .

ثانياً - إن محمد صادق بدأ رحلته البرية مع المحمل المصري من القاهرة صوب مكة ، في يوم ٢٢ شوال ١٢٩٧ الموافق ٢٧ سبتمبر ١٨٨٠ م .

ثالثاً : واذن فشقّة الزمن بين الرحلتين هي : (٢٥٨) عاماً قمرياً .

وحدد عبد الوهاب النجار في كتابه : (قصص الأنبياء) أرض مدين بأنها (بلاد واقعة حول خليج العقبة من عند نهايته الشمالية ، وشمال

١ أعتقد أن هنا خطأ مطبعياً .. حيث قدست لبااء الموحدة عن اليااء المذناة التحتية ، والصواب العكس أي زريبات - بدليل سياق الكلام .. فانزريبات هي الخطأ .. أما الزريبات فهي المقارن .. ومنه قوله تعالى « وزرابي ميثوفة » .

٢ نفس المصدر ، ص ١٤ .

الحجاز وجنوب فلسطين ، تنسب إلى مدين) . (وتقول التوراة :
« مديان » بن ابراهيم عليه السلام سميت القبيلة باسمه ، وكانوا شاونية ،
وفي الطبري عن سعيد بن جبير أن ما بين مصر ومدين ثمانين ليال ،
وكانت مدين هي البلاد التي وقع اختيار موسى على قصدها والنزول
بها ، ولعله راعى صلة القرابة بين مديان بن ابراهيم ، وإسحق بن
ابراهيم الذي من ذريته موسى ^١ .

ومن قوله : (شاونية) يُقْتَبَلُ أنهم كانوا رعاة غنم .. وعبد الوهاب
النجار ، في هذا يؤكد وجود صلة قرابة قبيلة مدين بابراهيم جد موسى ،
وهذا هو رأي الطبري وابن كثير والبعثي وابن الجوزي من كبار
المفسرين .

ويقول (جورجي زيدان) عن أصل سكان مدين ما نصه : (ويظهر
أن الشاسو - أي العرب الذين نزحوا من بلاد العرب إلى مصر - كانوا
قبل نزولهم : بادية مصر ، يقيمون في أرض مديان وراء جزيرة سيناء .
لأن لفظ الشاسو يطلق أيضاً على تلك الأرض ، وهي قديمة التاريخ
جاء ذكرها في آثار بابل سنة (٣٧٥٠) قبل الميلاد ^٢ .

وقبائل (مدين) حسب تحديد (موسل) « كانت تقطن جنوب وادي
العربة ، وإلى جنوب شرقي العقبة وتقع مدينتهم (مدّين) - بفتح
الميم وسكون الدال المهمله بعدها ياء مثناة تحية فنون - في بادية الـ
(SARACENS) إلى شرق البحر الأحمر . ويعطف جواد علي ، على
ذلك بأن هذا المكان ينطبق تماماً على موضع أرض مدين المعروفة في
الكتب العربية ^٣ .

١ ص ١٩٨ ، طبعة مصر .

٢ العرب قبل الإسلام ، ص ٦٩ .

٣ نفس المصدر ، ص ٣١٥ و ٣١٦ ، المجلد الأول .

هذا وقد ألقى الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري محاضرة في جامعة الرياض عن (اللحيانيين) وأشار فيها إلى أن مواطن اللحيانيين كانت في منطقة مدين نفسها .. وقال عن (خربة مدين) : (إنها كانت عاصمتهم . ولعلمهم - أي اللحيانيين ، كانوا نزلوا هذه الجهات وأثروا فيها حضارتهم قبل المدينيين ، قوم شعيب . على أن اللحيانيين هم أيضاً جنوبيون .. فهم إذن على كل حال نازحون من جنوب شبه الجزيرة العربية ، إلى هذه المواضع من شهاها) . وهذا الرأي يأخذ الهمداني على ما نقله عنه صاحب (تاج العروس) فهو يرى أن اللحيانيين من بقايا جرهم ، دخلت في هذيل^١ ، وبنو لحيان الذين يتحدث عنهم كانوا يقيمون ببطن غران واد بين أمج وعسفان شمال مكة المكرمة^٢ ولعلمهم من بقايا بني لحيان القدماء انتقلوا إلى هذا المكان .

وأرض مدين المعروفة في الكتب العربية ، تحاذي تبوك إلى ناحية البحر على نحو ست مراحل منها .

وهكذا يتأكد لدينا أن موطن شعيب وقبيلته كان في هذه المملكة العربية السعودية ، وفي الشمال منها بالذات ، قرب شاطئ البحر الأحمر ، وربما كانوا يستفيدون من البحر بعض غذائهم من أسماكها ، وبعض تجارتهم من السفن التي تمخر عبايه ، وتمر عليهم حاملة ما لذ وطاب . كما يستفيدون من الشبّر ، زراعته ورعي مواشيهم فيه فوم « برّيون بحريون » في آن واحد .

ومما نلاحظه هنا أن مدينة (مَدِين) وما حولها ، هي من الأماكن

١ تاج العروس ، ص ٢٢٤ ، م ١٠ ، طبع مطابع دار صادر بيروت ١٣٨٦ - ١٩٦٦ م .
٢ مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لمحمد بن عبد الوهاب ، ص ٢٩٢ ، انطبعة السلفية بمصر .

الأثرية الهامة في بلادنا . فلو أن وزارة المعارف المنوط بها تنظيم مهمة الآثار ابتعثت بعثة أثرية إلى هذه المدينة وهذه المواضع ، ونقبت عن آثارها فلربما عرفنا من ذلك الكثير من العلم والآثار المهمة وربما استفدنا من ذلك بعض أوْجُلَ ما يحفى علينا من التاريخ القديم .

وبالمناسبة فإن الدكتور جواد علي ، مع سعة اطلاعه وكثرة نقوله ، ومصادره ، لم يشر إلى رواية الحمداني عن أصل موطن شعيب عليه السلام ، ونسبه الياني ، على حد رأي الحمداني . ونعتقد أن هذا يعود إلى عدم اطلاع جواد علي ، على الجزء الذي فيه هذا البحث من كتاب (الإكليل) - وهو الجزء الثاني - لأنه طبع مؤخراً .. وبعد طبع كتاب (تاريخ العرب قبل الإسلام) لجواد علي ، بمدة من الزمن .. ولربما أنه لو اطلع عليه وعلى سابقته في الطبع (الجزء الأول منه) لتعدّل عن إمعانه في نقد روايات مؤرخي العرب عن تاريخ بلادهم وأصولهم ، ولتخفّف من غزائه في الاعتماد الكلي على نظريات المستشرقين التابعة من بحوثهم الأثرية وفهمهم الذي قد يتنوي بالنسبة لآثار العرب وتاريخهم القديم .

هل الشيخ الكبير هو شعيب ؟

وردت في القرآن الحكيم قصة التقاء موسى في نزوحه عن مصر إلى مدين بشيخ كبير بشّره آخر الأمر بالنجاة من القوم الظالمين .. وقبيل أن يزوجه إحدى بناته : لما شاهد فيه من الأمانة والقرّة .

وملخص هذه القصة التي تبدأ من الآية ١٤ إلى الآية ٢٩ من سورة القصص هو : أن موسى عليه السلام ناصر أحد أتباعه على أحد أعدائه من القبط ، فقتل موسى ، هذا العدو القبطي ، بضربة من يده ..

واتفق أن رآه ذلك الصاحب الذي استنصر موسى بالأمس ، فاستنصره مرة أخرى على قبضيّ آخر يُحارِكه ، فأراد موسى أن يبطشَ بعنودها هذا ، فانزعج صاحبه ، وتوهمَ أن موسى يريد أن يقضي عليه ، ففضحه وقال له : أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس ؟ ولما علم القبط بما فعل موسى بأحدهم اثنموا على قتله ، فخرج من أرضهم إلى مدين . وعندما وصلها وجد أناساً يسقون على بئر ، سائمة لهم ، وشاهد امرأتين تدودان غنمهما عن البئر ، فسألها ماذا ؟ فأجابته بأنهما تؤخران عادةً سقّي غنمهما حتى يُصدِرَ الرعاة مواشيهن عن البئر بعد ارتوائها ، وأبوهما شيخ كبير . فرّق موسى لحالهما ، فسقى لهما غنمهما ، ثم رجع إلى شجرة هناك ، فجلس في ظلها ودعا الله بأن يفرج عنه ، ثم ما لبث أن جاءت إحدى بنات (الشيخ الكبير) بعدما عدنّ من بيت أبيهن ، وقالت له : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقصّ عليه قصة خروجه من مصر وأسبابها بَشَرَهُ بالنجاة من طغاتها . وهنا تدخلت في الحديث إحدى البَنَاتِ الْمُعْجَبَاتِ بأمانة موسى وقُوَّتِهِ ، وقالت لأبيها : يا أبت استأجره فهو ذو قوة وهو أمين . فوافق كلامها هَوَى في نفس أبيها (الشيخ الكبير) ، فعرض عليه أن يزوجه إحدى بناته - ولعلها المتكلمة - على أن يكون مهرها تأجيرها لديه من ثماني سنوات إلى عشر ، وبَشَرَهُ بأنه سيجده - إن صاهره - رجلاً صالحاً . فوافق موسى على الزواج من ابنته ، وعلى الصداق ، ولكنه جعل الخيار لنفسه في أي الأجلين من مدة الإيجار يقضي ، فذلك يعود إليه .. وقضى موسى الأجل ، وانتهى عقد الإيجار بينهما ، فذهب موسى بأهله حتى بلغ إلى مكان بقرب الطور ، فأنس من جانب الطور ناراً فأمر أهله : (زوجته) بالملكث انتظراً لإيابه إليها ، ليأتيها ، بخبر أو يقبس من النار لعلهم يستدفئون بها من البرد القارس .. مما يدلنا على أن رحيله عن صوره

بعد انتهاء أجل إجماره كان في فصل الشتاء الشديد القرم .

هذا ملخص القصة القرآنية عن (موسى) عليه السلام وصيهـره (الشيخ الكبير) . ولم ينص القرآن على اسم الشيخ .. ولكن يستدل من سياق الآيات أنه من قوم مدين ، فإن بنتاه كُنَّ يستقن من بشر مدين ذاتها التي يستقي منها أهل مدين .. وَجَلَّ المفسرين يذهب إلى أن هـ الشيخ الكبير هـ هو (شعيب) عليه السلام ، وبعضهم يذهب إلى غير ذلك .. ويقول إنه : (يثرون) أو (يثري) أحد أحفاد إبراهيم عليه السلام ، وهذه هي رواية التوراة ، فيكون المفسرون إذن قد أخذوها من التوراة .

والتوراة الموجودة محرفةً بنص الذكر الحكيم وباعتراف أهلها .. ويقول عبد الوهاب النجار في كتابه : «قصص الأنبياء» : إن الأدباء وأصحاب السير أولعوا بجعل صهر موسى ، أي (الشيخ الكبير) شعيباً . قال أبو العلاء المعري في مدحه لرجلٍ عظيم زفت لابسـه عروسه :

كنت موسى وافته بنت شعيب

غير أن ليس فيكما من فقير

وقد توقف الشيخ عبد الوهاب النجار عن الأخذ بأحد الرأيين .. برغم ورود بعض الأحاديث النبوية التي تسميه شعيباً، إلا أنه ظعن في بعض رواياتها بأن الراوي (في حفظه سوء) وهو «عبد الله بن هبة المصري» .. وبما أورده النجار أن بعض المفسرين قال : إن شعيباً كان قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة (وهذا يتفق مع رأي الزركلي في كتابه : الأعلام) . وقد سبق لنا أن قلنا أننا نرى عكس ذلك استناداً إلى فحوى الآية التي استند أولئك المفسرون إليها ، وهي قوله تعالى : «وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ

أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَيِّنَةٍ .
 فالآباء الثلاثة الذين كانوا بين شعيب وإبراهيم - على رأي من قال
 بذلك - تجعل المسافة الزمنية قريبة جداً بينه وبين لوط الذي أهلك قومه ،
 والذين ذكّرهم شعيب لقومه في معرض الاعتبار بعذاب الله لمخالفي
 الأنبياء الذين كان زمنهم قريباً من زمن أولئك القوم وخاصة قوم لوط .

خلاصة ما سبق :

ويمكننا أن نستخلص مما سبق بيانه ما يأتي :

أولاً : إن شعيباً عربي الأصل ، والاسم ، والقبيلة ، والموطن ،
 في رأي أغلب المفسرين والمؤرخين والأثريين .

ثانياً : إن قومه مدين هم عرب نزحوا من الجنوب مباشرة .

ثالثاً : إن شعيباً أخاهم ، هو رسول من الله عز وجل إليهم . ولقد
 حذرهم وأذرهم فأمن به بعضهم فنجا من عذاب الله ،
 وكفر به بعضهم فهلك بعذاب الله تعالى .

رابعاً : إن اسم (مَدِين) كما يطلق على القبيلة يطلق على مدينتهم .

خامساً : إن مَدِينَتَهُمْ قد بادت وكذلك مَدِينَتَهُمْ قد شحرت
 واضمحلت .

سادساً : إنه كان يقطن بمواطنهم (لِحْيَان) وربما انقرضوا أو تشتتوا
 وذابوا في قبائل العرب قبل استفحال أمر (مدين) . وتوجد
 قبيلة معروفة في الجاهلية القريبة من ظهور الإسلام تسمى
 (لحيان) تسكن قرب مكة ولا تزال .

سابعاً : إن مواضع قبيلة متدين وموقع مدينة مدين ، هي على ساحل البحر الأحمر . (بحر القلزم) بداخل المملكة العربية السعودية في الشمال منها ، بالقرب من ميناء العقبة . وهي - أي مدين - إلى جنوب العقبة على الساحل حسب ما حدده المؤرخون القدامى والمحدثون .

الْكُؤَيْت
مَلَامِجُ وَأَشَار

الكويت بين التاريخ والسياسة

اذكر اني كنت قرأت في بعض الكتب الحديثة أن أصل صيغة «كُوَيْت» - بضم الكاف - برتغالي ، فهي دخيلة على اللغة العربية ومعناها (القلعة) .. وقد وَقَدَّتْ مع هؤلاء المستعمرين العتاة ، الذين ذهب استعمارهم للشرق الأوسط ذهاب أمس الدابر ... وقد جرت بعدئذ على ألسنة العرب ، كدأهم في الاقتباس ودأب سائر الأمم ، فسموا بها بعض مدنهم الحديثة إذ ذاك . وبمصر الكُوتِ : (الكُوَيْتِ) سميت الكويت موضوع هذا البحث .

ومما يدل على أصلها البرتغالي أن سائحاً أوروبياً زار الكويت سنة ١٨٣١ م ، فذكر أن ميناء الكويت ربما كانت استعملت أو اتخذت قاعدة للبرتغاليين ، كما ذكر أن المدينة كانت تُحْكَمُ بوساطة شيخ^١ .

وجاء في كتاب : « الكويت المدينة الفاضلة - سويسرا الشرق » أن الكويت تصغير الكُوتِ (بضم الكاف) . والكويت كلمة يطلقها أهل تلك النواحي على البيت أو عِدَّةِ بيوت متجاورة تخزن الزاد والوقود وغيرهما . (وهذه الكلمة لم تنقلها القواميس العربية) . فيجمعونها على

١ جزيرة العرب : لحافظ وهبه ، ص ٨٧ ، الطبعة الأولى .

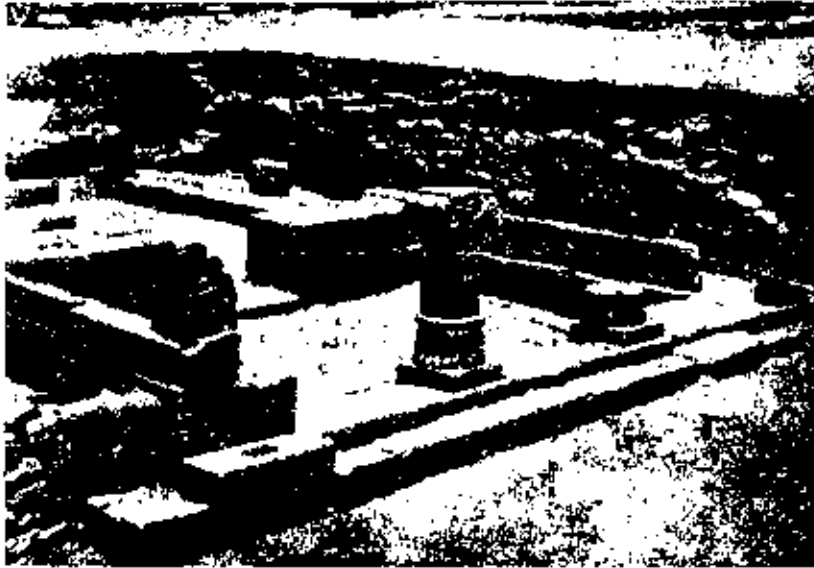
(أَمْكُونَاتٍ) ويصفرونها على كَوَيْتٍ .. ويرى أحد العلماء أنها إما أن تكون محرقة عن «القوت» ، بالقاف ، لأنها مخزن للأقوات . وقد يُبدلُ العرب القافَ كافاً .. فالنقطة تسمى «نكته» ، والغسق يسمى «عسكاً» .. وفي «المزهر» للسيوطي شواهد كثيرة من هذا القبيل^١ .

وأنا أميل إلى هذا .. حتى ولو كانت كلمة «الكوت» في اللغة البرتغالية بمعنى القلعة والبيت أو المخزن ، وأخذها العرب في تلك الجهة عنهم ، فلا غرابة في أن يكون البرتغاليون أخذوا هذه الصيغة من اللغة العربية أيام ازدهار الحضارة العربية في الأندلس ، ثم حرفوها إلى هجوتهم هكذا .. وقد رأينا لذلك نظائر ، فقد أخذت الفرنجة من العرب صيغتي «مخزن» و «دار صناعة» ، فحرفوها إلى «مغازة» و «ترسانة» .. وعدتاً نحن العرب فأخذنا هاتين الصيغتين كما حرفتها الفرنجة ... واستعملناهما وهجرنا الصيغتين العربيتين الفصيحتين حتى كأن لا وجود لهما في لغتنا .

والكویتُ - البلدُ والإمارةُ - أُخِذَ اسمها من اسم ذلك الحصن الصغير الذي بناه محمد بن عريعر زعيم بني خالد ، أو صباح الأول جد الأسرة الحاكمة في الكويت .. في المكان الذي وهبه له زعيم بني خالد حينما حل هو بالكويت . وقد ارتضته (أي صباحاً) القبائل ، حاكماً لها قباعوه ، ومن ثمّ تسلسل الحكم في أبنائه^٢ كابراً عن كابر ، حتى وصل لسمو الحاكم الأمير المرحوم الشيخ عبد الله السلم الصباح الذي ازدهرت الكويت في عهده ازدهاراً عظيماً ، نقلها من طور إلى طور .. بسبب استكشاف الزيت في تربتها بكميات غزيرة جداً .. فانتسعت العمارة ، وازدهرت التجارة والمعارف ، وعمت

١ الكويت المدينة القاصفة ص ٩ .

٢ جغرافية شبه جزيرة العرب ، ص ٤٧٨ .



معبد سويدرا الخرافي بقبيلكا

الرفاهية البلاد ، حتى أصبحت الكويت معروفة بأنها من أغنى بلاد العالم اليوم .. وفي عهده نالت الكويت استقلالها ، وأصبحت دولة ذات سيادة .

وفي كتاب : «خمسون عاماً في جزيرة العرب» المطبوع سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م بالقاهرة ، أن «الكويت اليوم بعد كشف منابع الزيت ، تختلف عن الكويت القديمة في كل شيء .. ففيها اليوم المدارس الكثيرة التي غصت بالطلبة العرب ، كويتيين وغير كويتيين ، وفيها المستشفيات ونُطُسُ الأطباء .. والواقع أن التطور عام في جميع البلاد العربية ، ولكن هذا التطور نجده ظاهراً أكثر في البلاد الصغيرة في حجمها مثل الكويت والبحرين وغيرها^١ .

١ خمسون عاماً في جزيرة العرب ص ١٣ .

ويقول صاحب المنجد : « الكويت : مشيخة في الجزيرة العربية الشمالية الشرقية ، مساحتها (٥١٨٠٠) كم^٢ ، وسكانها (٢٥٠٠٠٠) بحدها العراق شمالاً ، وغرباً ، والمملكة العربية السعودية جنوباً ، والخليج العربي شرقاً ، وتتأخرها منطقتان محابدتان جنوباً وغرباً ، أرضها في الإجمال جدياء إلا بعض الواحات والمزارع قرب الشواطئ .. أما جوف أرضها فقنني بالنفط ، تربط الكويت بحكومة بريطانيا معاهدة صداقة . عاصمة المشيخة مدينة الكويت ، وسكانها (١٢٠٠٠٠) ، ولمرفئها شأن خطير في تجارة الخليج منذ أجيال^١ .

ومنطقة الكويت كانت معروفة في العالم القديم . فان الأحافير التي أجريت في جزيرة فيلكا - البعيدة بنحو ٣٠ كيلومتراً عن ساحل مدينة الكويت - ان الأحافير المشار إليها تدل على أن هذه المنطقة التي أجريت بها كانت معروفة في الزمن القديم .. وقد وجدت البعثة الدنمركية للآثار بجزيرة فيلكا ، أختاماً يرجع تاريخها إلى ٢٥٠٠ ق.م. مما يدلنا على أن السفن التجارية كانت تمر بسواحلها ، كما وجدت بها تمائيل صغيرة منها رأس الاسكندر وتمثال افروديت .. وتؤيد ذلك أيضاً الروايات التاريخية القائلة بمرور الاسكندر على طريق الخليج العربي للسيطرة على الشرق .

وقد عثر في « نل سعد » بالجزيرة على أن حضارة هذه المنطقة ذات طابع خاص ، كما يفهم من الأختام المستديرة التي عثر عليها وهي مختلفة عن أختام العراق الاسطوانية ، وعن أختام الهند المربعة ، ويرجع تاريخها إلى ٢٥٠٠ ق.م.

والكويت مدينة حديثة في التاريخ العربي ، تقع بالقرب من موقع كاظمة ، وعندها وقعت معركة بين العرب بقيادة خالد بن الوليد

١ المنجد ص ٤٥١ .



الاختتام المستديرة التي عُمر عليها في احافير الكويت

رضي الله عنه ، والفرس بقيادة هرمز سنة ١٢ هـ (واسمها في المراجع :
القرين) ، ولا يزال هذا الاسم يطلق على بعض المواقع في أطرافها وفي
جزيرة فيلكا . واسم الكويت الحالي هو تصغير لصيغة (كوت بمعنى
القلعة) . وتصنع الكويت المراكب الشراعية المتينة من خشب المساج^١ .

وتقع مدينة الكويت العاصمة ، على الساحل الجنوبي من خليج
الكويت ، وفي الجنوب الشرقي من البصرة ، وتبعد نحو (٨٠) ميلاً .
وفي الشمال الغربي من البحرين ، وتبعد عنها نحو (٣٨٠) ميلاً^٢ .

وكانت مياثها قبل النهضة الحديثة من اللبن - بكسر الباء -
أو من الصخور البحرية . ولها مقاطعات تتبعها ، من أشهرها : الباطن ،
وهي ملتقى الحدود العراقية والنجدية^٣ .

وتتبع العاصمة مدُنٌ من أهمها الجهرة .. وكانت مسكونة قبل الإسلام .
وهي أعظم قرية زراعية في الكويت^٤ .. وقد لا نعرف من أين أخذ صاحب
كتاب « جغرافية البلاد العربية » الذي قررت وزارة معارفنا تدريسه
بالسنة الرابعة الثانوية .. ومولفه الاستاذ صلاح عبد القادر البكري ، تسميتها

١ الكويت حقائق ومعلومات : لوزارة الإرشاد والآثار الكويتية ، من الصفحة ١١ إلى ص ١٤ .
٢ ملونذ العرب : للريحاني ، ص ١٥٩ .
٣ جغرافية شبه جزيرة العرب : لعمر رضا كعالة ، ص ٤٩١ .
٤ المصدر نفسه ، ص ٣٩٣ .

في كتابه المذكور باسم «الجمصرا» ان لم يكن هذا من الأغلاط المطبعية الشائعة فلعل صحة الاسم : (الجهرة) ^١ .. ولم يذكر ياقوت في «معجم البلدان» اسم مدينة (الجهرة) هذه ، مما يدل على انها لم تكن مدينة في عهده ، أو لانه لم يسمع بها ولم يقرأ عنها .

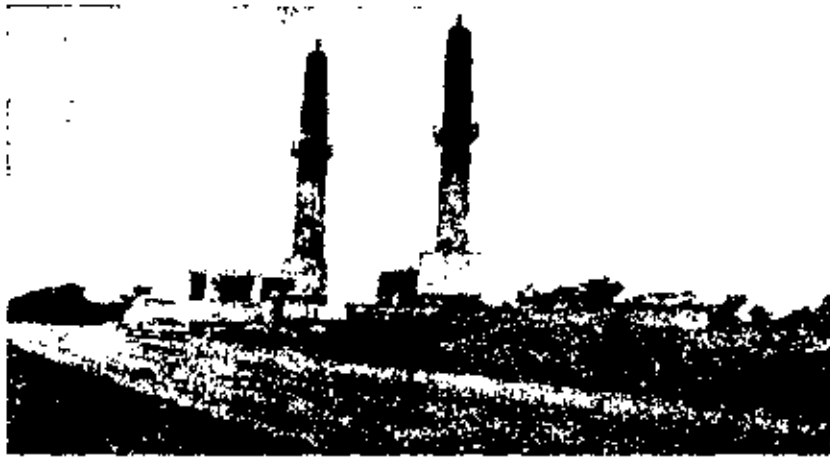
ويقول كتاب «الكويت المدينة الفاضلة» : لم تكن الكويت معروفة قبل ٥٠٠ سنة .. على أن هناك قولاً راجحاً ، وهو أنها كانت موجودة قبيل سنة ١١٣٥ هـ ، حيث إن آل الصباح الذين نزحوا إلى تلك البلاد من الحجاز هم الذين أنشأوا الكويت .. وقد كان أول حاكم لها صباح الأول : وقد توفي سنة ١١٩٠ هـ .. وبعث آل الصباح بصلة إلى آل خليفة حكام البحرين وإلى آل سعود حكام نجد والحجاز ، فهم يتسبون إلى قبيلة عنزة التي تنقسم إلى بيوت وعشائر من بينها شمالان التي منها آل الصباح .. وقد مر آل الصباح خلال هجرتهم إلى هذا المكان الذي سُمي بالكويت - بقطر وقيس والصبية ، وهي أرض قريبة من الكويت ، ثم نزلوا الكويت وتوطنوا بها ^٢ .

ومن هذا يبدو لنا أن المؤسسين الفعليين لمدينة الكويت هم آل صباح .

وفي ظل حكم آل صباح حافظت إمارة الكويت على كيانها العربي الذاتي فلم تندمج فيها تحكمه في الدولة العثمانية برغم المكائد والضغط اللذين أحاطتهما بها هذه الدولة ، فقد تمكن مبارك الصباح حاكم الكويت من أن يحبط مؤامرات الأتراك ضد إمارته ، وهكذا انقلت بها من الكباشنة الكبيرة بدهائه ولباقته .

١ جغرافة البلاد العربية ص ١٩ .

٢ ص ٩ .



جامع سوق الخميس بالبحرين

وفي هذا يقول حافظ وهبة : « لقد حاول الأتراك في سنة ١٨٩٧ م (١٣١٥ هـ) أن يستولوا على الكويت وبنفوا الشيخ مباركاً إلى الآستانة ، ولكنه أحبط هذا المشروع ، بما بذله من المال في البصرة وبنغازي ، غير أنه في سنة ١٨٩٨ م (١٣١٦ هـ) أرسل اليه الأتراك وفداً من كبار الموظفين وبعض أعيان البصرة على إحدى السفن الحربية القديمة ، لنقله إلى الآستانة ، حيث عين عضواً في مجلس شوري الدولة ، فالتجأ إلى الانكليز ، فأقذوه من الأتراك »^١ .

وفي سنة ١٣٧٣ هـ زار الأمير عبد الله الجابر الصباح رئيس المعارف الكويتية القاهرة .. وفي إحدى الخطبات التكريمية التي أقيمت له قال : « نحن والحمد لله عرب بكل ما في كلمة العروبة من معان سامية ، ومسلمون بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معان وآمال ، وإن أحكامنا كلها تسير وفق الشريعة السمحة .. كما أننا مستقلون ولا يسد

١ ص ٩٩ من كتاب جزيرة العرب في القرن العشرين ، الطبعة الأولى .

للأجنبي علينا»^١ .

وهذا الذي يقوله الأمير عبد الله الخابر الصباح ، في سنة ١٣٧٣ هـ على مشهد من الناس ونُسِرَ ، هو ما أجمع عليه المؤرخون الحديثون من أن الكويت العربية المسلمة لم ينل من عروبتها وإسلامها الاستعمار ... فقد ظلت ثابتة على دينها وعروبتها برغم الصلة المباشرة للمستعمرين بها ، من طريق المعاهدة المبرمة .. كما أن الأتراك المسلمين لم يوتروا على عروبتها .

أما الآن ، وقد أعلنت الكويت الاستقلال ، بعد عهد الحماية الذي ولى إلى غير رجعة إن شاء الله ، فأحتر بالكويت المستقلة أن تندفع صعداً إلى الأمام في نهضة عربية إسلامية عميقة الجذور .

والكويت العربية المستقلة رِبْحٌ للعرب والعروبة ، وكسبٌ للإسلام والمسلمين .. فقد أصبح لنا صوت عربي جديد ، في أروقة هيئة الأمم المتحدة ، وفي المحافل الدولية الأخرى ، وازداد أعضاء الجامعة العربية عضواً عربياً غنياً في مبادئه ومادته .

والكويت - في تاريخها البعيد والقريب - ذات علاقة وشيجة بالمملكة العربية السعودية .. ذلك أن البيت الحاكم في الكويت هو من «عنزة» التي تنحدر من بكر بن وائل .. والبيت الحاكم في المملكة السعودية كذلك ينحدر من «عنزة» نفسها التي هي من بكر بن وائل . ومن الكويت كانت الطلاقة مؤسس هذه الدولة . المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود لانشائها وتوحيدها . تحت راية التوحيد الخفاقة .

١ كتاب الكويت المدونة الفاضلة : ص ١٨٦ .

الأردن
ملاح وأثار

كهف اهل الكهف

منذ وعينا قصة أهل الكهف الواردة في الذكر الحكيم : ونقومنا
تنطلع إلى رؤية هذا الكهف الذي أوى إليه الفتية الاطهار الذين آمنوا
بربهم وهربوا من جحيم الوثنية والطغيان في أيام دقيانوس .

وتمضي السنون ، وتُهَيَّءُ الأقدار لنا رحلة إلى الأردن . وإذا بنا
في أصيل يوم من أيام جمادى الآخرة ١٣٨٦ هـ بطلب منا مندوبا الحكومة
الأردنية الهاشمية المرافقان لنا أن نستعد لزيارة الكهف الواقع قريبا من
عَمَّانَ بجنوبها .. وهكذا امتطينا السيارتين اللتين جعلتهما وزارة الاعلام
الأردنية تحت تصرفنا ، واتجهنا صوب الكهف .. وفي نحو ربع ساعة
كنا قد بلغناه .

وصف الكهف وما حوله :

وهذا الكهف هو غير مرتفع ويقع في داخل سفح جبل ، ويدخل
إليه الإنسان من فتحة مرتفعة بعض الشيء ، وسقفه ليس بالواطي ولا
بالعالي . هو بينَ بَيْنَ .. وبه نقوش رومانية منقورة في داخله على
بعض الصخور العظيمة المكونة لجدرانته . وتوجد « كُوة » مفتوحة إلى

السماء في داخل الكهف القصي ، تهبط منها أشعة الشمس محصورة ، فتدخل شيئاً من النور إلى الكهف إذا توسطت الشمس كبد السماء ، فهو متنفس علوي للكهف . أما المتنفس الثاني والأهم فهو بابه المتجه صوب الشمال .

وفي مدخل الكهف «بَهْو» أشبه شيء بالدلهيز كما يُدعى لدينا سابقاً ، وبالصالة كما يُعرف الآن . والدلهيز أقرب مكان إلى الباب دائماً . وهناك في داخل الكهف توابيت ضخمة قيل لنا إنها كانت أضرحة أصحاب الكهف السبعة . وفي خارجه مسجد ذو منبر مكشوف قيل لنا إن صلاح الدين بن أيوب^١ بناه أو جددده ، ومثدنة تعلق الكهف من جانبه ، ومجرى ماء صناعي قديم . وإلى الغرب من الكهف بمسافة ليست بعيدة جداً يقوم جبل تعلق قِمَتَه وسفحة بيوت وأكواخ مسكونة من قبل أهل بادية متحضرين ترعى أغنامهم فيما حوهم . وقيل لنا إن اسمه (الرقيم) وأرانا المرشد ، عز الدين التل ، كيف أن الشمس إذا طلعت صباحاً تميل عن داخل الكهف جهة اليمين ، وإذا غربت تعدت ذات الشمال .. وأهل الكهف اللاجئون إليه والراقدون في وسطه بمنجاة عن أشعة الشمس المحرقة حالما يهب عليهم النسيم البارد كل وقت من مدخل الكهف الشمالي . و «الدلهيز» الذي مر بك وصفه يبدو - كما رواه لنا عز الدين - أنه هو «الْوَصِيدُ» المقصود في القرآن .. لأن من معاني الوصيد ، الباب الذي يوصد ، قال تعالى : « وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ » .

والمسجد الميني حالاً بجوار الكهف لم يكن - فيما أرى - المسجد

١ وقع كثير من الكتاب والمؤرخين في خطأ تاريخي، إذ يكتبون «صلاح الدين الأيوبي» نسبة لصلاح الدين إلى أيوب .. مع أنه ابن أيوب ، مباشرة ، أي إن اسم أبيه أيوب ، فلا يصح على هذا أن يقال له الأيوبي .

المذكور في القرآن المجيد : « قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا » . ذلك لأن طراز بنائه إسلامي ، وربما كان يقوم على أساس المسجد الأول أو بالقرب منه .

من كل ما سبق بيانه يتراءى لكاتب هذه السطور - علمياً - أن « كهف أهل الكهف » هو هذا المكان بالذات . ذلك لأن الله تعالى أكد لنا في محكم كتابه أن ما يقصه علينا من نبئهم هو الحق الذي لا مربة فيه : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ » . ونضيف إلى ذلك ما توصلنا إليه من دراسة التاريخ واستفراء قصص القرآن الحكيم من أنه إنما كان يتحدث في قصصه لعرب الجاهلية المعاصرين للرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، عن الأمم الخالية ومواقعها التي يعرفها الْمُخَاطَبُونَ ، وتنحصر دائرتها الكبيرة في المنطقة التي تقع في شمال شبه جزيرة العرب ، ابتداء من مشارف الشام على حدود الحجاز، وبشماله حتى أقصى حدود الشام العربية . ويدخل في محيط هذه الدائرة كل من الحجاز والأردن وفلسطين وسورية ، ويندرج في محيط الدائرة بالتنجبة بلاد مصر .. بالنسبة لأن ما روي من قصص موسى ويوسف عليهما السلام وفرعون موسى ، في أرض مصر هو في الأساس منبثق من أرض الشام ، لأن هذين النبيين : موسى ويوسف هما في الأصل من سكان فلسطين . وفرعون موسى أصله عربي من الهكسوس الذين هاجروا إلى ديار مصر واستوطنوها ثم حكموها فترة من الزمن القديم .

دوائر أثرية أخرى :

وهناك دائرة صغيرة أخرى أيضاً تحدثت عنها قصص القرآن وهي جَنُوبُ الجزيرة العربية .. بما بعث فيها هودٌ إلى قومه عاد ، وبما ذكر عن أصحاب الأخدود في نجران ، وبما ذكر عن تبع وسبأ في

اليمن . ودائرة " أنحسرى وردت في القرآن وهي (بَابِلُ) بالعراق . وكل هذه الجهات هي من بلاد العرب وما يعرفه العرب المُسَخَطُونَ في القرآن . ولا يدخل في معلوماتي أن القرآن تحدث عن غيرها ، اللهم إلا أن يكون عن فارس « إشارة » لا صراحة ، و « الروم » ، وهما يمثلان الامبراطوريتين اللتين كانتا تجاوران بلاد العرب من شرق وشمال ، وتمثلان بعض مدنها وأريافهم إذ ذاك . ومن هذه الجهة عرفوهم ، ومن هذه الجهة تحدثت قريش وسجدت الصحابة فيمن يفوز منهما بالظفر في الممارك الطاحنة الدائرة بينهما أيام ظهور الإسلام . فبشر الله المؤمنين في مكة بأنه سينصر حتماً الرومَ أهلَ الكتاب على فارس الوثنية ، وفي ذلك بشارة معنوية بنصرة الإسلام على الشرك . وقد عبر القرآن بحير تعبير وأبلغه عن تحقيق النصر آخر الأمر كذلك للمؤمنين على المشركين في مكة المكرمة ، وتحقق وعدُ الله الصادقُ بفتح مكة و« بَيَانُ نَصْرِ الرُّومِ عَلَى فَارِسِ » . كما تحدث القرآن عن ذي القرنين ووصوله إلى بلاد يأجوج ومأجوج لأن ذا القرنين من العرب على راجع الأقوال ومن جنوب بلادهم بالذات ^١ .

أما الأقطار النائية عن بلاد العرب كالقسطنطينية وما حوفا التي لا صلة كبيرة لهم بها فلأنها لم تكن مواطن رسالات أنبياء الله إلى خلقه فيما أعلم لم يتحدث عنها القرآن المجيد — فيما أعلم أيضاً — ولا أنبأنا بما سبق أن جرى عليها من أحداث خطيرة وحروب مبيدة مثيرة .

١ في « صفة جزيرة العرب » للهمداني : « فأوطن حبير إلى رأس تبة وهي عقية من أشرف تهامة وهي أبها وبها قبر ذي القرنين فيما يقال عمر عليه على رأس ثلاثمائة من تاريخ الهجرة » ص ١١٨ . وفي « الآثار الباقية عن القرون الخالية » لأبي الريحان البيروني : « أن ذا القرنين من حبير ، والدليل على أنه حبيري أن « الأذواء » إنما يعرفون في بلاد حبير دون بلاد اليونان وهو من الدولة الحميرية التي حكمت من سنة ١١٥ ق. م. إلى ٥٥٢ م. من الطبقة الثانية منها وملوكها يسمون الشباغة وأجدهم تبع » .

عَوْدٌ عَلَى بَدْءِ :

والصفة التي شاهدناها في الكهف هي مطابقة لما جاء عنه في القرآن الحكيم . فباب الكهف شمالي ، وإذا طلعت الشمس على مَنْ هَمَّ بدخله ، لا تصل اليهم . إنها تميل ذات اليمين . وإذا غربت تميل ذات الشمال (وَهَمٌّ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ) وهذه هي الفجوة نراها رأي العين . وكلبهم حارسهم كان مريضه بهذا الدهليز الذي هو مدخل الكهف . وكأني أراه باسطاً ذراعيه بالوصيد . والوصيد هو «الباب» في اللغة العربية ، لأنه يوصد أي يغلُق . وهذا هو جبل الرقيم بجانبنا نراه رأي العين . واسمه لا يزال كما كان يعرفه العرب قديماً هو (الرقيم) . وها هو ذا المسجد إلى جانب الكهف ، ولعله بُني على أسسه بناءً إسلامياً .

وعلى ضوء هذه الدراسة المزدوجة نستطيع أن نقول مرة أخرى بدون تحفظ : إن هذا هو «الكهف» وهذا هو «الرقيم» . والرقيم كما ذكره ياقوت في معجمه جبل يعرفه العرب القدامى بهذا الاسم وقال فيه كثير بمدح يزيد بن عبد الملك :

بِزُرْنِ عَلَى تَنَائِيهِ يَزِيدُ بِأَكْتِنَافِ الْمَوْقِرِ وَالرَّقِيمِ

مناقشة لياقوت الحموي :

ومع أن ياقوتاً - في مادة الرقيم - بالمجلد الثاني من «معجمه» ركّن إلى أن الكهف ليس هو القريب من عَمَّانَ ، وإنما هو في بلاد الروم بين عمورية وليقية ، وبينه وبين طرطوس عشرة أيام أو أحد عشر يوماً ، ودليله على ذلك ما رواه محمد بن موسى المنجم في

١ معجم البلدان ، ص ٨٠٤ ، المجلد ٢ طبعة طهران .

بعثة الوائلي ، له ، إلى بلاد الروم ، عن أهل تلك المنطقة ، وما رواه عبادة بن الصامت في بعثة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، له ، إلى بلاد الروم ، لدعوة ملكهم إلى الإسلام - فإن تلك الروايات هي مأخوذة من روايات مجردة عن الدلائل ، فقد رُوِيَتْ عن سكان المكان من الروم . وقد لا تعدو روايتهم هذه أن تكون قابلة للتحرير والتضليل ، لا سيما ونحن نشاهد اليوم كثيراً من المآثر المزعومة أنها إسلامية مقدسة ولا أنزاع من الصحة لذلك ، وما هي سوى (مصايد وأشراك) ينصبها النفعيون لطلب المادة ليس غير .

وياقوت نفسه روى لنا أن من الرواة من يرى أن الكهف والرقيم هما بالأندلس ، وأن طليطلة هي مدينة دقيانوس الذي فَرَّ في زمنه أصحاب الكهف من بلدهم إلى الكهف . وهذا تخالُفٌ في الرواية والرأي . ونلاحظ أنه قد رجح آخِر الأمر إلى الرأي الذي يقول : إن الكهف والرقيم هما بقرب عَمَّانَ ، بدليل أنه في المجلد الثالث وفي مسادة (عَمَّانَ) قال ما نصه : « وقيل إن عمان هي مدينة دقيانوس ، والقرب منها الكهف والرقيم معروف عند أهل تلك البلاد ، والله أعلم »^١ .

وكان هذا هو ختام مباحثه عن الكهف والرقيم ، وبعد أن كتب ما كتب في هذا المجلد وفي سابقه الذي هو المجلد الثاني من كتابه ، ولم يعقب عليه بشيء . فالذي يفهم من سياق كلامه وفحواه اقتناعه آخِر الأمر بأن هذا الرأي هو أقرب للصواب من سابقه أو سوابقه .

الكهف في كتب الآثار الأردنية الحديثة :

ولم يتعرض كتاب (آثار الأردن) تأليف لانكستر « هاردنج » ، وترجمة

١ معجم البلدان : ص ٧١٩ ، المجلد ٣ ، طهران .

الأستاذ سليمان موسى لذكر شيء عن الكهف والرقيم ، مع إسهابه في ذكر آثار الأردن قاطبة ، ومنها عمّان العاصمة ، وعقده فصلًا خاصًا بآثارها الأخرى كالمدرج الروماني الكبير وآثار جبل القلعة وما إلى ذلك . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن لانكستر « هاردنج » لا يميل أو لا يرى أن الكهف والرقيم يقعان قرب عمان . وقد قال بهذا القول من قبله ، غيره من علماء الإسلام ومؤرخيهم . ولكن لانكستر هاردنج لم يفصح لنا عن رأيه الخالص . ولعل ذلك أو لعل دراسات خاصة هي التي أوحى إلى عالم آثار الأردن الأستاذ محمود العابدي بالقول بأن هذا المكان القريب من عمان ليس هو الكهف المراد في القرآن المجيد ، وإنما الكهف في آسية الصغرى . لقد صرح لنا بذلك ونفى نفياً باتاً أن يكون هذا المكان هو الكهف . وذاكرته وسقته له بعض أدلتي ، ولكنه لم يقتنع .. وقال : إن هذا المكان مكان روماني قديم أو معبد لهم .

أما أنا فما زلت أرى أن هذا هو الكهف ، وأن هذا هو الرقيم . وأهل مكة أدرى بشعابها . وأهل البلاد القدامى الذين روى عنهم ياقوت أن هذا هو الكهف . وهذا هو الرقيم بجانبه قرب عمان هم أعرف بآثارها . وتتسلسل معرفتهم لها ، من جيل إلى جيل ، خاصة وقد أثبت العلم والبحوث الأثرية أن كثيراً مما رواه مؤرخو العرب وعلمائهم عن ماضي بلادهم وآثارها العريقة هو حقيقة واقعة ، وأن مجرد نفي ذلك لمجرد أنه روايات عربية أو إسلامية لا تستند إلى بحوث أثرية أو كتب مدونة موهلة في القدم ، لم يستطع أن يزرحح حقيقة وقوعها قيد شبر .

هذا وقد علمت أنه يوجد في عمان أستاذ يرى رأينا ، وقد ألفت كتاباً وطبعه في هذا الموضوع . ولكننا لم نتمكن من الاجتماع به ولا

الوصول إلى تأليفه ، لا حينما كنا بالأردن ، ولا بعد أن غادرناها إلى هنا^١ .

• • •

هذا وقد نشرت جريدة (الحياة) البيروتية في عددها الصادر في ٢٦ شهر رمضان ١٣٨٧ هـ - ٢٧ كانون الأول ١٩٦٧ م تحت عنوان : (كهف أهل الكهف) رسماً يدوياً للكهف ، وكُتِبَ تحته ما نصه : (واجهة الكهف بعد كشف الأتربة عنها وتنظيفها) ، ثم نشرت تحت عنوان : (إقامة مسجد بالقرب من عمّان في موقع كهف أهل الكهف) ما نصه :

عمان - ٢٦ - مكتب الحياة : تقرر إنشاء مسجد في موقع « كهف أهل الكهف » في منطقة عمان ، وذكر أن الملك حسين سيترسي حجر أساس المسجد بالحديد الذي سيقام على الموقع الأثري التاريخي الذي يقع على بُعد ثمانية كيلومترات جنوبي مدينة عمان ، وذلك يوم الاحتفال بعيد الشجرة في الخامس عشر من شهر كانون الثاني القادم .

ومعروف أن قصة أهل الكهف وردت في القرآن الكريم ، وفي عدد من الكتب الدينية المسيحية ككتاب « أوقات الصلاة » و « فوز الشهداء » . وأهل الكهف هم تلك الفئة من الناس الذين ورد أنهم ناموا قرابة ثلاثة قرون ، ثم أفاقوا على دنيا غير الدنيا التي كانوا يعرفونها . وقد اكتُشِفَ « الكهف » أثناء الحفريات التي قام بها رفيق وفسا

١ في رحلتي إلى الرياض لسنة ١٣٨٦ هـ ، عثرت على الكتاب المشار إليه في إحدى مكتبات الرياض التجارية فاشتريته . واسمه : « اكتشاف كهف أهل الكهف » ، وهو تأليف الأستاذ رفيق وفا الدجاني وهو يؤيد وجهة نظرفنا تماماً .

المدجاني ، المساعد الفني لدائرة الآثار العامة في الأردن ، حيث عثَرَ
على بقايا مسجد كان قد أقيم زمن عبد الملك بن مروان ، كما عثَرَ على
بقايا كنيسة ترجع إلى القرن الخامس للميلاد . وقد وَصَحَ بعد ذلك كتاباً
أورد فيه جميع النصوص والمراجع المتعلقة بقصة « أهل الكهف » والمثبتة
لصحة المكان الحالي لموقعه .

البِراء

المدينة الوردية الرائعة

بالإمكان أن نعتبر « مدينة البِراء » الرابضة بجانب الطريق الصحراوي الممتد من عَمَّان إلى مَعَّان ، فالعقبة — من أعظم مدن العالم التاريخية جمالاً ، سواء في أيام إنشائها وازدهارها ، أم فيما بعد ذلك في آثارها وأطلالها . وتمثل عظمة البِراء في دقة فنِّ النحت وفن التصوير ، وروعة الهندسة المعمارية فيها ، مما قام به أولئك الأنباط العرب الذين قدّموا أبنيتها الفارقة الرائعة من الصخر الأصم الأشم .

أسماء البِراء :

وأرى أن الاسم الأصلي للبِراء ليس هو « البِراء » الذي اشتهرت به مؤخرأ ، نقلاً عن المستشرقين ، وإنما هو « سَلْع » . وقد سماها بذلك ناحتو بيوتها ومنشئوها من النبط ، اقتباساً لهذا الاسم من موقعها الذي هو هذه الجبال أو هذه الشقوق في الجبال .. فكلا المعنيين لسلع وارد في اللغة العربية .. وفي بلاد العرب جبالان آخران سُميا باسم « سلع » . أحدهما يقع بقرب المدينة المنورة عن شمالها ، والثاني في بلاد هُذيل .

ومما يؤكد لي أن اسم المدينة الأصلي العربي هو (سَلْع) قولُ
 ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: «وسلع أيضاً حصن بوادي
 موسى عليه السلام بقرب بيت المقدس». فلا مرية في أن ياقوتاً إنما
 يعني بهذا، مدينة البتراء، وقد ساءها حصناً، لأنه لم يهأ له التجوالُ
 في ربوعها ومشاهدة قصورها ومعابدها وأسواقها وملاعبها ومقابرها
 وشارعها العظيم. ولعله أراد بالحصن، الحصن الذي أقامه الصليبيون فيها،
 فذكره دون غيره مما هو أهم وأعم وأطم. وباسم «سَلْع» ساءها
 شاعر العرب المرحوم فؤاد الخطيب في قصيدته العصماء فيها، إذ قال:

هِيَ سَلْعُ وَالتَّبْرَاءُ تَرْجَمَةٌ اسْمِهَا
 نُسِجَتْ عَلَيْهِ عَنَّا كِبُ الإِهْمَالِ

وفيدنا فؤاد الخطيب في ديوانه، وهو شاعر لا يجاري وعالمٌ غزير
 العلم، بأن لتبراء اسماً ثالثاً هو (وادي موسى). وقد مر بنا قول
 (معجم البلدان) إن (سَلْعاً) التي هي البتراء نفسها حصن بوادي موسى
 وإذن فيكون هذا من المجاز المرسل، من باب تسمية الحال - بتشديد
 اللام - باسم محله.

هذا ومما ينبغي التنبيه إليه أن اسم «البتراء» بالصيغة نفسها قد ورد
 في كتب السيرة ومعجم البلدان والتاريخ، العربية، وهو ليس مطلقاً
 «بتراء» وادي موسى». وقد لخصت من مراجعاتي لما ورد عن
 البتراء هذه التي لا تمت إلى «مدينة الأنباط» موضوع هذا المقال
 - بأية صلة - أنهما بتراوان، إحداهما: البتراء الواقعة على نحو مرحلة
 من المدينة المنورة، وقد سلكها النبي عليه الصلاة والسلام في غزوة
 بني الحنات، مورياً بأنه يريد الشام. والثانية: تقع قرب تبوك، في
 بلاد بني الحارث بن كعب، وقدمر بها النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً
 في طريقه إلى تبوك، وبني فيها مسجداً، والمسجد يقع في طرف

البراء من ذنب كواكب أو كوكب : جبل هنالك .

الشعر يصف البراء :

وفي وصف مدينة البراء ، موضع البحث يقول فؤاد الخطيب :
وشهدتُ فيه مدينةً منحوتةً
في الصخرِ نحتَ مُشيدِ التمثالِ
موصولةٌ حُجراتُها بِفِئامِها
نقراً على عمَدٍ ظنُّ ، طِوالِ
وكانَ ساطِعَ نقشِها وطلائِها
لَهَبٌ توهجَ ، لا يريقُ صِقالِ
والقصرُ نحو القصرِ ينظرُ شامخاً
نظرَ المدتهِ ، مؤذناً بزيالِ
بلدٌ كانَ يداً داحتُهُ ، فخرَ مِنُ
قللِ الجبالِ مُمزقَ الأوصالِ
فَهَنَّا الصخورُ على الصخورِ تحطمتِ
وهناك منه حقيقةٌ كخيالِ

ومن قول « فؤاد الخطيب » عن نفسه : (شهدتُ فيه مدينةً منحوتةً الخ)
نصَّهَمَ أنه زار البراء وتجوَّل فيها ، وتأمَّلها بعين الشاعر العالم النفاذة ،
وبعد ذلك كله نظم درته الفريدة فيها نظماً شاعراً مُشاهداً متأثراً بما
شاهد .

ملاحظة لغوية :

تبدت لي ملاحظة جانبية حول ما يتعلق بأصل اسم « البراء » وهذه

الصيغة بالذات ، فإنا إذا رجعنا إلى مادة «بَتَرَ» في اللغة العربية فإنا نجد من معانيها «القطع» ومنه السيف البائر أي القاطع .. (إنَّ شَأْنَيْكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) أي هو المنقطع عنه الْعُقْبُ أو الخير .. والبَراءُ المدينة البطية هي مقطوعة القصور والدور والخوانيت من جبالها الصم . أفلا يصحُّ إذن أن يكون اسم «البَراء» عربياً ، ومن هذه الصيغة العربية الصميمة ؟

موقع البَراء :

تقع مدينة البَراء على مسافة ٢٧١ كيلومتر ، من العاصمة الأردنية : «عمّان» ، وتحتبني في تجويف منخرقة واطنة شديدة الانحدار ، بوادي موسى بالجانب الأيمن من الطريق الصحراوي الذي يسير بجانب هذا الوادي صوب مَعّان والعقبة .. ومدخلها هو «مسيل وادي موسى» الشديد الضيق والانحدار ، والمملوء بالصخور والأترية والفجوات والحجارة والتعاريج ، والمعروفُ باسم «السَيْق» . وفي مدخل وادي موسى الذي تقع مدينة البَراء في أواسطه وأواخره ، رأينا الحدائق الْعُقْبُ ، من عِنَبٍ وتين ، يسقيها ماء سلسيل يهبط عليهما من تبع من جبل هو أقرب إلى الطريق الصحراوي بالنسبة إلى داخلية الوادي ، وإلى مدينة البَراء . ويروى أن هذا النبع الفياض ذا الماء النмир هو الذي كسان موسى عليه السلام فَجَرَهُ اثني عشرة عيناً ، حينما ضرب بعضاه الحجر هنا . ولا أستبعد ذلك فالموقع يدل عليه . كما أن الضريح المنسوب إلى موسى عليه الصلاة والسلام لا يبعد كثيراً عن هذا المكان ، وهو على ربوة عالية بجانب الطريق الصحراوي الممتد بالإسفلت اليوم إلى مدينتي مَعّان والعقبة . كما أن ضريح أخيه ووزيره «هارون» يقال بوجوده أيضاً قرب هذا المكان .

النثر يصف جمال البتراء :

ونعود إلى وصف فؤاد الخطيب في شعره للبتراء ، فنخاله من أوائل من قاموا بهذا الوصف الرائع ، شعراً ، لمدينة البتراء . وكما أسهم « الشعر العربي الحديث » في وصف محاسن البتراء ، فمثّل صنيعه صنّيع النثر العربي الحديث ، فجاء في مقال لكاتب معاصر قوله : (تعتبر البتراء تحفة نادرة من الجمال والروعة ، وتتشابك فيها الألوان الحمراء والصفراء والسوداء والبيضاء فتختلط وتماوج ، كأنها البحر الذي كان يغطيها من عصر التاريخ الأول) .

وهذا الوصف النثري في قطعة نثرية هو أشبه بمقطوعة شعرية رائعة ، وهو مطابق تماماً لما شاهدناه من تماوج الألوان في مدينة الألباط الوردية وبالأخص في القصر المعروف « بالخزنة » الذي لا يزال بارقاً كما كان .

وقفه أمام الخزنة :

والواقع أننا كُنّا أمام « الخزنة » هذه ، مشدوهين بعظمة فن النحت العربي القديم ، وبجمال قوام المبنى ، وبرشاقته ، وتماوج الألوان الطبّيعيّة فيه ، بما يفوق الوصف ويفوت على الاستيعاب . ومع أن « الخزنة » في ألوانها المتشابكة هي طبّيعيّة فلكنّها قطعة فنية استعمل فيها الفنان عشرات الألوان الممتزج بعضها ببعض . ويتجسد كل هذا الجمال الفني في « الخزنة » حينما تشرق ذكاءً على وجهها الوردية المشرق . فتستحيل حمرتها الوردية إلى حمرة خد الحسناء الجميل في الصبح المتفتح الجميل .

ومع أن الجبل الذي نحتت فيه « الخزنة » ليس قوياً صلداً ، فقد تمكّنت من النجاة والبقاء إلى هذا اليوم ، وربما يعود بعض ذلك إلى

حسن اختيار موقعها الذي تَزَاوَرُ عنه الشمس طرفي النهار ، وتحميد عنه العواصف . وقد بنوا أمام الخزانة دكة عالية وواسعة ، وربما كانت مجلس سَراةِ القوم في الأسفار وطرفي النهار . ولهذا الدكة فوائد جزيلة تتمثل في حماية «الخزانة» نفسها من جوارف السيول في هذا المسيل الهدار . وقيل لنا : إن تحت هذه الدكة خزان ماء كبيراً قد يكون امتلاؤه من مياه المطر المارة «بالسيق» كل عام ، وهكذا تكون الدكة مزدوجة الفوائد . مما يدل على براعة فائقة وعقل راجح في فن العمارة لدى الأقباط .

مرفص البتراء :

وبعد «الخزانة» شاهدنا المبني المعد للرقص ، وهو دكة واسعة ، وبها بعض الجدران التي بنيت بالحنادل . وقد اخترقت بعضها شجرة «البُطْم»^١ . والبطم : شجرة ضخمة الساق ، منحنية إلى الأمام . وأوراقها غير كبيرة ، وتحمل إلى الاخضرار : وقيل لنا : إن لها من العمر الآن نحو ١٨٠٠ عام .

لمحات من تاريخ البتراء :

ويقول لنا متتبعو تاريخ البتراء أو مبلغ : إن أول من سكن البتراء هم «الحوريون» سكنة الكهوف ، وذلك للملاءمة طبيعة المنطقة لهم . ثم

١ ورد تعريف شجرة البطم هذه في الموسوعة في علوم الطبيعة : لادوار غائب ، فقال عنها ان مهد هذا الشجر الهند وبعض مناطق الشرق الأوسط ، شجرته فرعان ، تعلو من مترين إلى ستة أمتار ، أوراقها كبيرة دائمة الخ ، ص ١٥٢ ، م ١٠٤ ، طبعة بيروت . ولشجرة البطم ذكر في تاج الدروس شرح القاموس ، مادة بطم .

حل الأنباط العرب مكانهم ، وشادوا من جبال المنطقة المتدانية المتقابلة . هذه المدينة الضخمة حول هذا الشق أو «السيق» كما يطلق عليه الآن . ولا أدري هل هم شقوه أو وجدوه مشقوقاً بطبيعته وقد شادوا مدينتهم هذه في موقع حصين لا يصل إليه الغزاة إلا بعد جهد جهيد . وقد تمكن الأنباط من مد رواق ملكهم إلى شرق وغرب وإلى جنوب وشمال وضربوا النقود الذهبية والفضية وأقاموا دولة ذات كيان مستقل لها كل مقومات الدولة المنظمة . وكذلك بنوا المراكب البحرية واستقبلوا القوافل البرية التجارية المحملة بمختلف السلع من مختلف أقاصي البلدان وكان لهم خطهم الذي به يتكاثرون . ومن خطهم اشتق عرب الجاهلية الأخيرة في مكة المكرمة هذا الخط العربي الذي نكتب به إلى اليوم . ومما دلنا على عروبتهم أسماء ملوكهم ، فمنها الحارث الأول ، ومالك الثالث ، الذي كان يعاصر الإمبراطور الروماني الطاغية «نرون» محرق روما . ومنها أيضاً رثبال ، «والرثبال» في اللغة العربية من أسماء الأسد . وبعد تأخر أوضاعهم دخل مدينتهم غيرهم من استهواهم بجبالها ، وحصانة موقعها ، وربما بقيت فيها بقايا من الأنباط اندمجوا فيها بعد هولاء الداخلين ثم ذابوا كما يذوب الملح في الماء ..

وأول من غزا البتراء واستخلصها من الأنباط ، الرومان ، وتلاهم غيرهم من الأمم . وللرومان آثار ضخمة في البتراء مما يدلنا على نجاحهم في إقامة كيان لهم بها وطول مكوثهم فيها . وحينما ظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي ، كانت البتراء معمورة ومأهولة . وتقلبت بالبتراء حوادث الزمن ، فنُسيت ، لأن موقعها المخفي وراء أسوار الجبال النائية عن العمران سهّل لها ذلك الاختفاء في عصور الاضطراب . وحينما قدم غزاة الصليبيين رأوا في البتراء موقعاً حصيناً «ممكنينهم» من صد هجمات المسلمين . ورأوا فيها خط دفاع يتحكم في الطريق الصحراوي الممتد بين عمان والعقبة . فالتخذوها مقراً لهم ، وأقاموا بها حصناً لم

نشاهدته لاشتغالنا بتتبع آثار الانباط والرومان طيلة النهار . فالبتراء مدينة واسعة ولا بد لزائرها من جولات فيها تستغرق معظم وقته ، ولا يمكنه مع ذلك ، الوقوف على كل آثار الانباط والرومان بها ، لتفاصيلها عن بعض ، ولعدم تمكن استعمال السيارات فيها بينها لوعورة السبيل في داخلها ، ولأن أغلبها واقع على قِمَمِ الخبال أو في سفوحها الدانية من هذه القمم . وفي الصعود اليها مشقة شاقّة ، خاصة إذا لاحظنا العناء والجهد اللذين يلاقيهما زائر البتراء من طول « المسير » الموصل اليها ، وصعوبة اجتيازه . وقد سمى الصليبيون قلعتهم باسم « سيل » وهذا الاسم - على ما نرى - مأخوذ من اسم « سلع » العربي للبلد . وقد شوهته الالكنة الإفريقية فكسرت السين وأتبعتها بياء ، وربما كانت مجرد علامة حركة الكسرة فقط ، وحذفوا العين في آخر الاسم لعدم وجودها في لغاتهم ، فصار اسم القلعة « سيل » . وهذه القلعة ، كما نرى ، هي التي وصف من أجلها ياقوت الحموي في معجمه ، البتراء كلها بأنها حصن . ولم يعلم أن الحصن المقام في عهد الصليبيين إنما أقيم على مدينة عربية موغلة في القدم ، وموغلة في الروعة والقضامة ، وهي « سلع » وهي « البتراء » . ولم يعن ياقوت نفسه بالوصول إلى هذه المدينة أو لم يتمكن ، فاكتمت معلومات سطحية عنها . وبحسبه فخرأ أنه ذكرها باسمها العربي ، وذكر الحصن الصليبي باسمه العربي الفصيح : « سلع » مما يدلنا على أن عرب ذلك الزمان كانوا يعرفون هذا الحصن الصليبي بهذا الاسم ، كما يدلنا على غياب المدينة النبطية عن أذهانهم لإيغالها في الإهمال والنسيان ، وإغراقها في النأي عن مواقع السكان .

عودة الحياة إلى البتراء :

ومدينة البتراء يراد لها اليوم عودة الحياة كتحفة عربية وأثرية عالمية باهرة ، وهي تستحق ذلك . وقد رُممت بعض قصورها ، وحُولت

بعضها إلى استراحات جميلة جمعت بين روعة القديم وجمال الحديث ،
 كالمقصف الحديث الذي تناولنا فيه الشاي والمرطبات ، وشاهدنا في جنباته
 وعلى كراسيه ، مختلف السائحين ، يستمتعون بطيب هواء البراء ويرتاحون
 فيه من عناء التجوال ، سيراً على الأقدام أو ركوباً على الخيل ، بين
 قصورها ونحاتها المثيرة للاستطلاع والوقوف والتأمل .

في مقصف البراء :

وهناك في المقصف الأردني الحديث المشار إليه ، استمتعنا بأحاديث
 فنيّ بدويّ نسلق أمامنا واجهة الخزنة الخطيرة العالية نحفة متزايدة وبدون
 مبالاة كما يتسلق « الليمور » المدغشقرّي عالياً الأشجار نحفة وطيران .
 وقد أمتعنا هذا الفنيّ بأحاديثه العذبة ، عن آثار البراء فهو بها خبير ،
 وربما أخطأ في تاريخ بعضها فراجعه عالم الآثار الأردنية محمود العابديّ
 الذي ساعدنا بمرافقته في رحلتنا ، ويشرح لنا الحقيقة كما هي ، أو كما
 يراها هو ، مستمدة من علمه الغزير .

متحف البراء :

وخلال مكثنا بالمقصف البديع لفت نظري منظر بناء منحوت ،
 فقصدته منفرداً ، وقد صعدتُ إلى المبنى العالي من سلم حجريّ
 متآكل رُمّمَ بعضه حديثاً ، وبقي بعضه على حاله . وهذا السلم مع
 تداعيه ونآكله ، هو من النوع العالي . وهو متعرج كذلك . وحينما
 بلغتُ المنزل ، وجدته ذا غرف واسعة منظمة ، وضع في بعضها
 الآثار المكتشفة بالبراء من تماثيل ونقوش وأوانٍ فخّارية وغيرها .

وبعض هذه التماثيل روماني الأصل . وقد لحق بي في المكان ثاني رواد رحلتنا عز الدين التل ، ثم تركته يتجول وحده هناك .

ما هو السيق ؟

« السيق » كما مر بنا هو الطريق الوحيد إلى مدينة البتراء ، ليس لها منفذ أو مدخل فيما عُلِمْتُ سواه . وربما كان من أسباب اختيار الأنباط ومن قبلهم ومن بعدهم للإقامة في البتراء تحكّم هذا « السيق » أو هذا الشق ، أو هذا المدخل الوحيد ، في المدينة فلا يستطيع غازي أن يقتحمها بحال من الأحوال ما دام « السيق » في يد أهلها ، وما داموا يتحكمون في مدخلها الوحيد . إنها إذن مدينة محصنة تحصيناً طبيعياً محكماً بمعنى الكلمة . « السيق » شق ضيق شديد التعرج والانحدار كثير الحجارة والحروف . وهو يخترق الجبال المحيطة به حتى يكاد المرء يتصور أو يتخيل أنه شق اصطناعي بسبب تقارب الجبال من حوالبه تقارباً شديداً جداً مع علوها عنه علواً شديداً ، ومسارها له في تعاريفه الوفيرة المثيرة . ويبلغ ارتفاع هذه الجبال عن هذا الشق من ٢٠٠ متر إلى ٣٠٠ متر . والجبال كلها يغلب عليها لون الورد الأحمر الداكن ، ولكنها لا تصل في الألوان إلى مستوى ألوان (الخزنة) الأنف ذكرها . وقد تذكرتُ - وأنا أجتاز هذا السيق وأشهد ألوان جباله الداكنة - تذكرتُ سميّ هذه الجبال - سلعاً - في المدينة المنورة ، لمشابهتهما لبعض في اللون تقريباً .

وقد أدركتُ من آثار تأمل أطراف السيق أن السيق هذا كان مبلطاً بالحجارة ، ولكن مرور القرون أتلف البلاط . وطول مسافة السيق كيلان . ويرى « لانكستر هاردنج » خبير آثار الأردن في كتابه : « آثار الأردن » الذي ترجمه الأستاذ سليمان موسى وزميله ،

أن السيق محرف عن صيغة الشق .
وأنا أرى رأيه ، نظراً لتقارب مخارج حروف الصيغتين ، وسهولة
التحريف في مثلهما طيلة الأجيال .

من آثار البتراء :

وقد شاهدنا على جانبي سفوح جبال السّيق محاريب صغيرة ربما
كانت نماذج لمعابد الأنباط . كما شاهدنا قنّوات مائة محفورة في سفوح
الجبال : لتروي سكان المدينة التاريخية : وشاهدنا كذلك معبد (جوبيتر)
ومحكمة رومانية عالية .

والبتراء مقسمة إلى مدينتين : مدينة الأنباط وهي التي تلي الطريق
الصحراوي ، ومدينة الرومان ، وهي التي تقع بعدها إلى الداخل ، من
ناحية المصرف المائي . لقد أراد الرومان أن تكون مدينتهم البتراوية
ذات كيان مستقل متميز ، نوعاً ما .

وفي البتراء فندق مكيف بالهواء يربض فوق متن التل المشرف على
مدخل « السيق » ، وهو استراحة أثرية قديمة حديثة معاً ، من النحات
النبطية التي كشفت عنها الحكومة الأردنية وأعادتها كما كانت . وكنا
نرى في البهو نحائت ربما كانت مقابر لأصحاب هذا المنزل أو هذا
القصر ، ولكنها نظمت على نسق فني بديع جعلها من مفاخر البتراء العمرانية .

لبنانُ وُسُورِيَّة
مِلا مِجُ وَأَشَار

جولة « في ربوع لبنان وسورية»

طالما سمعت عن السرعة والراحة اللتين يلاقيهما راكب الطائرة النفاثة الحديثة المعروفة بالبوينغ ، ولذلك أزمعت امتطاعها في رحلتي إلى الخارج في هذه المرة .

وفي الصباح المبكر أذن لنا بأن ندخل «سُدْرَج» الطائرات في جدة . فقد أقبلت «حافلة» ووقفت أمام باب الدخول ، وأقلتنا إلى حيث تجتمع «البوينغ» بعيدة عن الطائرات العادية ، ودخلناها قَوْجاً إثر فوج ، وجلسنا على مقاعدها الوثيرة الضخمة . وأزيع السلم ، ثم أغلق الباب علينا ، ومن ثم بدأت آلاتها تزأر زفيراً خفيفاً أول الأمر ، فشديداً ، ثم دَلَقَتْ على أرض المطار ، كما تَدَلِف القِطَاة .. وبعد هنيهة توقفت فجأة واشتد هدير آلاتها ثم أرفلت قليلاً ، وشاهدنا حَبْرُومها وهو يرتفع في قوة وتصميم إلى فوق ، فعلمنا أننا زابلنا أمنا الأرض ، ودخلنا طبقات الجو الأجنبية عنا . و«تماسكت» فإذا بي بعد لحظة قصيرة أراني ومن معي ، وقد عكّونا على مدينة «جدة» علواً شاهقاً ، وانجھت

(*) هذه الجولة كانت في سنة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م .

الطائرة بنا صوب الشمال ودخلنا بين زرقتين : زرقه البحر الهادئ تحتنا ، وزرقه السماء فوقنا ، واشتد ارتفاع الطائرة إلى أعلى ، دلنا على ذلك علوً مقدمتها عن مؤخرتها حتى لكأنها تريد أن تنفخ على ذيلها .. وقد تحسستُ مشاعري عندها .. فوجدتها كما هي على سطح الأرض قبيل بضع دقائق تماماً .. تقديرًا وتفكيرًا .

وحين نهضتُ الطائرة إلى الجو سمعنا « مذيعةها » الجهير الصوت ، وكان ألتغ - سمعناه وهو يُحَيِّننا ويقول لنا : « إننا الآن على متن الطائرة السعودية الثالثة « البوينغ » وإنما سترتفع بنا عن الأرض ٣٣ ألف قدم ، وستصل إلى بيروت في ظرف ساعة وخمسة وخمسين دقيقة » .

وكان حديثه هذا بالنسبة لي يحمل وجهين مزدوجين : وجهاً من بشارة ، ووجهاً من قلقٍ .. فأما وجهُ البشارة فبتمثل في أننا سنصل بيروت في هذه المدة الوجيزة من الزمن ، وإن كانت الدقيقة الواحدة في نظر راكب الطائرة ، الذي هو أنا بالذات ، تزن ساعات طويلة مملّة .. يُلْتَزَمُ المرء فيها أن يظل حبيس مقعده الوثير ، مغلقاً عليه باب هذه الغرفة الكبيرة الجبارة التي تسبح في جو لا تمت إليه الإنسان بصلة بالنسبة لحياته المألوفة على سطح الأرض طيلة حياته ..

وأما وجه القلق فكان مبعثه قوله : إننا سترتفع عن الأرض (٣٣) ألف قدم .. لقد حسبتُ المسافة بيننا وبين الأرض التي أُلْقنا الحياة على ظهرها فإذا هو بون شاسع وهوة عميقة .. ولطُفُ اللهُ أعظمُ من كل شيء ، ولا بد من الاستسلام للقدر .. على كل حال .. في مثل هذه المواقف .

ولقد لطف اللهُ . فظلت « البوينغ » سابعة في « القضاء الداخلي » هادئة هادئة مترنة .. ولم يحدث فيها اضطراب ، ولا شعرتنا بمطبات ولا بارتجاج ولا هزات .. ولقد سعدت فوق منطقة السحب ، فسلمت من

شر احتكاكها بها وشر اهتزازاتها وشر تقلبات جوها .. وحينما استوت على جودي الجو الشاهق لاحظنا تساوي مقدمتها وذيلها .. وحينئذ اعتدلت وأصبحت شبه ساكنة .. ولولا ضجيج أدواتها الحبارة ، ومرورنا السريع بمختلف المناظر النائية عنا جداً ، وتغيّر موقعها أو موقعنا بالنسبة لهذه المناظر لقلنا تجاوزاً : إن طائرنا منطاد ساكن في الهواء غير متحرك وغير سائر .. فاذا قدر لأحدنا أن يطل على ما تحتنا فهو حينئذ يلمس السرعة الفائقة والبون الشاسع والهوة العميقة التي تفصل بيننا وبين أمنا الحبيبة : « الأرض » .

وأعتقد أننا تجاوزنا منطقة تحليق الشواهين والصقور والنور وسائر الطيور .. فنحن الآن ، كما يترامى لي وقتئذ .. قريبا أو غير بعيدين جداً من منطقة الفضاء الخارجي .

وبعد ساعة وثلاثة أرباع الساعة على سيرنا من جدة رأينا طائرنا تنكس برأسها إلى أسفل .. ماذا حدث ؟ وبادرتنا مديحُ أنبائها بصوته المجلجل الأثني بقوله : (إننا الآن على مشارف عمان - عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية - وإن علينا أن نشد الأحزمة) .. وحينئذ كنت لا تسمع إلا طقطقة هذه الأحزمة ، تُشدّ من حول خصور الراكبين في حماسة بالغة وفرحة غامرة .. وبدأنا نشاهد مناظر الأشياء على سطح الأرض مصغرة وضئيلة .. المزارع الخضراء كرقع الشطرنج ، والبيوت تشبه عُلب الكبريت ، والطرق المدفنة تمثل منظرها منظر النجيل المتفتتة الملقاة على سطح الأرض في غير احتفال والناس كالنمّال الكبيرة . ثم أمنت الطائرة في عملية الهبوط واشتد هبوط مقدمها ، وداخلها شيء خفيف من الارتجاج ، وأمسك بعضنا بأطراف المقاعد ، وما هي إلا هنيهة حتى اتصلت عجلاتها بأرض المطار .. مطار عمان ، وزاقت عندئذ على مدرّجها كما يزوف الطائر الضخم اغباط من مستوى عال بذيله الكبير ، ثم هدأت آلتها عن العجيج ، ووقفت عجلاتها عن الدوران .. وقيل

لنا : « اهبطوا بسلام إلى عمان » ، فهبطنا ، وحمدنا الله على عودتنا إلى الأمّ الحنون بسلامة ، وشكرناه على سلامة المرحلة الأولى من رحلتنا الجوية إلى لبنان .

في مطار عمان

ومطار عمان مطار رائع .. مبني بالحجر الأبيض الرخو .. الذي يوجد بكثرة في منطقته الشمال . وقد تجولنا ما أمكنتنا الفرصة المهيأة لنا .. ثم قيل لنا أن نعود إلى جوف سمكتنا الفضية الكبيرة الطائرة ، لنستأنف الحُصّة الثانية والأخيرة من الرحلة نحو الهدف المنشود الذي هو بيروت .. فدخلنا الطائرة جميعاً في شبه سباق إلى المقاعد ، فقد أنزلت بعض محمولها من الناس في عمّان .. وأغلق بابها علينا بعد ما أزيح السُّلم الأرضي من جانبها .. وعجّت محركاتها من جديد صاحبة رزينة .. وما هي إلا هنيهة وإذا بها تعلق مرة أخرى في الجوبسرة وبهظام واطمئنان . وعلونا فوق شواهد جبال الأردن ، الدكن الجرد .. ونحن متجهون صوب الشمال .. إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، وقد بدا لنا مقدّم الطائرة في ارتفاع شديد .. ثم اعتدل وقتاً ليس بالمديد ، ثم بدأ ينخفض مرة أخرى على قدر ارتفاعه .. وبعد نصف ساعة من إقلاعها من مطار عمّان ارتفع للمرة الثالثة والأخيرة صوت المذيع الخهبر الألتغ يقول لنا : (إننا الآن على مشارف بيروت ، وإن علينا أن نشد الأحرمة) .. وما استكمل حديثه أو بيانه العذب المحبب إلى النفوس حتى رأينا مناظر لبنان الخميطة تمر من تحتنا مر السحاب .. ورأينا غاباتها الصنوبرية الزاهية بجانبنا ، وداراتها المنسقة ، وطرقها المعبدة الملثوية ، ثم أطلت الطائرة أظّةً شديدة .. فنألنا من ذلك بعض القلق ، وكان ذلك منها في

حقيقة أمره إيلاناً بإمعانها في عملية الهبوط السريعة ، وإشعاراً غير مباشر بقربها من أرض المطار ، ثم شاهداها تملو مطار بيروت الدولي ، فإذا بيروت حاضرة البحر قريبةً منا جداً ، وإذا هي تبدو لنا في ثيابها الزاهية وعماراتها الرائعة .. ثم هبطت الطائرة بالمطار .. مطار بيروت الدولي في رفق وسلام ونظام وأمان ..

ولقد حمدنا الله مرة أخرى على سلامة رحلة الذهاب وسألناه التوفيق والأمان في رحلة الإياب .

في بيروت

ومن مطار بيروت دخلتُ في جوف سيارة أجرة .. إلى فندق «عمر الخيام» .. وسيارات أجرة بيروت ذوات ألواح حُمْرٍ مستطيلة .. أمّا السيارات المملوكة للأفراد والمستعملة لركوبهم الخاص .. فهي ذات ألواح سود من نفس النوع .. والرقم المتسلسل يشمل جميع سيارات لبنان .. ولذلك لا غرو أن تركب سيارة أجرة رقمها مثلاً (٩٩٠٠٠) .. وترى سيارة مخصوصية بجانبها ورقمها مثلاً (٩٨٩٩٩) .

وحيثما زرت البحرين منذ ثماني سنوات رأيت ألواح سيارات أجزتها ذات لون أصفر .. ولها رقم خاص ، وكذلك الشأن في ألواح سيارات أجرة المملكة السعودية ؛ وليكُلِّ ، أرقام خاصة ..

وذهبتُ بي سيارة الأجرة اللبنانية إلى الفندق مسرعة خفيفة . وقدّم لي السائق تعريفية الركوب الرسمية ، وهي التعريفية التي يجب أن يتقيد بها كل سائقي سيارات الأجرة في لبنان ، ولا يستطيع أحدهم أن يخالفها مطلقاً . ولعل الحكومة اللبنانية فرضت عليهم تقديمها في هذا الموقف للركاب ، لئلا يحدث منهم أي تلاعب في استيفاء أجرة تزيد عن الأجرة المقررة رسمياً .

ومكثت بالفندق بضعة أيام ، واتصلت في الهاتف بالصديق الشيخ
هاشم دفردار المدني . وبعد اجتماع سعيد به استعدنا ذكريات الرحلة
الماضية ، التي سافرنا فيها معاً إلى الشام .. ونزلنا بفندق أمية الخالي من
الضيوف ، ونظمتنا به أحياناً حفرة الروح والوزن أذكر منها قولنا :

فندقنا نخال من الضيفان ولم يكن به سوى الشيخان

وقد تجولنا في بيروت .. في دواخلها وضواحيها ، تارة بالأقدام
وتارات بالسيارات ..

وبيروت مدينة قديمة متجددة .. ترى في شوارعها الداخلية العمارات
الاثرية القائمة منذ مئات السنين .. وإلى جانبها المنشآت الضخمة الحديثة .
وترى في داخلها الشوارع المرصفة بالحجارة الملص السود المربعة على
غرار رصيف شارع سويقة العتيق في المدينة المنورة ، وفي ضواحيها
عمارات كبيرة جداً من أحدث طرز العمارات .. حتى لكأنها فواضح
السحاب ، خاصة في ضاحية « الروشة » . وأهل بيروت خاصة ، وأهل
لبنان عامة ، نشيطون في الأعمال المالية والاقتصادية ، ويعرفون كيف
يحصلون على التقدي ، وكيف يفيدون من السياحة والسائحين ، ومن غير
السياحة والسائحين ، لمصلحة بلادهم المتجددة النشطة المتعشة إلى كل درهم
ودينار . وهم قد حازوا قصب السبق ، في هذا الميدان ، على العرب ،
ووقفوا بين المتعارضات ، والمتناقضات ، بلباقتهم وحسن كياستهم
الاقتصادية .. فصارت لبنان منتجاً ، ومستهجماً ، ومستهجماً للعرب
على اختلاف نزعاتهم وميولهم ومذاهبهم السياسية .. واللبنانيون أهل رحلات
واغتراب في سبيل ابتناء المجد وامتلاك الثراء .. تماماً كما كان أسلافهم
الفينيقيون العرب .

وقد رأينا أن لا نضيع الوقت في بيروت وحدها .. فبيروت علاوة
على أنها في الصيف حارة الطقس ، ومكتظة بالسكان والمصانع ، فهي

ليست أجمل ما في لبنان .. لقد رأيتها بعين المتأمل فإذا هي « مُجَرَّد سفوح جبل » متجهٍ ومُتد إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، من سفوح جبال لبنان المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط ؛ أو من سفوح مجموعة من جبال لبنان رأى الضيفيون أن يفيدوا منه فاتخذوا منه هذه المدينة الخالدة التي لها مزية الجمع بين مواطن الانسان الثلاثة : « الجبل والسهل والبحر » .. في آن واحد ..

وقد استأجرنا سيارة وذهبت بنا إلى الجبال .. إلى عاليه ، وإلى بحدون ، وإلى كيفون ، وإلى سوق الغرب ، وإلى بكفيا وإلى صوفر وغيرها . واجتمعت في كيفون بالصديق اللواء علي جميل . وفي عاليه بالشيوخ محمد نصيف .

وأمتعنا أبصارنا بمنظر الجبال الطَّبَعِيّ الأخاذ المتمثل في غابات أشجار الصنوبر ، وألوان أشجار الفواكه من تفاح وغيره .

الماء والكهرباء والأشجار .. هذه الفوازم الثلاث الحيوية المهمة في المختر والمنظر تجدها في كل مكان ، من لبنان ، وأكاد أضيف إليها رابعاً : الطعام الشهويّ اللذيذ الرفيع الثمن ، وخاصة لوزين منه : السمك الطري .. واللحم المشوي . إن مطاعم لبنان تجيد جداً طهي هذين الطعامين اللذيذين . وفي بكفيا .. وهي القرية الحبلية التي كان أحمد شوقي الشاعر المعروف يأوي إليها للاصطياف فيها ، شَعَرْتُ بشيء من البرد ذات أصيل .. وكان معي الصديق هاشم دفرदार .. أما هو فقد تَقَلَّم^١ فلم يشعر بهذا الشيء الذي يسري في أوصال جسمي متسللاً اليه من الجو الناعم ، اللطيف ، وإنما كان يتصبب عرقاً خفيفاً .

في متحف بيروت :

وعرضت لي فكرة زيارة متحف بيروت .. فذهبت اليه في ذات

١ أي صار متكيفاً بطابع الإقليم .

ضحوة ، وأخذتُ ورقة الدخول بدرهمات معدودة ، ودخلت المتحف ، وهو في دورين اثنين فقط ، وقد بُنيَ بالحجر الجيري الأبيض الذي يكثر وجوده في هذه النواحي الشامية ابتداءً من مدائن صالح ومنطقة تباء ، وإلى الأردن ، وإلى بيروت .

وقد تأملت محتويات المتحف .. من ألفها إلى يائها . فوجدتُ فيه آثاراً للفينيقيين وآثاراً للرومان ، وآثاراً لفرعون مصر ، وآثاراً لمدينة آثنية ، وغير ذلك . والشيء الوحيد الذي أعينني العثور عليه في المتحف هو آثار العرب والمسلمين .. لقد نخلتُ المتحفُ في جميع أرجائه وزواياه من أي أثر من آثار الحضارة الإسلامية العربية الخالدة .. فهل هذا شيء متعمد؟ أو هو وليد المصادفة ؟ ولكأن هذه البلاد لم تَمَرَّ عليها أية فترة كان للعرب فيها ظل ظليل من مدنيّة زاهرة وارفة ، لا يمثلها الآن سوى بقايا مساجدها الأثرية ومبانيها العتيقة .

فكرة للتنفيذ :

وقد استعرضتُ مع أحد أهل بيروت فكرةَ غرس أشجار الصنوبر المنتشرة في كل مكان هنا ، في السهل والجبل ، وعلى الصخور والرمال والسباح وتحادثنا في كيفية نموها وإثمارها .. فحدثني بأن غابة أشجار الصنوبر التي هي في طريق مطار بيروت ، فيما بينه وبين البلد ، هي من غراس محمد علي باشا والي مصر وجدّ ولأنها الخديويين . وقال لي : إنها كانت غابة كثيفة . ولما قررت الحكومة اللبنانية إيصال طريق الإسفلت ، بشقيه إلى المطار اضطرت عندها إلى قلع كثير من أشجار هذه الغابة الملتفة ، وسفلتة محلها . وهكذا مرّ بينها الطريق مستقيماً .. ولهذا ترى جانباً كبيراً منها في الجانب الأيمن ، وجانباً آخر مماثلاً في الجانب الأيسر من الطريق . وأضاف إلى ذلك أن أشجار الصنوبر ثقيل

بطبيعتها الغرس في كل مكان .. في سهل وفي جبل وفي سبخة وفي رمل . وقال : إنها تعيش مئات السنين ، وتُسَمِّرُ « الصنوبر » المعروف ولا تحتاج إذا كبرت إلى سقي ، لأنها تشرب من جذورها .. أما إذا كانت صغاراً فلا بد من سقيها حتى تتأهل للكبر .. وهي تصلح في الجو الحار الرطب ، كجو بيروت مثلاً ، وفي الجو البارد الخاف كجوجبال لبنان .. وأراني غرسات غضة منه ، زُرِعَتْ على حافتي ضريق المطار حديثاً ..

وعندها تذكرتُ جُدة ، وحاجتها إلى غابات تحف بها من بعيد لتلطف من جوها الحار ، وتمتص بعض رطوبتها . وتزين منظرها الأجرد وتفيد المواطنين من ثمارها .. ولأن هذه الحِصَال كلها مجتمعة في شجر الصنوبر فما علي إذا كتبت هنا مقترحاً غرس الصنوبر بمدينة جدة وما عائلها من مدن المملكة خاصة وأنه لا يحتاج إلى ماء كثير ولا عناية بالغة ، وأوراقه لا تتساقط مطلقاً .. إنها مناسكة ومتلاصقة ببعض دواماً ، وتشكل منظر « المظلات » الخضراء المرتفعة في الآفاق ، من على قامات جذوعها المديدة حتى لا تكاد أشعة الشمس تنفذ من تحتها أو من خلالها إلى الأرض التي تظللها بظلالها الوارفة الناعمة .

وقلت في نفسي أيضاً : لعل استجابةً تحدث من الجهات المختصة للاقتراح .. وأملني وطيد في أن نعمل على جلب أغراس شجر الصنوبر المثمر الظليل ، بدلاً من هذه الأشجار العقيمة ، « اشجار النيم » لتظلل بها ، ولتفيد منها في ثمارها ، والاقتباس المفيد للصالح العام هو أساس الحضارة ونبراس التقدم في كل بلاد العالم قديماً وحديثاً ...

النشاط الأدبي :

وعجبتُ للبنان ، وعجبتُ منه .. فهو على شدة انهماك أهله في

الماديات وغرقهم فيها إلى آذانهم ، لم يُطَلِّقُوا الأدب ولم يعانفوا
 ورود مناهله العذبة . إنَّ نشاطهم في هذا الجانب مشوب وحاسي بالغ .
 إنَّ إذاعة لبنان فيها أركان أدبية مصفاة عامرة ولذَّةٌ ورتيبة ككلِّ يوم ..
 وصحافة لبنان لا بدَّ أن تحمل أعدادها فكرة أو أفكاراً أدبية للقارئ
 العربي ، وتصدر في لبنان الآن المجلات الأدبية الخالصة ، وفي
 طليعتها مجلة الأديب ناصحياً أليبر أديب .. وكثير من الكتب الأدبية
 واللغوية والعربية تُطَبِّعُ اليوم بيروت .. وذلك كله يدل على ذوق أدبي
 عميق ورفيع .

بل إنَّ بيروت تسعى جاهدة لتصبح « مطبعة الشرق العربي الحديث »
 وإنَّ لدى لبنان الإمكانيات التي تهبُّها لهذه الفرصة السانحة .

وفي بيروت رغب إليّ ابراهيم خوري ، كاتب « ركن الأدب » في
 مجلة الجمهور الحديد الأسبوعية في أن أدليّ إليه بمحدث عن أدب المملكة
 وأدبائها .. ففعلتُ ذلك بمحضر من الير أديب .. وواعد هذا بأن ينقل
 الحديث برمته إلى مجلته بعد نشره بالجمهور الحديد ..

إذاعتنا :

ومُنَاسِب أن أذكر هنا أن إذاعتنا السعودية لم أتمكن من الاستماع
 إلى صوتها الحبيب في بيروت برغم التحريات الدقيقة التي قمتُ بها عدة
 أيام^١ .. وهذا بخلاف الإذاعات العربية الأخرى فهي مسموعة في
 بيروت ، ما قرب منها وما كان أبعد كإذاعة الكويت مثلاً .

١ كان ذلك سنة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م أما الآن فإن صوتها مسموع في بيروت بوضوح .

وعجبت من لبنان في ناحية أخرى غير ناحية الأدب . وهذه الناحية هي الناحية السياسية الخاصة والعامة .. فلإن وزارة خارجيته قد أُطلقَ عليها اسمُ : « وزارة الخارجية والمغتربين » .. ومعنى هذا أن اللبنانيين الذين اضطرتهم المقادير وظروفُ المعيشة إلى الاعتراب في الأمريكين ، وفي إفريقية وغيرها من بلدان العالم لائزول عنهم صفةُ اللبنانية ولاجنسيتها مهما يتطلُّ أمد غيابهم ، ومهما يكتسبوا من جنسيات أخرى .. إن لهم حق العودة والمواطنة وحقوقها كاملةً بمجرد عودتهم إلى لبنان ، واستقرارهم في ربوعها . لأنهم محسوبون على كل حال جزءاً لا يتجزأ من لبنان ..

ويُخَيَّلُ إليّ ، أن هذه الظاهرة تكشف عن سعة الأفق السياسي والوطني والاجتماعي اللبناني . فحبذا لو أُرسيت هذه النظرية القانونية لدينا وعمل على ضوئها لحفظ كيان وحقوق المواطنين الممائلين لأولئك المغتربين عندنا ، وللإفادة من إمكاناتهم بصفة مستديمة . ومن هذا القبيل ما نلمسه - مُقَدَّرِينَ - من أن الحكومة العربية السعودية قد قررت إعادة السعوديين « المتقطعين » في بلاد الغربية إلى بلادهم على نفقتها ، هم وذراتهم وأسرهم مهما يتناسلوا ويتكاثروا ما داموا محافظين على جنسيتهم السعودية .

ماء بيروت :

ولقد لاحظتُ أن ماء بيروت ليس خفيفاً كل الخفة ، ولا عذباً تام العذوبة .. إنه لا يخاف من بعض ملوحة ، ولم أطلع على مصدر ذلك وأسبابه ، ولكنه أمر ملموس ، وهذا بعكس الماء في جبال لبنان ، فهو مثله في سورية وفي المدينة ومكة وجدة . إنه عذب خفيف .

ولقد أفر نظرية ثقَلِ ماء بيروت ونقصِ عدوئته ، بعضُ البيروتين
والمُتَبِيرين .

إلى سورية

لا بد في هذه الرحلة أيضاً من زوَّرة لسورية ، ومن شربة ماء من
نهر بردى .. وصلاة في الجامع الأموي ، وجولة في أسواق دمشق ،
ورؤية « المعرض دمشق الدولي » - هكذا صرخ بي الضمير .. فقررت
فوراً تلبية نداءه المصمم .

وبرغم التحذيرات التي وُجِّهتَ إلينا في لبنان حيال زورتنا لسورية
فإن العزم المصمم لم يُصغِر مطلقاً إلى صوت هذه التحذيرات .. المرسل
من أصدقاء وغير أصدقاء ..

وهكذا انطينا سيارتنا الصغيرة : هاشم دفتردار وأنا ، بعد ظهر
يوم الاثنين واتجهنا صوب دمشق . واستقبلتنا عمليات التفتيش الجمركي
المعقدة في حدود لبنان وسورية معاً برغم شعار الوحدة العربية المرفرف
فوقنا عند حدود سورية ، ودخلنا دمشق قبيل العشاء فأذا بها متألثة الأضواء
كاملة الزينة والبهجة .. وزاد أضواءها اشراقاً ما نصب على المعرض
بجوانبه من المصابيح الضخمة المتوهجة .

ونزلنا في فندق « سمير » ، وهو فندق حديث البناء بطل على ساحة
المرجحة وعلى المعرض من بعيد وعلى شارع جمال باشا المعروف . وبعد
أن وضعنا حقائبنا في غرفتنا بالطبقة الخامسة من الفندق هبطنا بالمصعد
إلى المعرض ، وتجوّلنا في شوارع دمشق ، نارة على أقدامنا ، وتارة

على سيارة ، ثم تناولنا عشاء عريباً لذيذاً ، في مطعم فخم قريب من الفندق الذي نزلنا به ، وقد عُلِّقَتْ على جدرانه آيات قرآنية ، وكلمات حِكْمِيَّةٌ ، باللغة العربية الفصحى ، وبالخط العربي الجميل ، وهذا بعكس ما كنا نشاهده في مطاعم بيروت المماثلة من نقوش الصُّور والتأثيل الغربية في المطاعم الفخمة ، وفي غيرها .

ثم ذهبنا إلى المعرض .

واشترينا ما أردنا شراءه من حاجيات ، ولم نُقَابِلْ بِسؤال من أيِّ كان .. مع أن جوازاتنا كانت في جيوب معاطفنا ، من باب الاحتياط للسين والجم المرتقبين بين كل لحظة وأخرى ...

ثم قَفَلْنَا راجعين إلى بيروت ، آمنين مطمئنين ، من نفس الطريق الذي سلكناه إلى دمشق ، حامدين الله جل وعلا على نجاح الرحلة الشامية وسلامتها من الأكار .

وحيثما تمت العودة إلى لبنان كانت لنا فرصة طيبة لمزيد من التنقلات والتزهات ، استجماماً . ففي كل أمسية كنا نووم أية جهة نريد إما بالسيارة أو على الأقدام ..

الفَهْرِسُ

فهرست الاعلام

١٠٣	ابراهيم رفعت		
٩٤	ابن أبي البداح	١٦٨	آل باناجه
٧١	ابن الأثير	١٦٨	آل الحمجوم
٢٨٠	ابن أبي حجلة	٢٩٨	آل خليفة
١٦٢، ١١	ابن بشر	٢٣٤	آل الرشيد
١٠	ابن بطوطة	٢٣٦	آل رمان
٧٨	ابن بكير	١٦٩	آل الزاهد
١٠	ابن بليهد	٤٩	آل الزبير
١٦٩، ١٠	ابن جبير	٢٣٦	آل سلامة
٢٨٣، ٢٧٣	ابن الجوزي	٢٦	آل العاص
٢٧٧	ابن حبيب	٤٩	آل مروان
٢٧٧، ٢٧٥، ٥٠	ابن خلدون	٤٢٦٦، ٢١، ١٩	ابراهيم (النبي)
١٥٤	ابن رشيد	٤٢٧٢، ٢٦٩، ٢٦٨	
٥١	ابن زبالة	٤٢٧٧، ٢٧٥، ٢٧٣	
٧٨	ابن الزبير	٢٨٨، ٢٨٧، ٢٨٣	
١١٢	ابن السكيت	١٧٥، ١٧٤	ابراهيم بن معمر
١٠	ابن سيده	٣٣٢	ابراهيم خوري

٥٩	احمد بن عبد العزيز	١٠٤	ابن شيخه
٦١	احمد بن محمد الوضاح	٢٨٣-٢٧٣	ابن كثير
١٥٩	احمد سليمان داود	٦٧٠٢٠	ابن عباس
١٠	احمد رضا	٦٧	ابن عبيد
٢٦	احمد شطا	١١	ابن غنام
٣٣٠	احمد شوقي	١٧١٠١٧٠	ابن المجاور
٩٩	احمد الطيار	٩٨	ابن مسلم
١٧٣	احمد فخري	٩٩٠٩٨	ابن مضيان
١٠٧٠٦٨	أحيحة بن الخلاح	٥٠	ابن النديم
٢٧١	ادريس (النبي)	٢٧٦٠١١٨٠٧٤٠٧١	ابن هشام
٣١٧	ادوار غالب	٤٩	ابو الأعور السلمي
٢٢٥٠٢٢٤٠١٩٩	أديب صقر	٧١	أبو نائلة
٢٠٥	إرم	٢٧٨	أبو زيد
٣٨٣	اسحق (النبي)	١٣٩	أبو سليمان علي بن طالت
٢٥٥	أسعد	٢٨٧	أبو العلاء المعري
١٩٩	أسعد خليل	٣٨٠٢٠	أبو الوليد الأزرق
٢١١٠١٩٩	أسعد شيره	٢٧٢	الأجرد
٢٩٦٠١٩١	الاسكندر	٦٩	إحسان النص
٤١	الاسكندري	٤٣	أحمد (الرسول)
٥٧	الاسكاني	٢٥٥	أحمد (الشمودي)
٢١٠١٩	إساعيل (النبي)	١٣٣	أحمد بن أيوب الأهوازي
٢٤٧٠٢٤٣٠١٠	الاصطخري	١٤٠٠١٣٨٠١٣٦	
٢٩٦	أفروديت	١٣٥	أحمد بن طيفور
٣٣٢	ألبر أديب	١٣٧	أحمد بن عباس بن أحمد
٢٤٠٠٤١	الألوسي	١٤٢٠١٣٨	

٥٠	بغا	٢٧١	المياس (النبي)
٢٨٣، ٢٧٣، ٢٦٨	البغوي	٢٣٣، ٢٢٦، ١٤٣	امرو القيس
٣٠٠	بكر بن وائل	٤٢	أمامة
٨٣	بلال المزني	٢٥٥	أمية
١٧٧	بنو إسرائيل	١١	امين مدني
٥٠	بنو الأصفر	١٠٦، ٦٨، ٤١	الأنصار
٩٧، ٨٤، ٣٦	بنو أمية	٣١١، ٣١٠	أهل الكهف
٥٠	بنو باهلة	٢٥٥، ٢٥٤، ١٠٧	الأوس
٣١٣	بنو الحارث	٣٩، ٣٨	إياد
٢٩٤	بنو خالد	٢٥٥	إياس
٩٦	بنو سعيد	٢٦٩	أيوب النبي (
٦٢، ٥٨، ٥٦، ٤٩، ٤٧، ٤٥	بنو سليم	٣٠٤	أيوب
٤٩	بنو عامر	١٨٠	أيوب صبري
١٥٤-٥٢، ٥٠، ٣٠	بنو العباس		ب
٥٧، ٥٦			
٥٧	بنو عثمان	٩٩	بادي
٢٨٠	بنو عطية	٢٥٥	بارح
٢٠٥	بنو غرة	٩٧	البتنوني
٤١	بنو قبيلة	٢٧٧	بئر
٧٥، ٧٢، ٧٠	بنو النضير	٢٧٢	بختنصر
٤٩، ٤٨، ٣٦	بنو هاشم	٩٩	بداي
٢٧٨	بول	٣٥	بركهارد
		٢٤٧، ١٦٩	البشاري
		٢٣٠، ٢٠٥، ١٦٩	بطرس البستاني
		٢٣١	
٣٠٥، ٧٧	تبع	٢٩، ٢٠، ١٨	بظلميوس

ت

٢٤٥٠ ٢٣ ١٠	جورجي زيدان	٤٩	تماضر
٢٨٣٠ ٢٦٢		٢٨٧٠ ٢٧٣	التوراة
١٥٤	جويسر	٥١	نويشيل
٢٧٩	جهينة	ث.	
١٧٣	جيبس	١٧٦٠ ١٧٥	ثمود (الشموديون)
١٤٧٠ ١٤٦	جيمس ويلارد	٢٤٠٠ ٢٣١٠ ٢٢٦	
	ح	٢٤٤٨-٢٤٥٠ ٢٤٢	
		٢٥٧-٢٥٤٠ ٢٥٢	
٣١٨	الحارث الأول	٢٦٦٠ ٢٦٣-٢٦١	
٢٣٢	الحارث بن حلزة		ح
٤٦	الحاف		
٢٩٣٠ ١٦٣٠ ١١	حافظ وهبة	٢٧٨٠ ٣٩٠ ٣٨	جابر بن عبد الله
٢٩٩		٤٩	الححاش
٢٠١٠ ١٩٩	حبيب محمود أحمد	٢٧٦	جذام
٢٣٦٠ ٢٠٧		٢٣٤	جذع الفسافي
١٩٠٠ ٩٩٠ ٤٦	حرب (قبيلة)	٢٥٥	جدهدد (صنم)
٢٥٥	حزم	٢٥٤	جديس
١٨٧	حزيمة	٢٨٤	جرهم
٢٧١٠ ٢٣٨٠ ٦٩	حسان بن ثابت	١٠٤	جعفر البرزنجي
٩٩	حسن قلعي	٢٥٥	جلال
٢٣٥٠ ٥٧	حسين بن علي (الملك)	١٨٣	جمعة (جمعات)
١٩٩	حسين كاتب	٢٤٨-٢٤٦٠ ١٠	جواد علي
٢١٥٠ ١٩٩	حمد الدوسري	٢٦٧٠ ٢٥٣٠ ٢٥٢	
١٧٨	حمد العيبيدي	٢٧٧٠ ٢٧٦٠ ٢٦٨	
٩٩٠ ٩٨	حمزة خليل	٢٨٥-٢٨٣	

	ذ	٣٠٦٠٦٤	حمير
١٧	ذبيان	٢٣١	حنا
٣٠٦٠٢٧١٠١٩١٠١٨٧	ذوالقرنين	١٧٠	حنظة
٢٧١	ذوالكفل (النبي)	١٧١٠١٧٠٠١٦٩	حواء
٢٧٢	ذو مهلم	٣١٧	الحوريون
٢٥٧٠٢٥٦	ذعير	٢٥٧٠٢٥٦	حيفل
	ر		خ
٣١٨	الربال	٢٩٦	خالد بن الوليد
١٩٠	ربيعه	١٠٢	خالد باشا
٢٥٤	الربيعه	٤٩	خزاعة
١٦٢	ربيعه بن مانع	٢٥٤	الخزرج
١٤٩٠١١٢	الرحله	١٢٥	الخضر
١٩٣٠٢٨٠١٠	رشادي ملخص	٤٩٠٤١٠٣٩	الخنساء
٢٥٥٠١٨٢	رضا	٤٤	الخوارج
٣١٠٠٢٣١	رفيق	٢٧٢	خولان
١٠	رفيق وفا اللدجاني	١٣٥٠٥٦	خير الدين الزركلي
٢٣٥	رمان بن حطيم	٢٧٤٠٢٧٣٠٢٧٠	
٢٥٨	رمضان		
	ز		د
٢٥	زيدة	٢٥٦	داير
٤٩٠٢٩٠٢٨	الزبير	٢٥٤	داحس
٢٧٦	زيد بن حارثة	٣٠٨	دقيانوس
٩٢	زيد بن عاصم	٢٤٥	دوتي

٢٧٦، ٢٤٧، ١٠٥، ٩٤، ٩٠	السمهودي	١٤١	زيد بن عبد الله المختصم
٢٣٣	السموأل		س
١٨١	سنوك هرجرونه	١٨٢	ساكت بن يشعن
٢٧٧	السهيبي	٢٣١، ٢٠٥	سالم
٢٧١	سيويه	١٧٤	سبا
٢٩٤	السيوطي	٢٧٤، ٢٤٨	سرجون الثاني
	ش	٢٣٤	السعادات
٥١	شكيب الأموي	٢٥٥	سعد
	ص	٤٤، ٤٢، ٤١	سعيد الأفغاني
٢٤٤، ٢٤١، ١٧٠	صالح (النبي)	٢٨٣	سعيد بن جبير
٢٧١، ٢٦٥، ٢٤٨		١٢١	سعيد بن حمد العجماني
٢٨٨، ٢٧٤، ٢٧٣		٩٥، ٤٣، ٣٦، ٢٦	سعيد بن العاص
١٧٠	صالح الخامد	٩٧	
٦٣	صالح شبكشي	١١٣	سعيد بن عمر
٢٩	صالح قزاز	١٢٥	سعيد العجمي
٢٩٨، ٢٩٤	صباح الأول	٢٣٤	سلم
٣٩	صعتر	١٥٥ (الأمير)	سلمان بن عبد العزيز
٢٣٤	الصلبة	٤٨	سلمان الفارسي
١٠	الصفويون	٢٣٤	سليح
٣٠٣	صلاح الدين بن أيوب	٥٨، ٤٩، ٤٧، ١٨	سلم بن منصور
٢٩٧	صلاح عبد القادر البكري	١٣٢	سلم حسن
٢٥٥	صلم	٧٦	سليمان السعدي
٢٣١	صموئيل	٣٠٩، ٢٦١، ١٠	سليمان موسى
٢٥٥	صهيب	٣٢١	

عبد الرحمن الطيب الأنصاري ١٢٩	٢٧٧	الصبيعمري
٢٨٤، ١٥٧، ١٣١		
عبد الرحمن اليوسف ١٥٩		ض
١٦١، ١٥٩		
عبد شمس ٤٢	٢٣٤	الضجاعة
عبد العزيز آل سعود (الملاك) ٢٣	٢٣٤	ضجعم بن سعد
١٥٤، ٣٣-١٥٦	٢٧٩	الضفير
٢٣٥، ٢٣٨، ٣٠٠		
عبد العزيز ٧٨		ط
عبد العزيز الإمام ٩٩	٢٣١	طايح
عبد العزيز بن ابراهيم ٢٤	٢٨٣، ٢٧٣، ٢٧٠، ٢٦٩	الطبري
عبد العزيز شليل ١٩٩	٢٣١	طريف
عبد العزيز خان ١٠٢	٢٥٤	طسم
عبيد القليان ٢٠٨	٢٣٠	طي
عبد الكريم بن رمان ٢٣٥، ٢٢٧	١٣٦، ١٣٤	طيفور بن باز الحراساني
٢٣٦		
عبد النظيف الطلق ٢٣٩، ٢٣٦		ع
عبد الله بن سعد المرتضى ١١٤	٢٤٢-٢٤٠، ٢٠٥	عاد (عاديون)
عبد الله بن سعود الإمام ١٥٩-	٢٥٩، ٢٥٣، ٢٤٧	
١٦١	٣٠٥، ٢٦٦، ٢٦١	
عبد الله بن عمر ١٠٢	١٦٨	عارف بك
عبد الله بن ضيعة المصري ٢٨٧	٣٠٨	عبادة بن الصامت
عبد الله الخابر الصباح ٣٠٠، ٢٩٩	١٠٤	العباسي
عبد الله الخفري ٩١، ٩٠	٤٩	العباس بن مرداس
عبد الله السلیمان ٣٣	١٧	عبس
عبد الله الشنيفي ٣٣٦، ٢٢٨	٢١١	عبد الرحمن الحمدان

٣٢١، ٣٠٤	عز الدين انتل	١٦٨	عبد الله نصيف
٢٥٥	عزير	٦٢	عبد المجيد شبكشي
١٨٦،	عسير (القبيلة والأرض)	١١٩	عبد المحسن الكاظمي
٣٠٢، ٢٤٧، ١٩٥-١٨٨		٣١١	عبد الملك بن مروان
٢٥٥	عفير	٢٧٨، ٢٧٥	عبد الوهاب النجار
٢٧٩، ٢٠٣	العقدة (العقيدات)	٢٨٧، ٢٨٣، ٢٨٢	
٢٥٥، ٧٥-٧٣	علي	٢٧٩	العبيد
١٤٩	علي بالكثير	٢٤٢	عبيد بن شربة الجرهامي
٤٦	علي بن الخفاف	١٣٥	عبيد الله بن أحمد بن طيفور
٥٦، ٥٤، ٥٢، ٥١	علي بن عيسى	٢٨١	عبيد مدني
٥٩		٢٠٥	عبيد
٢٠٣	علي بن مهود	٤٩	عتبة بن فرقد
٣٣٠	علي جميل	٢٥٥	عثر سم
١٤٢	علي منصور	٦٩، ٣٥، ٣٠، ٢٩	عثمان
١٠٢	عمر لزميري	٩٩	عثمان أبا حسين
٨٤، ٨٣، ٤٩، ٢٧	عمر بن الخطاب	٩٨	عثمان بن بشر
٢٠٦، ١٦٩، ١٣٨، ١٠٣		٢٦	عثمان رقيقي رستم
٣٩	عمرو بن الشريد	٢٨٠، ٢٧٩	العجمان
٩١، ٩٠	عمر بن عبد الله بن عروة	٢٤٩	العجلاني
٧٨	عمر بن عبد الله	٢٣٧، ٢٠١، ١٩٩	عدنان حبيب
٤٢	عمر بن كلثوم	٩٣	عدي
٣٢٨	عمر الحيايط	٢٧٩	عرام
٢٣٠، ١٧٢، ١٦٣	عمر الدير اوي	٩٧، ٩٤، ٩٣، ٩١	عروة بن الزبير
٢٣٣		٢٠٢	
٢٩٧، ٢٥٠، ٢٤٧	عمر رضا كحالة	٢٧٦، ١١٤-١١٢	عزة

٣٢٦، ٣١٤، ٣١٣	فؤاد الخطيب	١٩٣-١٩١، ١١	عمر رفيع
٣٠٦، ٢٩٧	فارس (القرس)	١٨٠	عمر السقاف
٢٩٠، ٢٨	فاطمة	١٨١، ١٦٨	عمر نصيف
١٨٨	الفتيحا	٩٣	عمر بن تميم
٤٦	فران بن علي	٤١	العناني
٢٢٨، ١٦٨	فروج يسر	٢٩٨، ٢٧٩، ٢٠٦، ١٨٧	عنزة
١٤٧	الفرجاني	٣٠٠	
١٧١	الفرس	٢٠٥	عوص
٤١	فريد وجدي	٢٧٧	عيسى (النبي)
٤٣	الفرقان	٢٧٥	عيسو
١٣٣	الفضيل بن ابراهيم	٢٧٥	عينماء
-١٧٤، ١٧٣، ٢٧٢، ١٦٣	فلبسي	٢٧٥	عيقين
٢٣٠، ٢٢٧، ٢١١، ١٧٧			
٢٣٩، ٢٣٥، ٢٣٣			
٢٦٠	فلندر بيري	٩٨	غالب
٢٣٧، ٢٣٦، ٢٢٩	فهد الطلق	٢٥٤	الغبراء
		٣١٣	غزوة بني لحيان
		٤٨	غزوة الخندق
		٢٣٤	غسان
١٤٠-١٣٨	القاسم بن محمد بن عيسى	٤٨، ٤٧، ١٧	غطفان
٥٤	القاهر العباسي	٢٣٥	غورماني
٢٠٥	قانية		
٢٨٦، ٢٧٧	القبط		
٢٧١	قحطان	١٩١، ١٨٩، ١٨٧، ١٠	فؤاد حمزة
٢٤٨، ٢٤٤، ٢٤٠، ١٠	القرآن	٢٤٥، ٢٣٤، ٢٠٥، ١٩٣	
٢٧٢، ٢٦٩، ٢٦٤		٢٤٧	

٢٣١	كميل	٥٠	القرامطة
		٩٩	قرناس بن عبد الرحمن
	ل	٣٠٦، ٧٨، ٤٨، ٤٠، ٣٩	قريش
٢٥٥	اللات	٤٠-٣٨، ٣٧	قس بن ساعدة
٢٦١، ٢٦٠، ١٠	لانكستر هاردنج	٢٣٤ ٤٦	قضاة
٣٠٨، ٢٦٤، ٢٦٢		٢٧٥	قنطورا
٣٢١، ٣٠٩		٢٩٨	قيس
٢٧٩، ٢٤٨	لحيان (الليحيانيون)	٢٥٥	قيس بن وائل
٢٨٨، ٢٨٤			
٢٧٥، ٢٧٤، ٢٦٥	لوط (النبي)	ك	
٢٨٨، ٢٧٧			
٣٢٠	الليمور	٢٣٧	كارل برنت
		٢٣٠	كارل بروكلمان
		٢٣١	كاملة
	م	٢٥٥	كاهل
٣٠٦	مأجرج	٢٧٢	الكبار
٥٦	المأمون العباسي	١١٤، ١١٣، ١١٢	كثير بن العباس
٩٣	مازن	٣٠٧، ٢٧٦	
٢٥٥	مالك	٢٥٥	كعب
٣١٨	مالك (الثالث)	٧١، ٣٦، ٢٦	كعب بن الأشرف
٦٣، ٦٢، ٥٢	مبارك السلمي	٧٥، ٧٣	
٢٩٩، ٢٩٨	مبارك الصباح	١٧	كعب بن كلاب
٤٩	مجامع السلمي	٢٧٤، ١٧٦	كلاس
١٠	المجمع اللغوي	٢٣٤	كلب
٢٧٧	المحضر بن جندل	٢٤٦	كمكم بنت وائلة

١٧٩	محمد صالح باعشن	محمد (صلى الله عليه وسلم) ٢١
١٠٢	محمد صالح حجاد	١١٣، ٨٣، ٦١، ٤٩
١٧٩	محمد العروسي	٢٤٢، ١٣٣، ١١٤
٢٧٥	محمد عزت دروزة	٣٠٥، ٢٦٥
٣٣١، ١٦٣	محمد علي	٢٠١، ١٩٩
١٨١، ١٧١، ١٦٩	محمد نصيف	٢١٧
٣٣٠، ١٨١		١٨٠ محمد اسماويل
٢٤٧	محمد النمنكاني	١٧٩ محمد باشراحييل
٣٢٠، ٣٠٩	محمود العابدي	١٦٠ محمد بن سعود (الأمير)
١٨٠	محمود عارف	٧٨ محمد بن عبد الله البكري
٤٤	المختار بن عوف	محمد بن عبد الله الحسيني المدني
٢٨٤-٢٧٢، ٢٦٩-٢٦٥	مدين	(كبريت) ٢٨٢، ٢٨١، ٢٨٠
٢٨٩-٢٨٦		محمد بن عبد الوهاب ١٦٠، ١٦٣
٢٦٨، ٢٤٠، ١٠٥	المراغي	١٨٤
٢٠٦	مرحب	٢٩٤ محمد بن عريعر
١٢٦	مرزوق السحيمي	٥٩ محمد بن مرتضى
٤٩	مروان	٥٦ محمد بن موسى حفيد المأمون
٢٧٩، ١١٢	مزينة (قبيلة)	٣٠٧ محمد بن موسى المنجم
١٢٧	مسعود قاضي	٢٧ محمد الحافظ
٢٧٧، ٦٩	المسعودي	٤١ محمد حسين هيكل
٢٥٧، ٢٥٦	مسيل	٢٣٩ محمد الخلف
٢٥٧، ٢٥٦	مصلر	٤٣ محمد زهير الشاويش
٢٠٣، ٩٣، ٩٠	مصطفى (ص)	٣٣ محمد سرور الصبان
٢٤٣	مصطفى الباسي الحلبي	١٧٦ محمد السنوسي
٢٤٨	مصطفى مراد الدباغ	٢٨٢، ٢٨١ محمد صادق

١١٣	موسى	٥٩	مصعب بن جعفر
٢٨٣	موسى	٣٩	مضر
٢٥٧:٢٥٦	موها	٤٧	مضر بن نزار
٢٠٥	مهلايل	١٠٥	المطري
٢٧٠	ميكائيل	٤٥	مطير
		٢٤٢:٢٣٤:٩٧:٨٣:٣٩	معاوية
	ن	١٧٣	معتوق باحجري
		٤٩	معن السلمى
٤٧	نابغة بني ذبيان	٢٧٦:٢٧٤:١٨	المعينيون
٤٣:٤٢	النابغة الجعدي	٥٩:٥٦:٥٤:٥١	المقتدر العباسي
٢٣١	ناتان	٢٧٢	المقدم بن حضور
٢١٨:١٩٩	ناجي حامد	٢٥٧:٢٥٦	ملزم
٢٣١:١٤٢	ناصر	٢٥٥	ملك
٢٤٥	النبط (الأنباط ، النبطيون)	١٦٢	مانع بن ربيعة
٣١٢:٢٦٣-٢٦٦:٢٦١		٢٥٥	مناة
٣٢١:٣١٩:٣١٨:٣١٧		٤٣	المنذر بن محرق
٣٢٢		٢٥٨:١١٢:٣٥:٢٦	المنهل « مجلة »
٢٣٧:٢٣٠	نيونايديس	١٦٠	مشير العجلاني
٢٢	نزبه العظم	٢٥٧:٢٥٦	موجب
٢٧٢	النسيبي	٢٥٧:٢٥٦	موجر
١٨٣:١٨٢	نسيب وهيبه الخازن	٢٥٧:٢٥٦	مورد
٢٣١		٢٤٥	موزيل
٢٤٠:٦٨	نشوان الحميري	٢٧٣:٢٦٨:٢٦٧	موسى (النبي)
٢٥٥	نمرجد	٢٨٣-٢٧٨:٢٧٦	
٣٨:٤٣	انعمان	٣٠٥:٢٨٧-٢٨٥	
		٣١٥	

٢٨	هوازن	١٩٩	نعمة الله
٢٥٦	هوير	٢٣١	نمر
:٢٦٥:٢٤١:١٧٠	هود (النبي)	٢٥٥	نسي
:٢٧٣:٢٧١:٢٦٦		:٢٦٦:٢٦٥:٢٠٥	نوح (النبي)
٢٨٨		٢٨٧	
٢٥٦	هويل	٣١٨	نيرون
١٤٦:١٨:١٠	هرودوتس		
٥٠	هيم السلمي		
		٢٠,١٩	هاجر
	و	٣٣٠,٣٢٩	هاشم دقردار
		١٩٠	هاشم النعمي
٣٠٨:٥٠	الرائق	٥٤	هارولد بوين
٢٥٥	ود	١٦٩:١٣٥:١٣٤	هارون الرشيد
٢٤٧	ولد علي	٣١٥	هارون (النبي)
٢٦٠	ولكم	٦٣	هشام شبكشي
٢٥٢	وهب بن وفد	٢٤٧	هثيم
		٣١٢:٢٨٤:١٩٠	هذيل (قبيلة)
	ي	٢٩٧	هرمز
٣٠٦	ياجوج	٣٠٥:٢٧٦:٢٧٤	هكسوس
:١١٥:٧٦:١٠	ياقوت الحموي	٢٥٥	هلال
:٢٥٢:٢٥١:٣٣٠:١١٦		-١٨٧:١١٦:٤٧:١٠	الهمداني
:٣١٣:٣٠٨:٣٠٧:٢٧٨		:٢٥٤:١٩٣:١٩١:١٨٩	
٣١٩		:٢٧٦:٢٧٤-٢٧٠:٢٦٨	
٢٠٥	يُرب	٣٠٦:٢٨٥:٢٨٤:٢٧٨	
٢٨٧:٢٧٠	يُرون	٤١:٣٩	هند بنت عتبة

٢٧٨-٢٧٦، ٢٧٥	يوسفوس	٩٣	يحيى بن عروة بن الزبير
٣٠٦	يونان	٣٠٧	يزيد بن عبد الملك
٢٠٨، ٢٠٦، ٧٢، ٧٠	يهود	٥٠	يزيد السلمي
٢٣٠، ٢٠٩		٢٥٥	يعلى
٢٧١	يونس (النبي)	٣٠٥، ١١٤	يوسف

فهرست الاماكن

٦٩	أطم بني ساعدة		
٦٩، ٦٨، ٣٦، ٢٦	أطم الضحيان	٣٣١	آثينة
١٠٧		٢٩٩	الآستانه
٢٨٠	أعين القصب	٣٠٩	آسية
٥٠	أفريقية	١٩١، ١٨٩، ١٨٨، ١٨٧	أبها
٢١	اكتيسيا	٣٠٦، ١٩٥	
٢٨٤	أمج	١٨٨	أنانة
١٧٥	أم اللدة	٢٤٣	الأمالك
٢٣٧	أمريكا	٢٤٨	أجا
٤٨، ٤٧	أم صبار	٢٠٩، ١٢٧، ٢٤	أحد (جبل)
٣٠٨، ٢٩٤	الأندلس	٣٠٥	الأخدود
١٧٩	اندونيسيا	٣٠١، ٢٦١، ٢٦٠، ٤٩	الأردن
٢٤٢	الأهرام	٣٠٩، ٣٠٨، ٣٠٥، ٣٠٣	
١٨٨	الايدياع	٣٣١، ٣٢٧، ٣٢١، ٣١١	
١٧٩	أيران	١٨	أريتريا
٢٨١، ٢٦٨	الأبكة	٦٩	الأشعر (أطم)

٤٥	البرزة		ب	
٢٨	بركة الزبير			
٢٩٠٢٨	بركة ماجل	٢٩٧		الباطن
٤٦	البريرة	٢٨		بئر أريس
٢٩٦	بريطانيا	٢٤٤		بئر نمود
١٧٨٠٢٩	البريكة	٣٣		بئر جبير بن مطعم
٢٩٩٠٤٩	البصرة	٢٥		بئر رومة
٢٨٤	بطن غران	٦٨		بئر شميلة
٢٥٤	بعث	٩٧٠٨٢٠٢٧		بئر عروة
٠١٣٥٠٥٤٠٥١٠٥٠٠١٢	بغداد	٧٨		بئر علي
٢٩٩٠٢٧٩		٢٣٠٠٢٢٩٠٢٢٧		بئر هذاج
١٧١	البغدادية	١٨٨		بالأحمر
٠٢٦٤-٢٦٢:٢٤٥	بطرا (البترام)	١٨٨		بالأسمر
٠٣١٩٠٣١٦-٣١٢		١٠٤		الباب الشامي
٣٢٢٠٣٢١		١٦٩		باب شريف
٢١٠٢٠	بكة	٧٧		باب العنبرية
٣٣٠	بكفيا	٣٠٦		بابل
١٨٩	بلاد بالأحمر	٣٣٠٠٣٢٧		البحر الأبيض المتوسط
١٨٨	بلاد بني ربيعة	٢٦١		البحر الميت
١٨٨	بلاد بني شعبة	-٢٩٧٠٢٩٥٠٥٦٠٥٠		البحرين
١٨٩	بلاد بني شهران	٣٢٨٠٢٩٩		
١٨٨	بلاد قحطان	٣٣٠		بمحمدون
٢٦	البياضية	١١٥٠٥٠٠٤١٠٣٩		بدر
٢٤٥	بيت الشيخ	٢٤٦٠٢٤٥		البرج
٥٩٠٥٢٠٥١٠٥٠٠٢٠	البيت العتيق			

١٠٤	ثنية عنث	٣١٣	بيت المقدس
		٢٤٧:٢٤٢:٢٧٢:١٦٩	بيروت
	ج	٢٨٤:٢٧٧:٢٧٥:٢٥٠	
١٧٩:٥٠:٢٩	البحار	٣٢٨:٣٢٧:٣٢٥:٣١٧	
١٩٣:١٧٦:٢٥	جازان	٣٣٦-٣٣٤:٣٣٢	
٣٣٥	الجامع الأموي		
٢٩٩	جامع الحميس	ت	
٦٢	جيلة	٢٣٠:٢١٦:١٧٥:٢٨	تبوك
٢٧٢	جبل حدة	٢٧٨:٢٧٦:٢٤٥:٢٣٤	
١٠٤	جبل سليع	٣١٣:٢٨٤	
١٠٤:١٠٣	جبل سلع	١٢٧:٢٦	الترعة
٢٢٧	جبل السمائل	١٧٥:١٧٤	تعز
١٠٢	جبل عار	٢٦٠	تل الدوير
٨٠	جبل عبر	٢٩٦	تل سعد
٣٠٩	جبل القلعة	١٩١:١٨٩:١٨٨	تمنية (جبل)
١١١:١٠٥:٢٥	الجبل المتوهج	١٩١:١٨٨:١٨٧:١٩	تهامة
١٢٣:٤٦:٢٨-٢٦:٢٥	جدة	٣٠٦:٢٧٩	
-١٧٠:١٦٩:١٦٧:١٦٥		١٧٨:١٧٢:٢٧:٢٥	تيام
-١٧٩:١٧٧:١٧٥:١٧٢		٢١٥:٢١١:٢٠٠:١٩٩	
٢٥٧:٢٤٨:٢٤٤:١٨١		٢٢٢:٢٢١:٢١٩:٢١٧	
٣٣٢:٣٢٦:٣٢٤:٢٥٨		٣٣٨:٣٣٦:٢٢٦-٢٢٥	
٣٣٥		٣٣٩	
١٨٨	جرشة		
٨٢:٦٧	الحرف	ث	
٢٨٣	جزيرة سيناء	٢٣٠	الثعلبية

٢٧	الحجر الأسود	جزيرة العرب ١٧-١٩	٢٣٣٠٢٢٠١٩
٢٥	الحجرة النبوية		١١٥٠٥٢٠٤٧٠٤٢٠٤٠
١٦٢	حجر البياضة		٢٠٦٠١٨٩٠١٨٧٠١٧٣
١٨٨	الحدبة		٢٤٨٠٢٤٦٠٢٤٥٠٢٢٦
٢٠٩	حرنا المدينة		٢٩٥-٢٩٣٠٢٥٤٠٢٥٠
٤٨٠٤٧	حرة بني سليم		٣٠٦٠٣٠٥٠٢٩٩٠٢٩٧
١٧٦	حرة خريذة	١٠٧	الحصنة
٧٢	حرة زهرة	٢٦	الحعفرية
٩٨	حرة قباء	٨٢٠٨٠	جماء أم خالد
٥٠٠٤٨٠٤٧	حرة النار	٩٠٠٨٧٠٨٥٠٨٠	جماء تضارع
٧٩٠٧٨	حرة الوبرة	٩٧	جبرون
١٧١	الحرمان		
٢٧٦	حسمى		ح
٢٠٦	حصن أبي الحقيق	٢٤٥٠٢٣٤٠٢٠٥	حائل
٢١٠٠٢٠٦	حصن السلام	١٦٨٠٥٩٠٢٦	حارة الأغوات
٢٣١٠٢١١	حصن السمائل	١٧٢٠١٦٨	حارة (محلة) اليمن
٢٠٦	حصن الشق	٣٤٠٢٣٠١٩٠١٨٠١٧	الحجاز
٢٠٦	حصن القموص	١٩٥٠١١٥٠٥٢٠٥٠	
٢٠٦	حصن الكتيبة	٢٤٧٠٢٢٨٠٢٣٥٠١٩٥	
٣٦٠٢٦	حصن كعب بن الأشرف	٢٨٣٠٢٧٧٠٢٥٤٠٢٥٢	
٧٥٠٧٤٠٧٠		٢٩٨	
٢١٠٠٢٠٩٠٢٠٨	حصن مرحب	٣٠٥	
٢٠٦	حصن ناعم	٢٤٣٠٢٤٢٠٢٤٠٠٤٦	الحجر
٢٠٦	حصن النظاة	٢٥٨٠٢٥٤٠٢٥٠٠٢٤٥	
٢٠٦	حصن الوطيع	٢٦٢	

	د	حضر موت	٢٥٣، ٢٤٧، ١٧٠
٢٥	دار آثار جدة	٢٧٨، ٢٧٥	
٦٠، ٥٩، ٥٧، ٥٦	ديار بني سليم	٧٧	حضير
١٥٦	دار الأشعة	٢٧٨	حطين
١٩١، ١٨٨	الدائرة	٢٠٠	الحفنة
١٦٣-١٦٠، ١٥٨	الدرعية	١٨٨	الحقو
١٠٣	دكة جلال	١٨٨	الحللة
٢٥٠، ٢٤٨، ٢٣٠، ٩٧	دمشق	٢٥٠	حماة
٣٣٦، ٣٣٥، ٢٨٠		١٨٨	حمرة
٢٣٤	دومة الخندل	٢٤٢	جيلر آباد دكن
	ذ	خ	
٣١٤	ذنب كوكب	١٣٥	خراسان
٨٢، ٨١، ٧٨	ذو الخليفة	٢٦٢، ٢٦١	خربة التنور
	ر	٢٧٢،	خربة شعيب (خربة مدين)
		٢٨٤، ٢٧٨	
٣٠٦، ١٨٧	رأس تبة	٣٢١، ٣١٧، ٣١٦	الخزنة
١٩٠	رابع	٢٩٦	الخليج العربي
٣٠	رباط سيدنا عثمان	٥٧، ٤٦، ٢٨	خليص
٨٢	الربحية	٧٨	الخليقة
٢٠٥	الربذة	١٩٥	خميس مشيط
١٩٠، ١٨٨	رجال ألمع	٢٧٨، ٢٧٢	الخياراة
٢٥٠، ٩٩	الرس	٢١٥-٢٠٥، ٢٠٠، ٢٨	خبير
٢٧٩	رضوى	٢٣٤، ٢٣١، ٢٢١، ٢١٧	
١٩٣	رغيدة	٢٣٥	

١٨٨	سراة الازد	١٠٧	المرقيعة (بستان بالمدينة)
٨٢	سلطانة	٣٠٧، ٣٠٤، ٢٦٧	المرقيع (جبل)
٦٧، ٢٧	سنع (جبل، ومدينة)	٣٠٨	
٣١٢، ٢٦٤-٢٦٢، ٢١١		٢١٩	روسيا
٣٢١، ٣١٩، ٣١٧، ٣١٣		٣٢٩	الروشة
٢٤٨	سلمى	١٦١، ١٥٩-١٥٣، ١٥١	الرياض
١٥٩	سلوى	١٧٧، ١٧٣، ١٧٢، ١٦٢	
٧٧	السليل	٣١٠، ٣٠٩	
٣٣٥	سمير (فندق)		
١٧٩	السودان		ز
١٩٣	السودة « قرية »	٦٧	زبالة الزج
٣٢٤، ٣٠٥، ٩	سورية	٢٨	زرب انكمة
١٩٣	سوق الاثني	٢٨٧، ٢٧٦، ٢٠٥	زرود
٣٣٠	سوق العرب	٧٨	زغابة
٤٠، ٣٩، ٣٨، ٣٧	سوق عكاظ	١٥٩، ١٦٨	زقاق الحمزاوي
٤٤، ٤٣، ٤٢، ٤١		٢٠	زمزم
٣٢٩، ١١١	سويقة		
٦٩	السيح		س
٣٢١، ٣١٩-٣١٧، ٣١٥	السيق	٣٠٥	سبأ
٣٢٢		٢٨	سد الخماء
٢٦	المسيل الكبير	٢٨	سد الخلق
٢٧٥	سيوون	٢٨	سد رانواناء
		٢٨، ٢٢	سد السملقيي
	ش	٨٨، ٨٥	سد عاصم
٣٣٥	شارع جمال	٢٢	سد مأرب

٢٠٣	الصلصل	٢٣٠، ٢٠٦، ٥٤، ٤٩، ٢٠	الشام
٢٠٤، ٢٠٣، ٢٠٢	الصلصلة	٢٧٧، ٢٧٤، ٢٤٧، ٢٣٤	
٢٠٧، ٢٠٥		٣١٣، ٣٠٥	
١٩٣	الصليف	٢٧٥	شيام
١٧٤، ٥٤	صنعاء	١٩١	الشرحة (جبل)
١٤٨، ١٤٥، ٢٨	صهاريج جدة	١٧١	الشرقية (محلة بجدة)
١٤٩		٢٦٠	الشرق الأدنى
١٧٢	صهاريج مسجد الشافعي	٢٦٠	شرق الأردن
١٧٢	صهاريج الشيخ محمد نصيف	١٨٩	شعار
٣٣٠	صوفر	٢٦٥	الشعب
٩٨	الصويبري « بستان »	٤٦	شعري
١١٢، ٢٧، ٢٦، ١١	الصويدرة	٤٦	شروزي
١٢٨، ١٢٦، ١٢١، ١١٩		٤٦	شمنصير
٢٨٠، ٢٤٨، ١٤٤، ١٣٢			
١٧٩	الصين		ص
		٢٨٤	صادر
	ض	١٧٦	صبيا
٢٦١	الضفة الغربية (للأردن)	٢٩٨	الصبية
١٩٣	ضنكان	١٤٣	المصحاء الكبرى
		١٠٢	الصخور
	ط	١١٥	صخورات التهام
٢٩، ٢٨، ٢٦، ٢٥	الطائف	٢٥٤	صعدة
١٩٢، ١٧٥		٥٠	صعيد مصر
٢٧٨	طبرية	١٠٢	الصفاصف
١٩٨	طب	٩٤، ٩٣	صلاصل

٧٧	عرصة السابيل	٢٩	الطراوية (بستان)
٢٨٤	عسفان	١٤٧	طرابلس
١٠٢٠٦٩٠٦٨	العُصْبَة	٣٠٧	طرطوس
٢٣١	عُصِف	١٦٣	الطريف
٢٦٨٠٤١	العقبة (ساحل وواد)	٢٤٨٠١٢٩	طريق القصيم
٢٨٩٠٢٨٣٠٢٨٢٠٢٨١		١٢٩	طريق المدينة
٣١٨٠٣١٥٠٣١٢		٥٧	طريق مكة
١٨٨	عقبة شعار	٣٠٨	طليطلة
١٩٢٠١٨٩	عقبة عنود	٣٠٨٠٣٠٧٠٢٧٨	طهران
١٨٨	عقبة القرون	١٨٨	طود
٢٧٨	عكا	٢٨٦	الطور
٢٤٨٠٢٤٧	العلا		
٣١٥٠٣١٢٠٣٠٩٠٣٠٧	عَمَّان		ظ
٣٢٧٠٣٢٦٠٣١٨		١٧٥٠١٧٤	ظلم
٣٠٧	عمورية	٣٣٧	الظهران
١٨٨	عنز		
٢٨	عين تبوك		ع
٢٨	عين خليص	١١٣٠١١٢	العاصد
٢٨	عين حخير	٣٣٠	عالية
٢٨٥	عين زبيدة	٧٢	العالية
٢٨	العين الزرقاء	١٨٨	عبل
٢٨	العين العزيزية بجدة	١٠٤	عثعث
٢٠٩٠١٠٨	عير (جبل)	٣٠٦٠٢٩٦٠٥٠	العراق
٢٥	العيص	١٠٢٠٩٥	العرصة
٢٨	عيون وادي فاطمة	٨٢٠٧٩٠٧٨٠٧٧	العرصتان

ق	٢٨	عيون ينبع
٢٧٩، ٢٥٤، ٢٤٩، ٥٠	القاهرة	غ
٢٨١		
١٠٧، ١٠٢، ١٠١، ٩٨	قباء	غراب
٢٤٦	قبر الباشا	غزة
١٩٣	القصحة	غصية
٢٧٩	القدسین (جبل)	غميس الحمام
٩٦، ٧٩	القرائن	غنيم (جبل)
٢٤٠	قروح (مدينة الحجر)	الغوافة
٢٩٧	القرين	ف
١٠٢	قرين صريحة	
٣٠٦	قسطنطينية	فارغ
٨٠	قصر آل طلحة	فران
٨٠	قصر ابراهيم بن هشام	فرسان
٨٠	قصر اسحق بن ايوب	فرش ملل (أملال)
١٧٥	قصر إزلام أو إسلام	١١٥
٧٩	قصر ابنة المرازقي الزهرية	٢٧٩
٩٨	قصر إمارة المدينة	٢٦٠
٢٤٦، ٢٤٥	قصر البنات	٢٨٣، ٢٦١، ٢٦٠، ٢٣٠
٢٣٣	قصر الرضيم	٣٠٥
٧٩، ٤٣، ٣٦	قصر سعيد بن العاص	٣٢٩
٩٦، ٩٥		١٧٧، ١٧٥
٧٩	قصر سكيكينة	٢٣٠
٢٣٧، ٢٣٢، ١٧٨	قصر السمؤال	٢٩٧، ٢٩٦، ٢٩

٢١	القليس	٢٦	قصر الضيافة بالعتيق
٢٦١	قمران	٨٠	قصر طاهر بن يحيى
١٧٦	قوز الجعافرة	قصر عاصم بن عمرو بن عثمان ٨٠	٨٩:٨٨، ٨٧، ٨٥، ٨١
	ك	١٠٢، ٩٢، ٩١، ٩٠	
٢٩٦	كاظمة	٧٩	قصر عبد الله بن عامر
٥٨	الكاثل (قرية)	٨٠	قصر عبد الله حفيد عثمان
٣٥	الكعبة	قصر عروة بن الزبير ٩٢، ٩٠، ٧٩	
١٥٧	كلية الآداب	٨٠، ٧٩	قصر عنبسة
١٨٠	الكنندرة (محلة)	٨٠	قصر محمد بن عيسى الجعفري
٣٠٤، ٣٠٠، ٢٦٧	الكهف	٧٩	قصر مروان بنتل
٣٠٥، ٢٨٠	كهف شعيب	٧٩	قصر مروان بن الحكم
٢١٩	كوبا	قصر يزيد بن عبد الملك بن المغيرة ٨٠	
١٨	كورس	٧٩	قصور اسحق بن أيوب
١٧٨، ٤٩	الكوفة	٧٩	قصور جعفر بن سليمان
٢٩٤، ٢٩٣، ٢٩١، ٩	الكويت	٧٩	قصور جعفر الجعفري
٢٩٨، ٢٩٧، ٢٩٦، ٢٩٥		٨٠	قصور عبد العزيز حفيد عثمان
٣٣٣، ٣٠٠، ٢٩٩		١٧٤	القصير
٣٣٠	كيفون	١٢، ٩٩، ١٢١، ١٢٦	القصيم
	ل	٢٨٢، ٢٤٨	
٣١	لار	٢٩٨	قطر
٣٢٨، ٣٢٤، ٢٦١، ٩	لبنان	١٦٢	التطيف
٣٣٥، ٣٣٤، ٣٣٠، ٣٢٩		١٨٨، ١٦٧	القلزم (البحر الأحمر)
٣٣٦		٢٨١، ٢٨٠، ٢٧٨، ٢٤٨	
١٨٨	اللمصبة	٢٨٩، ٢٨٤، ٢٨٣	

١٤٩٠٢٥	المسجد النبوي	١٤٧	ليبيا
٢٠٧٠١٦٨			
١٦٩	المشورة	٢	
١٣٤	مدينة بني سليم	٢٣٤	مأرب
١٩٢٠١٧٢٠٢٧٠٢٥	منازل صالح	٢١٠٢٠	ماكوربا
٢٤٦٠٢٤٥٠٢٤٤٠٢٣٩		٦٧	المال
٢٥٠٠٢٤٩٠٢٤٨٠٢٤٧		١٧٩	متحف آل باعشن
٢٦١٠٢٥٨٠٢٥٤٠٢٥٣		٣٣٠	متحف بيروت
٣٣١٠٢٦٤٠٢٦٣٠٢٦٢		٢٣١٠٦٠	متحف جدة
٣٠٩٠٧٧	المندرج الروماني	١٣٦	متحف الصويدة
٢٩	مدرسة العلوم الشرعية	١١٢	منغر (واد)
٣١٣	مدينة الأقباط	١٠٤	المجزرة
٣٦٠٣٣٠١٢٠١١	المدينة المنورة	٣٨	مجنة
٤٥٠٠٤٨٠٤٥٠٤٣		٢٣٥	المحجة
٦٧٠٦٠٥٦٠٥٥٢		٢٠١	محطة رشوان
٧٥٠٧١٠٧٠٠٦٩		١٧٩	محلة الشام
٨٤٠٨٢٠٧٨٠٧٧		١٦٧	محلة المظلوم
٩٩٠٩٥٠٨٩٠٨٨		١٦٩	مسجد الآبوس
١٠٦٠١٠٤٠١٠٢		٣٤٠٣٠٠٢٥	المسجد الحرام
١١٢٠١١٠٠١٠٨		٣٣	مسجد الرابة
١٢٣٠١٢١٠١٢٠		١٦٧	مسجد الشافعي
١٤٩٠١٤٨٠١٢٦		١٦٨	مسجد عثمان بن عفان
١٩٠٠١٧٨٠١٦٨		٦٩	مسجد الفتح
٢٠٢٠٢٠٠٠١٩٩		٩٨٠٦٩٠٢٥	مسجد قباء
٢٠٩٠٢٠٦٠٢٠٤		١٦٨	مسجد المعارج

٤٥	مغينية	٢٤٧، ٢٢٦، ٢١٦
٣٢٠	مقصف البتراء	٢٨١، ٢٦٥، ٢٥٩
١٠٢	مقمة أو (مقمن)	٣١٣، ٣١٢، ٢٨٢
٢٦، ٢١، ١٠، ١٩	مكة المكرمة	٣٤٩، ٣٢٩، ٣٢١
٣١، ٣٠، ٢٩، ٢٨		٢٤٥
٣٦، ٣٥، ٣٤، ٣٣		١٥٦، ١٥٥
٥٩، ٤٥، ٤٤، ٣٨		٣٣٥
٧٧، ٧٢، ٦٠، ٥٦، ٥٢		٣١٧
١٢٣، ١١٢، ١٠٧، ٩٨		٢٥٠
٢٠٩، ١٩٢، ١٩٠، ١٦٢		١٣٥
٢٢٨، ٢٨١، ٢٤٨، ٢٢٧		١٦٣
٣١٨، ٣٠٦، ٢٨٨، ٢٨٤		٥٧، ٥٦، ٥٤، ٤٩، ٣٥
٣٣٥		١٣٢، ١١٨، ٩٤، ٩٣
١٧٢	مكتب المعادن	٢٤٢، ٢٤٠، ١٨١، ١٧٩
١٨٨	الملحة	٢٥٠، ٢٤٦، ٢٤٤، ٢٤٣
١٦٢	المليبيد	٢٧٧، ٢٧٥، ٢٧٠، ٢٦٢
١٨٢	المليبيح	٣٣١، ٣٠٥، ٢٨٤، ٢٨٣
٣٢٦، ٢٦٠	المملكة الاردنية الهاشمية	١٥٤، ١٥٣
٤٥، ٩	المملكة العربية السعودية	٤٦
١٩٧، ١٧٤، ١٧٣، ١٥٣		٢٩٥
٢٨٩، ٢٨٤، ٢٧٦، ٢٦١		٣١٥، ٣١٢، ٢٦٨
٣٢٨، ٣٠٠، ٢٩٦		٢٨٢، ٢٨١، ٢٧٢
٣٠	المناحة	٥٠
٢٦٥، ٤١، ٣٨	منى	٥٠
٥٢	منطقة بني سليم	١٨٨
		مربط الحصان
		المربع (قصر)
		المرجة
		مرفص البتراء
		المروة البيضاء
		مرو الرود
		مريح
		مصر
		المصمك
		معدن الدهنج
		معبد سوتيرا (الخرافي)
		معان
		مغاير شعيب
		المغرب
		المغوث
		المغوث

٢٧٥	وادي ابن علي	٣٣١	منطقة تيهام
٢٠١٠٩٣	وادي بطحان	٦٢٠٤٥	منطقة الكامل
٢٤٨٠١٨٢٠١٢٩	وادي بويب	١٧٥٠١٧٤	المهد
٢٠٧	وادي الرعة	٣٠٧	الموقر
١٨٨	وادي تبة	٨١	المقات
١٨٩	وادي جوجان		
٢٣٥	وادي حسينية		ن
٢٣٥	وادي حنيفة	٢٤٤	نادي البحر الأحمر
١٧٤	وادي الحمض	٤٥٠٢٣٠١٩٠١٨٠١٧	نجد
١٨٨	وادي حلي	٠١٨٨٠١٦٣٠٥٠٠٤٦	
٢٣٥	وادي الحمل	٢٩٨٠٢٥٤٠٢٥٣	
١٨٩	وادي خبيبي	٣٠٥٠١٩٤٠١٧٧٠١٨	نجران
٢٣٥	وادي خويلد	٢٣٤٠٢٢١	النفود الكبير
١٨٨	وادي دكان	٢٧٩	نهجان (جيل)
١٧٧٠١٧٤٠١٩٠١٨	وادي الدواسر	٧٢	النواعم
٢٠٧	وادي اللوم	٣٠٧	نيقية
١٠٠٠٦٩٠٢٧٠١١	وادي رانوفاء	٢٨١٠٢٨٠	النيل
١٩	وادي الرمة		
٤٦٠٤٥	وادي سابة		ه
٦٢٠٤٦	وادي ستارة	٢٤٨	هجرا
١٩	وادي المرحان	٣١٧٠٢٩٦٠١٧٩	الهند
٢٠٧	وادي الصويرة		
٢٣٥	وادي صيفية		و
١٨٩	وادي ضلع	١٨٩	وادي أناة
١٨٩	وادي طبب	٤٦	وادي أمج

١٧٤	الوجه	١٨٩	وادي عتود
٢٠٢	وعبرة	١٨٩	وادي عربية
٢٧٩	ورقان (جبل)	٤٣٠٣٦٠٢٧٠٢٦	وادي العميق
٢٦	الوهط	٨١٠٧٨٠٧٧٠٧٦	
		٩٢٠٩٠٠٨٩٠٨٢	
		٩٧٠٩٦٠٩٥	
	ي	١١٢	وادي الفريش
٢٦٥٠٦٧٠٤١٠٣٩	يُرب	٢٤٧٠٢٤١٠٢٣٠	وادي القرى
١٦٢٠٥٦	اليامة	٢٥٠٠٢٤٨	
٣٩٠٢١٠٢٠	يمن (قطر ومحلة)	٦٧	وادي قناة
١٨٨٠١٨٠٠١٧٤٠١٦٨		٥٧	وادي كُلبية
٢٥٤٠٢٥٣٠٢٤٧٠٢٣٤		١٨٩	وادي الملاحة
٢٧٣٠٢٧١٠٢٦٥٠٢٥٦		٧٢	وادي مذنيب
٣٠٦٠٢٧٨٠٢٧٥		٣١٥٠٣١٣	وادي موسى
٢٧٩٠٢٩٠٢٨	ينبع	٥٠	واسط

فهرس الصور والنقوش

صفحة	
٤٠	نقش أثري بمنطقة عكاظ
٤٣	طلل قديم بمنطقة عكاظ
٥١	أمر من المقتدر العباسي بهارة طريق مكة ، (وجد بأرض بني سليم)
٥٥	شاهد قبر قديم ببلاد بني سليم
٦٩	طلل أطم الضحيان بالمدينة المنورة
٨٨	مخطط أثري تقريبي لقصر عاصم وسده بالعقيق (المدينة المنورة)
٩٦	طلل قصر سعيد بن العاص بالعقيق (في المدينة المنورة)
١٢٩	نقش ثمودي بجبل الصويدرة
١٣٠	صورة كناية ثمودية منقورة في جبل الصويدرة
١٣١
١٣٣	صورة نقش عربي في جبل الصويدرة مؤرخ في سنة ٢٠٥ هـ
١٣٤	صورة نقش عربي آخر ، في جبل الصويدرة من أيام هارون الرشيد
١٣٧	صورة نقش عربي آخر ، بجبل الصويدرة
١٣٨	نقش القاسم بن محمد بن أبي عيسى ، بجبل الصويدرة
١٣٩	نقش أبي سليمان علي بن طالوت ، بجبل الصويدرة

١٤١	نقش النجمة الحماسية ، بجبل الصويدرة
١٤٢	نقش « ناصر بات على لحم لند » ، بجبل الصويدرة
١٤٣	رسم الخليل تجر عربات ، من آثار الصحراء الكبرى المائلة لآثار الصويدرة
١٤٤	حيوانات بلاد العرب في الجاهلية : منقورة في جبل الصويدرة
١٤٥	من صور جبل الصويدرة
١٤٦	صورة صيد القليل
١٤٧	صورة صياد عربي بالصويدرة
١٤٨	صورة الاسد والرجل
١٥٤	بوابة بيت جويسر بالرياض
١٥٦	عمران الرياض القديم
١٦٣	جامع الشيخ محمد بن عبد الوهاب
١٧٧	من رسوم متحف جدة
٢١٠	حصن مرحب
٢١٢	أحد بيوت خيبر القديمة
٢٢٩	المؤلف على بشر هداج بتماء
٢٣٢	قصر السمائل بتماء
٢٥١	بعض البيوت الأثرية في مدائن صالح
٢٩٥	معبد سوتير (الخرافي) بفيلكا
٢٩٧	الاختام الأثرية في الكويت
٢٩٩	جامع سوق الخميس بالبحرين

فهرست المراجع

- | | |
|-------------------------------------|-----------------------------------|
| التيجان في ملوك حمير : لعبيد بن | القرآن المجيد |
| شربة الجرهمي | تفسير البغوي |
| المسالك والممالك : للأصطخري | تفسير المراغي |
| المسالك والممالك : للبشاري | سيرة ابن هشام |
| معجم البلدان : لياقوت الحموي | الروض الأنف شرح سيرة ابن هشام |
| أسماء جبال تهامة وسكانها : لعرام بن | السهيبي |
| الأصنع السلمي | قصص الأنبياء : لعبد الوهاب النجار |
| تهذيب اللغة : للأزهري | صفة جزيرة العرب : للهمداني |
| لسان العرب : لابن منظور الأنصاري | الاكليل : للهمداني |
| المخصص : لابن سيده | تاريخ الطبري |
| القاموس المحيط : للفيروزآبادي | تاريخ ابن خلدون |
| فاج العروس : لمرتضى الزبيدي | ديوان النابغة الجعدي |
| المعجم الوسيط : لمجمع اللغة العربية | ديوان حسان بن ثابت |
| بمصر | ديوان كثير عزة |
| معجم متن اللغة : لأحمد رضا | الفهرست : لابن النديم |
| المنجد : للويس معلوف | الكامل : لابن الأثير |
| آثار البلاد والعباد : للقزويني | |

- تاريخ هيرودوتس : لهيرودوتس
رحلة ابن جبير
رحلة ابن بطوطة
رحلة الشتاء والضيف : لكبريت
رحلة في بلاد العربية السعيدة : لثريب
العظم
مرآة الحرمين : لأيوب صبري
مرآة الحرمين : لإبراهيم رفعت
العرب قبل الإسلام : لجورجي زيدان
تاريخ العرب قبل الإسلام : لخواص
علي
العرب في أحقاب التاريخ : لأمين
مدني
تاريخ العرب (مطول) : لقبليب
حي
من الساميين إلى العرب : لنسيب
وهيبة الخازن
الأعلام : لخير الدين الزركلي
جغرافية شبه جزيرة العرب : لعمر
رضا كحالة
أسواق العرب في الجاهلية والإسلام :
لسعيد الأفغاني
وفاء الوفا : للسهمودي
الجزيرة العربية : لمصطفى مراد الدباغ
مشعل المحمل : لمحمد صادق
- دائرة المعارف : لبطرس البستاني
ملوك العرب : لأمين الريحاني
جزيرة العرب : لحافظ وهبة
خمسون عاماً في جزيرة العرب :
حافظ وهبة
قلب جزيرة العرب : لفؤاد حمزة
بحث المعادن : لرشدي الصالح ملحمس
صحيح الأخبار : لابن بليهد
آثار الأردن : لهارديج ، ترجمة
سليمان موسى
كهف أهل الكهف : لرفيق وفا
الدجاني
النقوش والآثار بصخور الحجاز :
لعبدان رفقي رسم - ترجمة -
أحمد شطا
فصول من تاريخ المدينة المنورة :
لعلي حافظ
الزراعة الوطنية : لصالح كمال المدني
في بلاد عسير : لفؤاد حمزة
في ربوع عسير : لعمر رفيع
تاريخ عسير : لهاشم بن سعيد النعمي
عنوان المجد في تاريخ نجد : لابن بشر
تاريخ نجد : لقبليبي
أرض الأنبياء : لقبليبي
تاريخ ابن سنام

التحقيق المدعم في مسجد الراية ويثر
جبير بن مطعم (مخطوط) للمؤلف
كتاب الصحراء الكبرى : جيمس
ويلارد
مذكرات محمد صالح باعشن (مخطوطة)
معلومات خاصة ومكتوبة من الشيخ
محمد نصيف
معلومات أثرية من الدكتور عبدالرحمن
الانصاري .

تاريخ مدينة جدة : للمؤلف
تقرير البعثة الزراعية الامريكية
علوم الطبيعة : لادوار غالب
الكويت . حقائق ومعلومات : لوزارة
الارشاد والآثار الكويتية
مجلة « المنهل »
الآثار الباقية عن القرون الخالصة :
للبيروني
آثار المدينة المنورة : للمؤلف

فهرس الموضوعات

صفحة	
٧	المقدمة
١٥	أضواء على تاريخ جزيرة العرب
(آثار مكة المكرمة وما حولها)	
٣٣	آثار مكة المكرمة
٣٧	سوق عكاظ
٤٥	قبيلة بني سليم في التاريخ : أخبارها وآثارها
(آثار المدينة المنورة وما حولها)	
٦٧	يُرب : القرية والمدينة
٧٠	حصن كعب بن الأشرف النبھاني
٧٦	وادي العقيق

٨٥	بين سد عاصم وقصره بالعقويق
٩٥	قصر سعيد بن العاص
٩٨	قصر امارة المدينة المنورة
١٠٠	وادي رانوان
١٠٣	جبل سلع والآثار به
١٠٤	جبل سليع
١٠٥	الجبل المتوهج
١١٢	جبل عار
١١٩	الصويدرة وادي الآثار الجميل ، أو الخلاء الذي أصبح مدينة عامرة

(آثار الرياض وما حولها)

١٥٣	من آثار الرياض
١٥٨	وقفة بين أطلال الدرعية

(آثار جدة وما حولها)

١٦٧	الآثار في مدينة جدة
١٧٩	متحف آل باعشن بجدة
١٨٢	آثار وادي بويب

(عسير : ملامح وآثار)

١٨٧	عسير
-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	------

(الآثار شمال البلاد العربية السعودية)

١٩٩	رحلة الشمال
٢٤٠	الحجر او مدائن صالح
٢٥٧	بيوت مدائن صالح
٢٦٥	موطن شعيب عليه السلام

(الكويت : ملامح وآثار)

٢٩٣	الكويت بين التاريخ والآثار
-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	----------------------------

(الاردن : ملامح وآثار)

٣٠٣	كهف أهل الكهف
٣١٢	البراء : المدينة الوردية الساحرة

(لبنان وسورية : ملامح وآثار)

٣٣٤	جولة في ربوع لبنان وسورية
-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	-----	---------------------------

(الفهارس)

٣٣٩	فهرس الاعلام
٣٥٣	فهرس الأماكن
٣٦٧	فهرس الصور
٣٦٩	فهرس المراجع
٣٧٢	فهرس الموضوعات
٣٧٥	تطبيقات

للمؤلف

- آثار المدينة المنورة
- إصلاحات في لغة الكتابة والأدب
- بناة العلم في الحجاز الحديث
- الكتاب الفضي للمنول
- تاريخ مدينة جدة
- تحقيق أمكنة في الحجاز وتهامة
- رحلة الرياض
- التحقيقات المعدة بخدمية ضم جيم جدة
- أربعة أيام مع شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي
- بين التاريخ والآثار
- تاريخ العين العزيزية بجدة
- تاريخ مكة المكرمة (يشتمل فيه المؤلف منذ أربع سنوات بناء على إشارة معالي الشيخ محمد سرور الصبان الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي . ويقدر المؤلف أنه سيكون في أربعة مجلدات إن شاء الله تعالى) .
- التوأمان : أول رواية نشرت في المملكة العربية السعودية
- الانصاريات : (شعر)
- بنو سليم : عرض لشريط تاريخي عن امتداد الاسلام والعروبة من مهدهما إلى العالم

بين التاريخ والآثار

هذا الكتاب «محصول» دراسات متوالية . للتاريخ والآثار . استمرت أمدًا بئيف عفي ثلاثين عاماً . بدأها المؤلف في المدينة المنورة . في شوارعها ومنازلها . ومساجدها وقصورها الأثرية وجبالها ووهادها وجرارها . وأوديتها . . . وبلغ بها السير إلى مكة المكرمة وجده والطائف والرياض والحرج والدرعية ونها في المملكة العربية السعودية . والبحرين والكويت والأردن وسورية ولبنان في خارج المملكة . . . وقد عبر المؤلف بصوره دراساته هذه المشتمية في بوتقة دراسات مركبة هادفة وشاملة .